الكنيسة في الشّرق ⑥

محطّات مارونيّة

من تاريخ لبنان

الأباتي بولس نعمان

دير سيّدة النّصر
نسبيه - غوسطا
١٩٩٨

محطّات مارونيّة

الكنيسة في الشّرق (٦)

محطّات مارونيّة

من تاريخ لبنان

الأباتي بولس نعمان



دير سيّدة النّصر
نسبيه - غوسطا
١٩٩٨

تمهيد

هذه النصوص كُتبت على مراحل ونُشر بعضها بحسَب تعاقب الظروف وتقلبات الأحداث، إنها محاضرات وخطب ومقالات تلتقي جميعُها حول تاريخ لبنان ومسيرته نحو الكيان السياسي الخاص المرتكز اصلاً على الحرية والديمقراطية والتنوع الثقافي.

لم يوضع لها تصميم مُسبق يجمعها في تسلسل متتابع بل وَحّدت ما بينها نظرة إلى لبنان وتاريخه ودوره الروحي والانساني والحضاري والسياسي. ولأنها، بهذه الروح ولهذه الغاية، أمكَنَ جمعُها في فصول ثلاثة: **التاريخ والتراث، عودة الروح، والشهادة للحقيقة.**

فالفصل الأول يهدف الى إحياء بعضٍ من محطات «**التاريخ والتراث**» للتأكيد على تواصلية الوجود المسيحي لالفي سنة في هذه الربوع. وعلى العلاقات المسكونية التي استطاع هذا الوجود المتواصل ان يُرسيها، مرة بين بيزنطية والاسكندرية في حوار

لاهوتي فكري كانت ثمرته المشرقية الانطاكية، وتارة مع الشرق العربي، فأغنى اللغةَ والحضارة ترجماتٍ وفكرًا ومفاهيم لاهوتية وثقافية وعلمية وسياسية جديدة، وطورًا مع الغرب، فنقل اليه علومَ ولاهوتَ وفكر الشرق، مرسّخًا بذلك الدور المتوسطي لهذه البقعة من الأرض الموجودة على مفترق الطرق والحضارات والآلهة والناس.

والفصل الثاني، وان اقْتَصر على مقالات ثلاث تُعنى بشؤن الروح والتربية، فهو يُشيرُ الى علاماتٍ تُبشّرُ «**بعودة الروح**»إلى هذا الشعب وإلى هذا الوطن لتكون قيامته وتجدّده على القيم الإنسانيّة والإنجيلية كما اشار إلى ذلك الإرشاد الرسولي. هذه الروح الزاهدة والعاملة بتجرد وصمت والتي رافقت تكوين هذا الوطن وتعمل ابدًا لديمومة بقائه، والتي من شأنها، اذا ما أطَلّت، من جديد، على الحداثة، وتميّزت بالعلم والمعرفة، بالإيمان والمحبة والخدمة المجانية، ان تزيل عن هذا الكيان ما يكون قد علق فيه، بفعل الإنسان والزمن الرتيب، مِنْ بُعْدٍ عن المسار الرائد والانجراف وراء نزاعات فرديّة وعصبيات.

أما **الفصل الثالث** فيُسَلّط الأضواء على بعض الأدوار البارزة التي «**شهدت للحرية**»، لعل عدواها تنتقل الى الأجيالِ الآتية، أفرادًا وجماعات، فيُؤكد اللبناني، من جديد، على الشجاعة وقيم الحرية والكرامة الشخصية والجماعية والامانة للتراث ووضوح الرؤيا

والتفـهمّ العمـيق للواقع المتغـيِّر، كـما يؤكد على ايمانـه وجرأته في ريادة المستقبل واقتحام الصعاب، ومغـالبة الطبيعة متسلحًا بخبرات الماضي وتجـاريبـه من أجل إعـادة إرســاء أسس الحـرية والكرامـة والديمقراطيـة على أرض صلبة ثابتـة، لا تهدف إلاّ إلى الحـفاظ على الإنسان فردًا حرًا كريمًا غيـر منتقص الحقوق ودون تفرقة بين لونٍ أو عرقٍ أو جنسٍ أو دينٍ أو بـيئةٍ. وإلى تطوير هذا الإنـسان واعطائه الفُرصَ الملائمة لبلوغ كماله وتتميم رسالته.

هذه هي اللحمة والخيط الرفـيع الذي يشدُّ هذه المقالات والخطب بعـضـها الى بعض: مـن تكوين لبنان مع الفـتح الرومـاني والحكم البيـزنطي، الى الفتح العربي الذي اخـصبه بفكر جـديد، الى ارتباطه بالحضارة العـالمية في العصور الحديثـة بعد الفتح العثـماني للبلاد سنة ١٥١٦، الى إرساء أسس الاستقلال، وبناء الدولة مع البطريرك الياس الحويك والكنيسة المارونيـة، الى الاضطرابات الأخيرة وما مرَّ على الوطن بسببها من محن وكوارث، الى اتفاقية الطائف او ما دعي «بوثيقة الوفاق الوطني».

هذه كلُّها شكَّلت مـحطات أساسية في مَـسيرة لبنان التاريـخية نحـو الكيـان الـسـيـاسي الخـاص القـائم على الحـرية والكرامـة والديمقراطية والانفتاح على الـشرق العربي والغرب. وارادة العيش بسـلام وبناء وطن قابل بتنوع ثقـافات ابنائه ضـمن وحدة وطنـية تشكّل مجتمعًا مدنيًا يبني السلم الاهلي دون الانزلاق نحو عصبيات

دينية أو اصوليات.

هذه المحطّات، تُبرزُ شجاعة اللبناني وبُعدَ نظَرِ. واصراره، بالرغم من التعثُّرات السابقة والقائمة اليوم، على تأكيد ايمانه بدعوة لبنان المتوسطية القائمة على الجمع ما بين عالمين وحضارتين وديانتين. إنها تفكير في الماضي القريب والبعيد، ولا تطمح الى صياغة طَرْحٍ مستقبلي جديد، بل توحي بالمبادئ والأسس التي لا بدَّ منها لقيام أيّ بناء حديث ينسجم مع دعوة لبنان المتوسطية القائمة على التلاقي والائتلاف.

فا لاختبار يعلّمنا أنّ لبنان لا يبنى إلاّ على الائتلاف والتوسطية كما كان يردد المفكر اللبناني ميشال شيحا ومن بعده تقي الدين الصلح في مجالسه: اذا كان من فضل للمسلمين ففي استقلال لبنان، أما فضل المسيحيين والموارنة بنوع خاص، ففي الحفاظ على الحرية والديمقراطيّة.

هذه المعادلة لا تزال صالحة بحد ذاتها شرط أن تظل مقبولة ومحترمة: ولكن هلاّ يزال المسلمون مستعدّين للقبول بالاستقلال عن المحيط وتأثيراته؟ وهلاّ يزال المسيحيون مستعدّين لتحديث انظمة الدولة بما يتلاءم مع أنظمة الدول الحديثة في القرن الحادي والعشرين؟

من الثابت والأكيد ان الحالة الحاضرة لا يتمنى بقاءها أحد، وهي

ليست لـلمفاخـرة، ولكنها قـائمة على كل حـال، ومن الضروري ان يتخطاها اللـبنانيون بميثـاق لبناني جديد ينبثق عـن الارادة اللبنانية المحرَّرَة، ميثاق يتألف من ثلاثة بنود مـتكاملة متلازمة، نتكوَّن حولها من جديد، ونحـملها كأنهـا قضيتنا الوحـيدة. قضـيّة طالما تنكّب عن حملها الشرق ويتنكَّرُ لها احيانا بعض الغرب وهـي :

– قضيّـة الانسان بما انه انسان وحسب، في حقوقـه وحريته وكرامته.

– قضية الحداثة، في العلم والمعرفة والتكنولوجيا.

– وقضيـة القداسة، في عـلاقتنا مع الله والقريب والطبـيعة. بهذه الثلاث نفرض ذاتنا قوة للمستقبل، قوة بناء وعلم وفداء.

مرة سُئل احد المؤرخين عن اهم امثـولات التاريخ فاختصرها في اربعة:

الاولى : ان الآلهة تضرب بجنون العظمة من تريد اهلاكهم.

الثانية : ان طواحين اللّه تطحن ناعمًا ولكن ببطء.

الثالثة : ان النحلة تخصب الزهرة وهي تنهب رحيقها.

الرابعة : انه لولا سواد الليل لما امكنك رؤية النجوم.

أملنا بعـد هذا الليل الطويل والنهب المبـرمج لطاقاتنا ان تـشرق نجمة الصبح على اللبنانيين فيدركوا ما هو خير لهم وللوطن لبنان.

الأباتي بولس نعمـان في كتابه هذا يتابع مسـيرة الريادة الفكرية والعلميـة التي خطّها منذ بداية ابحـاثه حول لبنان والمشـرق العربي والموارنة ودورهم. فـمنذ ان اتى الأباتي نـعمـان بطرحـه الهـام عن الموارنة كتيار فكري لاهوتي انطاكي مشرقي رهباني وليس كجماعة منعزلة متقـوقعة بعيدة عن محيطهـا الجغرافي والتاريخي والفكري تغـيرت قراءة تـاريخ الموارنة وعلاقـتهم بلبنان وبالكنائـس الاخرى والمشرق العـربي فصارت قـضيتهم قـضية الحـرية لهم ولسواهم. فاسّسـوا مجتمـعهم ووطنهم على الصلاة والعمل والقـداسة والفكر والزهد فجسدوا في حياتهم لاهوت التـجسد حيث صار الله حاضرًا في تاريخ الانسـان والانسـان ابنًا لله المتـأنس. مع الأباتي نعـمـان التيولوجيا متجسدة في جغرافية معينة ومجتمع معين وانسان معين لمشروع وطن عاش في الحقل والبيـدر والكنيسة والمدرسة والاديار والمناسك والمطابع والتحولات التاريخـية والفكرية حتى انتهى الى ما اكدَّهُ الارشـاد الرسـولي: أنَّ لبنان هو رجاء جـديد للانسانيـة لأن رجاء لبنان الجديد يقوم على التـجدد بروح يسوع الذي وحده يجدِّد الانسان ولبنان.

الأب يوسف مونس

غزير في ٩ شباط ١٩٩٨

الفصل الأول

تاريخ وتراث

أولاً - الموارنة ولبنان

ثانيًا - الجذور التاريخيّة للمسيحيّة في لبنان

ثالثًا - ميزات المسيحيّة في لبنان

رابعًا - المجتمع الماروني في أواخر القرن السادس عشر

خامسًا - ذكرى تأسيس البطريركيّة المارونيّة

سادسًا - معنى لقب بطريرك انطاكية وسائر المشرق ومداه

سابعًا - المارونيّة حتى سنة ١٩٤٣

الموارنة و لبنان

إنّ المؤرّخ الذي يبحث في نشــأة لبنان، يضـع نفسه مبـاشرة من ضمن إطار الحــدث. فالواقـع التــاريخـي، زمنُه والوثائقُ التي تشــير اليه، تبـقى العنصر الأساسي للتحليل. لذا، ان نشــأة لبنان، وإعلان استقلاله وتعثّراته الدســتورية الاولية، وحكوماته الاولى، وتنازعية الولاءات التي تتـجـاذبه، تبقــى الاحداث المدوّنة من ضــمن الزمــان والمكان، والمؤشر الاكـيد إلى مســيرة لبنان التــاريخية نحــو الكيان السياسي.

ان المقاربة التي تختار الاحداث بتسلسلهــا وتتابعها تفرض ذاتها على المؤرخ الحريص على الموضوعية الحادثة، كما تفرض ذاتها، في اكثر الاحيان، على حساب نشأة الحدث المرتبطة بعوامل محدّدة غير بيّنة، والتي يشكّل الحدث فعليًا نتيجتها الخارجية الظاهرة.

اريد ان اركّز في هذه المقدّمة على هذه النشأة، لاشير إلى ان وراء الوقائع التاريخية المنتظمة والمبوّبة تبرز الملامح الخاصة لشعب كان

رائداً في تطلعاته، وسماته التراثية، وفراداته الثقافية والروحية، واخيرًا في تصميمه على تأكيد مسؤوليته عن مجتمعه السياسي.

إنّ التأمّل في فسيفساء الطوائف الاقلاتية التي هربت من الاضطهاد الديني الممارس عليها في غير مكان، والتي وجدت على هذه الارض المضيافة ملجأ، يرينا انها بقيت متمسكة بخصوصياتها وحريصة على ذاتياتها، بحيث اننا نتبيَّن بُذورَ مشروع وطني قادر على تأمين قواعد ثابتة لعيشٍ مسالمٍ، يحترم الجماعات الاتنو-دينية على اختلافاتها وفي حرياتها الاساسية.

لم تتخذ هذه المهمة البنّاءة جذورًا بالفعل، الا من ضمن الجماعات الموجودة على أرض لبنان. انما كان لا بد من ان تتحمّل احدى هذه الجماعات المسؤوليّة المباشرة عنها كما تبعاتها على نحوٍ مثالي متفانٍ. وكان لا بد لها من ان تحضّ شريكاتها على ان تحذو حذوها بانفتاحها وشموليتها الإنسانيّة.

ويبدو ان الجماعة المارونية كانت السَبَّاقة والمؤهلة اجتماعيًا وإنسانيًا، لمثل هذه المهمة.

لقد حافظ الموارنة، القابعون في المناطق الجبلية لفينيقية اللبنانية، بفضل اطار إيكولوجي (المحيط) تعددي في اساسه، على ثقافتهم الآرامية والكنعانية ضد كلّ المداخلات، وحتى الهلينية منها. ويعود كلّ ذلك إلى قناعتهم الثابتة بالانتماء إلى جسم رأسُه يسوع ابن الإنسان، كما يؤكدون في رسالة مؤثرة ارسلوها سنة ٥١٧ إلى

البابا هورميذداس[١]، في زمن كان الشرق يقبع في شبه عزلة. لكنّ الموارنة، بفضل علاقـاتهم بالمسيحية العـالمية، قاموا بتجـربة انفتاح على كلّ تراثات الشـرق والغرب الروحـية والفكرية، كـما سـاهموا بعطاءاتهم الخاصة.

لذا وانطلاقًـا مـن الاديار المركّـزة والمنظّمـة، ابـتـداء من القـرن السادس عشر، قام الموارنة بنشاط تربوي طال مـجتمعهم على نحو شمولي.

وتحوّلت الجماعة الرهبانيّة، تدريجيًا، كنيسـةً – مجتمعًا، مفتتحة بذلك مشروعَ وطنٍ يتحرك من ضـمن دائرتها وملازم لها على نحو شديد.

نقتبس هذه المعطيات من وثيقتين تاريخيتين كتبهما رئيسا بعثتين رسوليـتين قدما إلى لبنان للتحـقّق من "وضعية الموارنة" مُـوفَدين من البابا غريغوار الثـالث سنة ١٥٧٨، وكليمان الثامن سنة ١٥٩٦. وهمـا يقولان في تقـريريهمـا: "ان الموارنة شعب منتظم فـي قراه ومناطقه، له عاداته واعرافـه، نمط حياته، معتقداته، كـتبه وعلماؤه، كـشّافـتـه وحمـاة حـدوده، جـيشـه الخـاص وعلاقـاته الداخليـة والخـارجية ... ".

لقد تركّزوا في البـداية في مناطق متاخمة لبعـضها تضمّ اهدن–

---

[١] الاباتي بولس نعمان، «المارونيّة لاهوت وحياة،» الكسليك، ١٩٩٢، ص ١٥٩.

الزاوية، جبة بشري-البترون، جبة المنيطرة - نهر ابراهيم، وتحصّنوا في هذا المثلّث الاستراتيجي قاعدة تنظيمهم الاجتماعي وضامن امنهم وكرامتهم وحرّيتهم الدينية. ودفعتهم كثافة الخبرة التي اكتسبوها في حياتهم الوطنية الناشئة وخصائصهم التراثية إلى عقد تحالفات متعاقبة مع امراء بني عساف التركمان السنَّة، وفخر الدين المعني الدرزي، مقدّمين خدماتهم، ومعرفتهم وحسن تدبيرهم واخلاصهم الذي يشرّف هذا الالتزام.

هذا هو المصدر والحافز لتوزُّعِهم الجغرافي على كلّ المناطق اللبنانية واشعاعهم، حاملين ذهنية لاهوتية خلقيدونية تجسُّدية أشاعَتْها الكنيسةُ فيهم بصبر واناة، ذهنية مشبعة بروح يسوعَ ابن الإنسان المتجسِّد، إلى حدّ جعلهم يتعاطون مع الغير، ويعطون ذواتهم للآخرين من دون حساب وبعفوية بالغة بلا تحفّظ أو شكّ. فتآخوا بذلك مع الكل متجاوزين كلّ الاختلافات، وبنوا بذلك علاقاتهم الاجتماعية على مستوى التفاعل والتبادل اللذين لم يحدّ منهما الا الموانع والمحرّمات التي اقامها الآخرون. ففي صنيعهم هذا بثوا الحس الوطني، وعملوا من اجل المشروع العتيد، مشروع لبنان الوطن الحاضن والجامع.

ان هذه المهمة التاريخية التي كرّس الموارنة ذواتهم من اجلها يوم تأمّنت قاعدتهم الجغرافية، برهنت على جدواها وثباتها حتى يومنا على مستوى لبنان بكلّيته. وهذا ما تثبته، على نحو لا يخطئ، قراءة

متأنّية لِتَوَزُّع الجماعات الطائفية، حيث المسيحي والماروني خصوصًا يخالطان الطوائف الاسلامية ويشاركانها، دونما استثناء.

يفتش الماروني عن التخالط ويقبله، خلافًا لغير جماعات حيث تنعدم هذه الظاهرة. ففي حين أنّ الامتداد الدرزي يطال ٧٪ من قرى لبنان، والسنّي ٢٤٪ من الارض، والشيعي ٣٠٪ من الجغرافيا اللبنانية، يبلغ الامتداد المسيحي نسبة ٥١٪ من هذه القرى، سواء نسبنا هذا التوزّع إلى خصائص فردية أو إلى انتماء طائفي يدعو إلى ذلك. كلّ هذا لا يبدّل النزعة الغالبة للاتجاه الدمجي الذي اعتمده الماروني مبدأ تعامل، رافضًا بذلك كلّ شكل من اشكال المسافة الاجتماعية.

ولقد اظهرت التقصّيات العلمية في علم النفس أنّ اجتماعية الماروني تجعله الأقرب إلى الشخصيّة المؤسِّسة للبنان.

فالمارونيّ يحمل في ذاته كلّ عوامل التقارب والنزوع نحو الآخرين، رضينا بذلك ام لم نرضَ، لأنّه يشكّل الجامع التاريخي والإنساني الضروري لاي تآلف بين الجماعات الطائفية.

ويظهر لنا على المستوى الجيو-سياسي العام، أنّ تَشَكُّل الجماعات البشرية هو الدليل الساطع عمّا نقول. إنّ مسيحيّي الجنوب، بالتحديد الموارنة الذين يسكنون القاطع الممتدّ بين تومات نيحا – جزين ومشارف صيدا، شكّلوا المنطقة العازلة التي تفصل الدروز عن الشيعة، مما حفظ المسافة الاجتماعية، التي تظهر ههنا

واقعًا تاريخيًا ملازمًا وضروريًا للتوازن الجيو- سياسي الطائفي؛ وهذا ليس من باب المصادفة.

لا ريب في ان الماروني فتّش عبر تحالفاته عن مصالح مشتركة. وهذا امر طبيعي بالنسبة إلى الجماعات البشرية وفي المعادلات السياسية. لكننا لا نستطيع ان نجعل من انفتاحه على الآخرين هدفًا صغيرًا أو مقتصرًا على «استراتيجيا» مصالح. فهذا امر يناقض روح المسيحية المكوّنة من محبةٍ فاعلة وكرمٍ منفتح وتوّاق. ان المهمّة التربوية والتنشيئية التي تَحَمَّلَ الموارنة تبعاتها حيال الطوائف الاسلامية، ان في لبنان أو في الخارج، تُظهر عَلَنًا حرصهم على ملاقاة الآخر في اختلافيته، وفي نوع خاص حرصهم على العدالة والمساواة.

هذه هي امثولة المجتمع-الكنيسة النابعة من الروحانية الانطاكية والتي تشكل طينة الماروني. ان الثقة بالغير، امر يثبته التاريخ من خلال قصة البطريرك الحويك الذي حمل قضية لبنان الكبير[٢]. ففي اصراره على منع اجتزاء لبنان وتصغيره، اكّد انه يفضّل التعايش بين المجموعات الطوائفية على "المعزل" المسيحي. لقد بلغ خياره مدى ابعد من التوازن الديمغرافي. اتجه نحو الصيغة التآلفية المسيحية-الاسلامية. ان روحية الماروني تحكي بدورها عن الثقة التي امست غفرانًا. ان الموقف الروحي المطهّر، هذا الحرص على

---

[٢] راجع اعلاه المقال: «دور البطريرك الياس الحويك»، ... ص ١٧٩ – ٢٠٣.

تنقية الضمير من كلّ حقد؛ هذا المعنى المسيحي للغفران، حدا الماروني على العودة إلى الآخر وقبوله وملاقاته وحمايته على رغم كلّ التجارب المرّة السابقة التي اكتوى بنارها.

يخطئ ها هنا من يعتقد بان ذاكرة الماروني قصيرة، أو انها واهنة. ليس الماروني رجل مرارة، فهو لا يضمر حقدًا دينيًا أو "اتنيًا" ولا يخبّئ حسّ انتقام داخلي، وهذا ما يظهره اندفاع الكنيسة واصرارها على إعادة بناء لبنان بعد دمار سنة ١٨٦٠، وبعد محنة ١٩٧٥-١٩٩٠؛ فالماروني يعي قيم حياته، ويقبل في بلواه نسيان الظلم الذي لحق به، ويعيد ثقته بنفسه، وهذا مؤشّر نكران للذات وعلامة رجاء أساسًا.

في ضوء هذه المعطيات الإنسانية، نفهم كيف تحوّل لبنان مشروعًا سياسيًا، وكيف أنّ تطوّر الدولة اللبنانيّة هو حصيلة نمو المصير الماروني الذي يشكّل الخميرة التي لا بديل منها لأي صيغة تآلف أو تسوية تاريخيّة أو عقد اجتماعي.

أمّا اليوم، فالتحامل على الموارنة وتهجيرهم واضطهادهم، إلى المآسي الشخصيّة والاجتماعيّة، كلّ هذا لا يعني الا انهيار لبنان السياسي. ان تقلّص الوجود الماروني -الجغرافي والسياسي- هو اعدام لفكرة الدولة اللبنانية المستقلّة والعودة إلى حياة القبائل والعشائر في القرون الوسطى، حيث العائلات والطوائف المستلبة الإرادة تتقاسم سلطة وهمية هشّة.

إنّ الحضور الماروني في كلّ مناطق لبنان هو الضامن لوحدة لبنان والشرط الأساسي لديمومته. ومن هنا نتبيّن عدم جدية الاتهام الموجّه إلينا بمحاولة خلق «معزل» ماروني. ان المسكونية السياسية التي حرّكت الماروني لا تزال هي نفسها المحرّك الاساسي وسط هذا الوضع المقلق والمرارة التي نعيش. فالموارنة لم يتخلوا عن لبنان الـ ١٠٤٥٢ كلم[٢]. والماروني هو الذي اطلق هذا الشعار وكان ضحيّته، لا بل اكثر، فقد قدّم الشهداء وصرف قرونًا من الجهد والكدّ من اجل تحقيق هذا الهدف.

إن الذين ارتكبوا الاعمال العدوانية البربرية لن يستطيعوا اخفاء عجزهم العميق عن قبول الآخر، ولن يسعهم ستر عنفهم والخوف من مواجهة الابعاد الإنسانية الاصيلة.

وعلى رغم كلّ الاختلافات وكل أشكال الحقد، وانطلاقًا من مسؤوليّاته الإنسانيّة، التي أكّدها قداسة البابا يوحنا بولس الثاني في الإرشاد الرسولي «رجاءٌ جديدٌ للبنان» الذي وَقَّعَهُ في بازيليك سيدة لبنان-حريصا، سوف يعمل الماروني جاهدًا وفي كلّ لحظة على اساس الغفران من اجل اعادة بناء لبنان المحبّة والثقة، لان «مسيحيي الشرق الأوسط ومسلميه (...) مدعوون إلى ان يبنوا معًا مستقبل تآلف وتعاون، في سبيل تطوّر إنساني وأخلاقي لشعوبهم. وإلى ذلك، ان الحوار والتعاون بين مسيحيي لبنان ومسلميه يمكن ان يساعد على تحقيق المسعى نفسه، في بلدان اخرى»[٣]

---

[٣] الإرشاد الرسولي، «رجاء جديد للبنان»، جل الديب، لبنان، ص ١٥١.

الجذور التاريخيّة للمسيحيّة في لبنان [1]

لبنان في العصر البيزنطي(٣٩٥-٦٣٤)

في كلامه على بيروت، ختم العالم الجغرافي الفرنسي إليزيه روكلو Elisée Reclus حديثه بهذه الكلمات: "هذه المدينة هي واحدة من المدن التي يجب ان تستمرّ في البقاء على رغم كلّ شيء. يمرّ الغزاة وتعود المدينة إلى حياتها بعد رحيلهم". هذه الكلمات ذاتها تنطبق، لحسن الحظ، لا على مدينة بيروت فحسب، انما كذلك، وقبل كلّ شيء، على لبنان الموغل في القدم، هذا الذي اتّخذ بيروت عاصمة له.

[1] مقالات في «المسيحيّة في لبنان» صدرت في صحيفة «النهار»، بتاريخ ٢٩/١١/١٩٩٣ و ٣٠/١١/١٩٩٣. وهي في الاساس محاضرة أُلقيت في بطريركيّة الارمن في انطلياس بناء على طلب الكاثوليكوس كاراكين الاول سركيسيان.

فلبنان هو من البلدان التي وُهبت ديمومة الحياة إلى ما لا نهاية. فالنقوش التسعة عشر على صخور نهر الكلب والاثار الغنية الضاربة في عمق التاريخ، التي ازيل عنها الغبار اخيرًا في بيروت[٢]، ليست سوى شواهد ساطعة على ذلك.

قبل ان نتطرّق إلى دراسة مفصّلة لما نعرف عن لبنان ذلك العصر، من المجدي ان نحدّد الاهمية والمدى التاريخي والجغرافي لهاتين اللفظتين اللتين نودّ الكلام عليهما: لبنان والعصر البيزنطي.

لبنان

في العام ٦٤ قبل الميلاد، اعلن الوالي الروماني "بومباي" المنطقة التي احتلها "ولاية رومانية". وهي تضمّ، من جهةٍ، الفراتَ الاعلى وخليج إيسوس، ومن جهةٍ اخرى، مصرَ والصحراء العربية [٣].

هذه الولاية التي أُسميت في البدء "ولاية سورية" تفتّتت مع الزمن، إمّا بسبب جنسيات سكانها الشديدة الاختلاف، وإمّا بسبب الانقسامات السياسية التي اصابت البلاد في اواخر عهود السلالة السلوقية[٤] (مما يعني أن التسمية لم تكن طبيعية بل سياسية).

(٢) KARAM Naji, *L'Histoire qu'on assassine*, Beyrouth, 1996

(٣) ج. اوسروغورسكي، «تاريخ الدولة البيزنطية»، باريس، ١٩٦٩، ص ٥٣٠.

(٤) ج. مارغواردت، «تنظيم الامبراطورية الرومانيّة»، باريس ١٩٩٢، الجزء الثاني، ص ١٥٩ – ١٦٨.

ففي السنة السادسة قبل الميلاد انفصلت عنها ولاية "اليهودية"، وبَدْءاً من القرن الثاني، غلب على هذه الولاية اليهودية اسم "سورية - فلسطين"، وفي العام ١٩٤ فصل سبتيموس ساويروس "سورية الداخلية" أو سورية العليا عن "سورية الفينيقية". وهكذا تفرعت هذه «الولاية السورية» ثلاث ولايات: الفلسطينية اليهودية، والسورية العليا والفينيقية.

وفي القرن الرابع وبداية الحكم البيزنطي، قُسّمت "سورية الفينيقية" "فينيقية البحرية" و "فينيقية اللبنانية".

- **ففينيقية البحرية**، وعاصمتها صور، كانت تضمّ مدن انتارادوس، ارواد، عرقة، طرابلس، اورتوزي، البترون، جبيل، بيروت، النبي يونس (الجيه)، صيدا، شرق راشيا، وقيصرية فيليب، اعني لبنان التاريخي بكامله فضلاً عن الجزء الجنوبي من السلسلة الشرقية.

- **أما فينيقية اللبنانية**، وعاصمتها دمشق، فكانت تضمّ مدن بعلبك، اللاذقية، ابيلا، حمص وتدمر، اعني الجزء الشمالي من السلسلة الشرقية، إلى البقاع والشطر الشرقي كاملا، وصولاً إلى تدمر.

إن لبنان التاريخي الذي يؤلّف اليوم الجمهورية اللبنانية، يضمّ، إذاً، الشطر الأكبر من "فينيقية البحرية" (ما عدا ارواد وانتارادوس في الشمال)، مضافة إليه بعلبك والبقاع من "فينيقية اللبنانية".

العصر البيزنطي

ليس من السهل ان نحدّد بدقة بداية العصر البيزنطي، إذ إنّ الدولة البيزنطية لم تكن، حين نشوئها، سوى امتداد متقلّب ابدًا للامبراطورية الرومانية القديمة. هذه الامبراطورية لم تنقرض فجأة بانتقال العاصمة إلى القسطنطينية في العام ٣٣٠، بل من الأنسب ان نرجّح لذلك العام ٣٩٥، عام وفاة ثيودوسيوس وقسمة الامبراطورية بين ابنيه اركاديوس وهونوريوس. كما ارجع البعض بدايات الامبراطورية البيزنطية إلى عهد يوستنيانوس (٥٢٧–٥٦٥) أو بالاحرى إلى عهد لاوون الاوزوري (٧١٧–٧٤٠).

مِنَ الاصح إذًا حصر بداية هذا العصر من ضمن فسحة من الزمن لا في تاريخ معيّن.

في هذه الحال، إنّ نقل العاصمة إلى القسطنطينية، ثم وفاة ثيودوسيوس التي عقبتها قسمة الامبراطورية، جعلا بلادنا تطلّ على عصر سيدعى لاحقًا العصر البيزنطي الذي سينتهي بالفتح العربي (٦٣٢ – ٦٤٠).

وسيتميّز هذا العصر بالنسبة إلى لبنان بظاهرتين هامتين: انبثاق الشعور الوطني وانتشار المسيحية. هذان العاملان، كما يحصل عادة في التاريخ، سارا في الاتجاه نفسه، وساهما، بذلك، مساهمة فعالة في تفتّح الشخصية اللبنانية، هذا التفتح الذي سيتجلّى في تحوّل

عميق يشمل هيكليات البلد الإنسانية والاقتصادية والثقافية والروحية.

١- انبثاق الشعور الوطني

اولاً : التنظيم الجديد

إنّ التحرّك الوطني في بداية القرن الرابع، أخذ ابعادًا لم يعد ممكنًا حجبها. وقد وعى الاباطرة ذلك؛ فإقامتهم في انطاكية وسورية، ونقل العاصمة، وقسمة الامبراطورية، كلّها لم تُفلح في لجم هذه الحركة وتجميدها.

لقد أُجْرِيَ إذّاك تقسيم جديد، نوع من تجزيء اداري عُني بالتوزيع الجغرافي للجنسيات الكثيرة التنوع في «الولاية السورية». ففي فَصْلِ فينيقية عن سورية وعن فلسطين وقسمتها ولايتين: فينيقية البحرية وفينيقية اللبنانية، اقرار من البيزنطيين بالطابع الاصيل والشخصية المميزة لهذه المنطقة.

ونتساءل بعدُ، عن الضرورات التاريخية التي أملت على هؤلاء الاداريين المحترفين ان يضمّوا إلى فينيقية اللبنانية أقضيةً قارّية ومدنًا مثل دمشق وحمص وتدمر، لم تكن اصلا، حسب الاب هنري لامنس، تابعة لا لفينيقية ولا للبنان.

ثانياً: الادارة

لم يطوّع البيزنطيون من هاتين الولايتين سوى عدد قليل من الجنود. كانوا يخشون، حسب بعض المؤرّخين، الفرَقَ المطوَّعَة محليًا والقوّاد البلديين. ودفعوا بالمواطنين الاصليين إلى نسيان مهنة السلاح. إلى ذلك، غدت المدن الكبيرة التي تفتقر إلى اعتدة كافية، عاجزة عن الصمود في وجه الغزوات العربية، وعلى الاخص الغزوات الفارسيّة. ومع ذلك، عمدت السلطة، لتحصين هذه المدن، إلى زيادة الضرائب والتشدّد في الجبايات. من هنا، اصبح الشعب مهدّدًا، مجرّدًا من السلاح، مُبعدًا عن الخدمة العسكرية، مُضَحّى به لمصالح الدولة والموظفين البيزنطيين، مما ألجأه إلى التنكر للحكم وإضمار السخط ازاء الامبراطورية، فهجر سهولَ الشاطئ الخصبة وقَصَدَ الجبل الذي كان وقتها – ما خلا بعض مراكز ريفية – يضمّ فقط بعض اماكن عبادة ومعقلاً للنساك وحدهم.

إلى مضايقات الدولة هذه، حصلت نكبات مثل الطاعون والجراد، واخيرًا زلزال سنة ٣٤٩ ب.م.، وعلى الاخص زلزال سنة ٥٥٥ ب.م. الذي اعقبه هياج امواج البحر الذي يشير اليه تاريخ لبنان[٥].

هذا الزلزال الثاني البالغ العنف هزّ الشاطئ الفينيقي ونالَ بيروتَ منه الاذى الاكبر، اذ قضى تحت الانقاض ما يناهز ٣٠٠٠٠ شخصاً.

[٥] هـ. لامنس، «سوريا، موجز تاريخي»، الجزء الاول، بيروت ١٩٢١، ص ١٢– ١٤.

كما انّ مدرسة الحقوق المشهورة في ذلك العصر دُمّرت تدميرًا كاملاً وزالت من الوجود.

ثالثاً: التجارة والصناعة

لم تثبّط هذه الكوارث عزيمة السكّان الاصليين (الذين دعاهم اليونان فينيقيين). فهم، بصفتهم تجارًا في اكثرهم، اكملوا سيطرتهم على اسواق اوروبة التي كانت تسودها البلبلة، ناهيك بغزوات البرابرة لها. كما ان بحّارتهم مخروا البحر المتوسط واقاموا مستعمرات في اهم مدن اسبانية وايطالية وبلاد الغول، وبلغوا موانئ البحر الاسود ووصلوا حتّى مراكش.

وفي القرن السادس، عرفت تجارة الاقمشة ازدهارًا جديدًا بفضل إدخال دود الحرير البلاد بواسطة الرهبان المرسلين. فتطوّر انتاج الحرير الخام إلى جانب صناعات الزجاج والارجوان المحلية التقليدية، وانتعشت الصناعة في البلاد مما أدّى إلى الازدهار الاقتصادي في لبنان إبّان ذلك العصر المترجرج.

وإظهارًا للحقيقة، نشير إلى انّ اللبناني، بفضل انتاج الحرير الذي تركّز في المرتفعات الوسطى، بدأ يميل إلى الحياة الريفية ويكتشف جمال "جبله الملهم" ومشوّقاته التي لا تحصى. فالغابات الكثيفة التي كانت حتى ذلك الوقت تغطّي الاراضي الجبلية قُضي عليها

وحلّت محلّها الجلالي والبساتين. يقول الاب هنري لامنس: "هذه النهضة الاقتصادية تعطّلت،مع الاسف،لسوء السياسة الانانية التي اتبعتها بيزنطية "[٦]. فتصنيع الحرير، إلى الارجوان، اصبحا وقفًا على الامبراطورية، وبالتالي حكرًا على المعامل الامبراطورية وحدها. فالانتاج والتصدير خضعا للمراقبة، ممّا ادّى إلى تعميق الهوّة بين السكّان الأصليين والامبراطورية، وجعل الشعور الوطني، في ردّة فعل، اكثر تأجّجًا.

رابعاً: اللغات والثقافات

دخلت الهلّينية فينيقية مع السلوقيين، (٣١٢ ق.م) ولاقت اعتبارًا وتقديرًا في العهود الرومانية والبيزنطية، "بيد انها لم تسُدْ الا في شطر من البلد، حسب العالم بول بيترز Paul Peters، ومع ذلك كانت السيطرة غير كاملة"؛ لقد اقتصرت في الواقع على نوع من النفوذ الارستقراطي. حتى في المدن التي انتشرت فيها الهلّينية اكثر من سواها، كانوا يتكلّمون بطلاقة الكنعانية وخصوصا الآرامية (السريانية)[٧].

[٦] هـ. لامنس، المرجع نفسه، ص ١٣. من الملاحظ ان سرَّ النجاح في الإدارة اللبنانيّة كان، ولا يزال حتّى الساعة، في معرفة إشغال الوسوط اللبنانيّة من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠م. بالحِرَف والزراعة المصنّعة.

[٧] ب. بيترز، «الاعماق الشرقية لحياة القديسين البيزنطيين»، بروكسل، ١٩٥٠، ص ١٥٠.

إلى جـانب اللغة الـيونانيـة والثـقافـة الهلّينيـة، شجّع الرومـان والبيـزنطيون اللغة اللاتينيـة والتنشئة الحقـوقية. واصبـحت اللغة اللاتينية لغـة الجيش ولغة القـانون؛ وكان لا بدّ للذين يطمـحون إلى الوظائف الهـامّة في الإدارة وإلى المهـمات القـضائية من إتـقان هذه اللغة. واعتُـبرت بيروت، مركز هـذه الثقافة، "ام الدروس الحقـوقية ومُرضعها". لقد أُنشئت فيها، منذ بداية القرن الثالث، مدرسة حقوق حـازت شهـرة كـبرى، ولا سـيـما في القـرنين الرابع والسـادس. "اشتهـر من اساتذتها رجال قانون ذوو وزن نادر مـثل اولبيانوس وبابينيانوس، ارقـى مرجعين في القـانون الروماني"[^8]: كان يُلجأ اليهـما من ولايات الامبـراطورية المختلفـة وحتى من القسطـنطينية. وفي عـهد الامـبـراطورية الاولى Bas - Empire كـان لا بدّ للدارسين الناشئين من ان يمرّوا في بيـروت "ويسكنوا في فينيقية" كـما كان يقال آنذاك.

ولئن كانت اليونانية لغة المعنيّين بالآداب والفلسفة، واللاتينية لغة القانون والجـيش، فان الآرامية كـانت لغة الشعب والكنيـسة. وهذه اللغة سـيزداد انتـشارها بمقـدار نمو الشعـور الوطني. فالكنيـسة نفسها سترفع عاليًا مشعل النهـضة الادبية. وستُعتمد اللغة الآرامية المحلية في مدرسة الرها التي انشأها نحو نهاية القرن الرابع القديس افـرام وقـد زادت شـهرتـها علـى الاخص عند انتـشـار ترانيم هذا العبقري الكبير، وبدأت تستـوعب، في ترجمات، اعمالَ آباء الكنيسة.

[^8]: هنري لامنس، المرجع نفسه، ص ١٤ – ١٥.

كذلك بلغ ادبها أوجَه في القرنين الخامس والسادس، واصبحت الآرامية آنذاك اللغة الرسمية للكنيسة الانطاكية. وبغية تنقيتها من كلّ الشوائب الوثنية، بُدّلَ اسمها وعُمِّدت نوعًا ما، فأُسميت من وقتها اللغة السريانية (نسبة إلى سورية). يلوم ثيودوريطس القورشي الذين كانوا يتبجّحون بالمزايا الثقافية للغة اليونانية، فيقول: "لا اقول ذلك لأُقلِّل من قيمة اللغة اليونانية التي هي إلى حدٍّ ما لغتي... إنما لأسُدَّ افواه الذين يتباهون بها... وأثير اعجابهم ازاء الناطقين بلسان الحقيقة (السريانية) الذين لم يتعلّموا زخرفة خطبهم وترصيعها بأسلوب جميل، بل يكشفون جمال الحقيقة في عريها دون ان يحسّوا بادنى حاجة إلى الزخارف الغريبة والمستوردة من الخارج "[٩].

خامساً: الفنّ

في انطلاقة موازية للغة والادب، نهض الفن بدوره نهضة رائعة موسومة بطابع وطني خاص، وكان في مجمله فنًّا دينيًا.

يقول الاب لامنس: "الفن المعماري والرسم والنحت والفنون التزيينية سلكت سبلاً جديدة مستقلّة عن النماذج اليونانية – الرومانية التي رفدت الانتاج الفنّي بكامله منذ العهد السلوقي. لقد

[٩] «المارونيّة لاهوت وحياة»، ص ٢٩ – ٣٠.

حلّ الحجر المنحوت محلّ القرميد الروماني والبيزنطي. واستعمل "العقد" لتقليص ثقل البناء، ودمجوا تصميم الكنيسة الرومانية القديمة بتصميم الكنيسة ذات الشكل الثمانيّ (Octagone). كما دُشّنت الكنائس ذات القباب، وانتشرت في البلاد الكنائس الفخمة (البازليك Basiliques) التي تُثير أطلالها الضخمة اعجاب علماء الآثار "[١٠]. إلى ذلك كثرت الزخارف والنقوش، منها ما يمثّل انواعا من النباتات ومنها اشكالاً هندسية مختلفة (دوائر، اشكال نجوم وورود، صلبان، معيّنات (Losanges)، الخ...). هذه جميعها أُطلق عليها اسم "فن الزخرفة العربي" (أرابِسْك). اخيرًا ان الفسيفساءات المكتشفة في المدن الرئيسية مثل جبيل والجية وغيرها، والتي تعود إلى ذلك العصر، تدلّ إلى الذوق المرهف والإبداع المميز اللذين سادا آنذاك.

٢- انتشار المسيحية

هذه السيطرة التي اشرنا اليها سابقًا في اللغة والادب والفن، ليست سوى دليل ساطع على تجذّر المسيحية في لبنان. لقد سبق واعلن المسيح نفسه للكنعانية الفينيقية ابنة صور التي أعجب "بايمانها العظيم"[١١]. ولكن كيف ترسّخت المسيحية ثابتة وطيدة؟ بايّ مركز قضائي أُلحق، حينذاك، البلد؟

[١٠] هـ. لامنس، المرجع نفسه، ص ١٦٠.

[١١] انجيل متى ١٥/ ٢٨.

أولاً: التنظيم الكنسي

فضلاً عن اعتبار انطاكية مركزًا اداريًا وعسكريًا لسورية الرومانية والبيزنطية، ومفترق طرق يقود إلى المنطقة الخلفية (الداخلية)، كانت كذلك مركزًا بطريركيًا للشرق المسيحي بكامله. فالمادة ٦ من مجمع نيقية (٣٢٥) اقرّت لانطاكية بالصلاحيات والامتيازات البطريركية التي تعود اليها من تقليد عريق. كذلك استصوب مجمع القسطنطينية الاول (٣٨١) التذكير بهذه الصلاحيات والامتيازات ذاتها والتأكيد عليها.

لقد قُسمت بطريركية انطاكية اداريًا ابرشيات أو ولايات عدة وكل ابرشية قُسمت بدورها اسقفيات عدة وكان هذا التنظيم خاضعًا نظريًا لبطريرك انطاكية، لكن، في العصر البيزنطي، بينما اصبحت الكنيسة كنيسة الدولة، كان الامبراطور، اغلب الاحيان، يؤلّف الملاكات ويتولى تدبيرها. كما انه كان ينشئ الاسقفيات، بعضها ما يتوافق مع التقسيمات الاقليمية للولايات، وبعضها ما كان معتبرًا مراكز فخرية.

ابرشيتا فينيقية، البحرية واللبنانية، كانتا مرتبطتين ببطريركية انطاكية وتتوافقان تمامًا مع الولايتين الفينيقيتين. ففينيقية البحرية، وعاصمتها صور، كانت تضم اثنتي عشرة اسقفية، منها احدى عشرة اسقفية على شاطئ البحر، والاسقفية الثانية عشرة - بانياس إلى الجنوب - كانت من ضمن الاراضي الداخلية. وما يهمنا من

فينيـقية اللبنانيــة، هو بعلبك وحدها من دون سواها لانهــا جزء من لبنان اليوم الذي نحن في صدد الكلام عليه.

ثانياً: اندثار الوثنية

بعد سلم الكنيسة وبراءة ميلانو (٣١٣) التي اعلنت حرية الديانة المسيـحية، شنّ المرسلون الانطاكـيون - السريان حربًا ضـدّ اماكن العبادة الوثنية. فتقلّصت الوثنية بادئ بدء من المدن، ثم من الارياف. وكان معقلها الاخير في جبال لبنان وفي مدينة بعلبك (هليوبوليس) بالذات.

وفي العـصر البـيزنطي الذي نولـيه اهتـمامنا، كـانت العبـادات القـديمة لا تزال تحتـفظ بالكثـير من المؤيّدين. فـقد ذكـرت المراجع وجـود احد الكـهنة الوثنيين في دومــا سنة ٣٢٩. وفي ارني (Arné) إلى الجنوب - الشـرقي من بانياس زُخرِفَ مـعبـد وثني عام ٣٢٩. وعندما حـاول الامبراطور يـوليانوس (٣٦١ - ٣٦٤) إعادة الحـياة إلى الوثنيـة بتجـديد بناء معـبد أفـقا وأماكن اخـرى للعبــادة، لاقى ترحيبًــا حارًا في انحاء المنطقة. وعـرّض مارسيل من افاميـة حياته للخطر إذ باشر، نـحو نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس، بهدم معابد شمال فينيقيـة الوثنية، فجوبهت غيرته بشـيء من المقاومة من فريق من الشعب[١٢].

[١٢] ر. دوفريس، «البطريركية الانطاكية»، باريس، ١٩٦٥، ص٣٨ - ٤٠.

في العصر نفسه، قَدِم ابراهيم القورشي معاصر القدّيس مارون من منطقة قورش "فاقام في بلدة كبرى معروفة بغَرَقِها في قتام الكفر "[١٣]. وبعث القدّيس يوحنا الذهبي الفم نحو بداية القرن الخامس بمرسلين جدد لهدي وثنيّي فينيقية، «ممّا اسفر عن عدد من القتلى والجرحى».

ولن نشهد اخيرًا اندثار المعاقل الاخيرة للوثنية إلاّ بعد تجمُّع واستتباب الموارنة وتنظيمهم كنيسةً محلّيةً، نحو نهاية القرن السابع وبداية الثامن.

ثالثًا : الهرطقات

سلام المسيحية هذا لم يدم طويلاً: فلم تكد الوثنية تندثر حتى اشتعلت في انحاء الامبراطورية البيزنطية كلّها نيران حادّة من الصراعات الاهلية والهرطقات المسيحية التي زرعت في العقول الفوضى وبذور الشكّ. فتضاعفت النزاعات وانشقّت المسيحية فرقًا وشيعًا عدّة: النسطورية وانصار الطبيعة الواحدة اي المونوفيزيين وانصار المشيئة الواحدة... وبطريركية انطاكية انقسمت قسمين: ارثوذكس (خلقيدونيين) ومونوفيزيين (لا خلقيدونيين).

---

(١٣) ثيودوريطس اسقف قورش، «تاريخ اصفياء الله»، ترجمة ادريانوس شكور، ١٩٨٧،ص ١٤٩.

كـان الشرّ كـامنًا في تلافـيف السـياسـة الدينيـة التي اتبـعهـا قسـطنطين وخلفاؤه. إذ تدخّل الاباطرة المـسيحـيون في الـسيـاسة الدينية، وحاولوا سنّ القوانين وفرض وجـهات نظرهم في ما يتعلّق بالايمان، جاذبين إلى بلاطهم اسـقفية طَـيِّعـة خاضعة لتـوجّهاتهم. من هنا لعبوا إزاء المسيحية الدور الذي اضطّلع به أسلافهم الوثنيون إزاء ديانتهم، دور زعيم تجاه مرؤوسين.

خـــاتـــمـــة

منذ ما قـبل اواسط القرن السـادس، لم يعد لكرسي انطاكـية أي أهمّـية بـالنسبـة إلى قـسم كـبيـر من كنائس فـينيـقـية وسـورية اللاخلقيدونية، إذ انّ من تولاها كان خلقيدونيًّا تابعًا للامبراطور.

مذاك باتت الأبواب مـشرعةً، ممّا اتـاح للفاتح ان يدخل، فارسـيًا كـان ام عربيًّـا، ليُستـقـبَل محـرّرًا شـرط ان يظهـر بمظهر عـدو للامبراطور والحكومة، لعقيدتهما كما لملاكات إداراتهما المختلفة.

من الأرجح ان هذا التفسـير لضعف بيزنطية هو الأكثـر احتمالاً، ذاك ان فلسطين وسورية وفينيقـية سقطت في ايدي بدو الحجاز في اقل من عشر سنوات (٦٣٢ - ٦٤٠).

ونجـاح العـرب السـريع هذا لا يتـرجم إلا بالفـوضى الداخليـة

الضـاربة منذ أمد بعيد. فـالمونوفيزيون[١٤] مهّدوا السبيل امـام المحتلّ، من دون ان يعوا ذلك.

لكن الهجـمات المتعاقبـة التي قام بها فرســان ابن الوليد بدءًا من العـام ٦٣٤ لم تفلح إلا في إخضـــاع الشاطئ وســهل البقــاع. **فقـد حافظ الجبل اللبنـاني علــى استقلاليته وراح يســتقبل كلّ الذين يلتجئون اليــه طلبًا للسلام.** دعوته المسكونية، وموقـعه الجغرافي أمليا عليــه ان يرسّخ في ذهن من يقطنه، غازيًا كان ام مـغزوًا، حسّ الحرّية وحبّ الاستقلال، وعلى الأخصّ روح الانفتاح.

---

[١٤] القائلين بالطبيعة الواحدة في السيد المسيح.

ميزات المسيحيّة في لبنان

١- المسيحية والكنائس

مقدّمات عامّة

احدى الميزات الأساسية للمسيحية عمومًا، رفضُها الثابت ان ترضى بالمجرّدات فقط. يتجلّى هذا في ان الإنجيل، "البشرى السارة"، لم يكن قط فكرة أو تصوراً بل تجسّدًا، اعني واقعًا محسوسًا صارخًا: يسوع ابن الله تجسَّد واصبح إنسانا. والحال عندما ننطق بكلمة تجسّد، نفترض حتمًا مكانًا وزمانًا وجماعة. هنا يكمن التجدّد المطلق في المسيحية، والقدرة التي لها على ان تكون معقولة ومدرَكة. قد يكون من الايسر والاكثر اغراءً الكلام على مسيحية خارج المكان والزمان وغير متجسّدة، لكننا ألا نُغامر، إذا اخذنا بهذا التصور، بإِغفال الجوهري؟

لنتاولنّ إذاً الابعاد الثلاثة المحسوسة: مكان، زمان وجماعة؛ إنها تكوّن معاً، بالنسبة إلى المسيحية، الكنيسة التي اسّسها المسيح المتجسّد. حقا، الكنيسة هي جامعة، وهي بهذه الصفة، ترغب في ان تطرح جانباً اعراضَ الزمان الخاص والمكان الخاص والشعب الخاص. مع ذلك، ان تحويل الكنيسة السريع إلى العالمية المجردة هذه، هو تجربة خطرة. يقتضي ألا تخاف الكنيسة، تمثّلاً بالمسيح مُؤسِّسِها، من الخصوصيات والاعراض التي هي، بالنسبة اليها، على هذه الارض، العبور الحتمي صوب العالمية. من هنا اهمية الطقوس واللغات والرتب والتقاليد الخاصة التي تُميِّز الكنائسَ المحلية.

أولاً : الكنائس هي التي تؤلّف الكنيسة

هذه الحقيقة هي اكثر من مبدأ، إنّها واقع ثابت منذ عهد الرسل حتى ايامنا هذه. ويؤكّد لنا التاريخ انّ الكنيسة عانت نتائج مشؤومة كلّ مرّة غفلت فيها عن هذا الواقع أو اساءت تقديره.

من ناحية اخرى، ما دام ادراك المسيحية لا يمكن ان يحصل خارج الكنيسة، ننوي ان نلتقيها هناك، اي في الكنائس. وبما انّ مقصدنا المسيحية في لبنان، سنركّز الموضوع الرئيسي في حديثنا على الكنائس المختلفة في هذا البلد.

نسأل اولاً ماذا تعني كلمة كنيسة؟

لا اقصد اجراء عرض شامل، بل ساقتصر على تبيان بعض خطوطٍ حَرِيّة بان تساعدنا في كلامنا على رؤيةٍ اكثرَ وضوحا.

أ- كلمة كنيسة تعني جماعة تتجدّد أبدًا بفضل مؤسسها يسوع المسيح، ايًا يكون الشخص الوسيط. وهذا التجدّد يحصل بنشاط مزدوج داخلي وخارجي.

- في النشاط الداخلي، نشير إلى المعتقد والصلاة الليتورجية، والبحث والتعليم اللاهوتي، ثم المؤسسات الرهبانية، واخيرًا انشاء مراكز تأمل وممارسات نسكية.

- اما النشاط الخارجي - نظرًا إلى انه ينتشر على مستوى لا يعني مباشرة الحياة الباطنية - فهو يتناول تحقيقات اجتماعية باشكال مختلفة: نشاط تربوي، نشاط ثقافي واعماري وانمائي وفني، مؤسسات خيرية واخيرًا وعلى الاخص نشاط ارسالي.

بين هذين النشاطين، الداخلي والخارجي، تمايز، لا انفصال البتّة، اقلّه من ناحية المبدأ. بين الاثنين تكاملية، وما يؤثّر في الواحد، يؤثّر حتمًا في الآخر[1].

---

[1] كنيسة -في أصلها السرياني كنوشتو- تعني مكان اللقاء ببعديه العامودي والأفقي. فكلّ لقاء بين البشر يفترض لقاءً مع الربّ، والعكس بالعكس. وكلّ مرّة، فقدت إحدى هاتين الركيزتين، فقدت الكنيسة توازنها وشهادتها ومبرّر وجودها.

ب – كنيسة تـعني ايضاً مؤسّسة منـظّمة قوامها سلطـة تراتبية. وهل من الضرورة الاشارة إلى ان مفـهوم السلطة التسلسلية هذه لا يمتّ بصلة، ولا ينبـغي ان يمتّ بصلة، إلى نظامِ حكومـةٍ تتحـوّل آلة ادارية في سبيل اهداف زمنية حصراً ؟

فالكنيسة على مثال المسيح مؤسّـسها، اينما تكون، بشرية والهية معًـا، منظورة وفي الوقت ذاته غنيـة بالوقائع اللامنظورة. هـذا يجرّ منطقـيًا إلى ان مـا هو بشري في الكنيـسة يجب ان يخـضع للإلهي وينتظم في سياقه، كما يجب اخضـاع اللامنظور للمنظور، والحاضر لـ «ملكوت الـله» الآتي. إلى هذا المآل يصـبـو التـاريخ كله واقـدار البشرية باجمعها.

ج – هاتان الظاهرتان اللتان ابرزناهما، تقـودانا إلى هذا التحقّق الذي يكشف لنا الظاهرة الثالثة والاخيرة التي نعرضها دعمًا لبياننا. نصوغها على الشكل التالي:

ان الكنيسة، بما انها عالمية وتصـبو إلى ان تكون عالمية، لا يمكنها ان تنسى انهـا مكوّنة من كنائس مـحلّيـة، وانها في الزمـان والمكان ومع الجماعة المؤمنة.

هذا هو واقعها الاقرب، كما سـبق واشرنا، وكما ينبثق بديهيًا من الظاهرتين الاوليين. فإن كـانت الكنيسة حقًا جـماعةً تتجـدّد روحيًا في استمرار بـنشاطاتها الداخلية والخارجيـة، فكيف تصيب النجاح في ذلك اذا لم تنبع روحانيتها مـن جغرافيتها البشرية وجغـرافيتها

الطبيعية، من تقاليدها، من طموحاتها المتناسبة مع جماعة تألّفت في زمن معيّن ومكان معيّن؟

إنْ لم تكن الكنيسة محليّة فكيف تُوفَّقُ إلى نشر رسالتها، اي كلام الله، عبر ثقافة لم تساهم في اعدادها باختبار مشترك؟ إنْ لم تكن محليّة، فكيف تنجح، مؤسّسةً منظمة مُنحت سلطة تراتبية، في ألا تتحوّل آلة ادارية ضخمة ومغفّلة تسوس الناس كأنهم أشياء، ولا تميّز بين الافراد، وتتجاهل الاشخاص باعتبارهم اشخاصًا ؟ إن إضعاف الكنائس المحلية لم يكن يوماً لصالح الكنيسة الجامعة كما حصل في آسية وغيرها...

هذه البيّنات يجب الا تُعتبر دعوة انفصاليّة. وحدهما الحرص على الحقيقة والرغبة في الامانة للواقع، يحدوانني على الالحاح على هذه الظاهرة.

ثانيًا : الكنيسة الجامعة تحقّق ذاتها في المحليّة

انّ المؤيدين الغيورين لعالميّة مُطْمَئِنَّة ومن دون حدود، حسب زعمهم، يكرّرون مقولات كلاسيكيّة؛ هم ينسون أو يجهلون الجواب الذي ليس اقل كلاسيكيّة، إنّما هو مطابق تمامًا للعقل السليم ولنتائج علم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة، اعني انّ الشخص لا يكون عالميّا إلا بمقدار ما يكون هو هو ذاته. هذا القول الذي ينطبق ايضًا

على الجماعات والشعـوب والكنائس، هو تفكير جان كوربون بالذات عندما يكتب عن حق: "كنيسة المسيح ليست كليّة غير محسوسة، بل هي حـقًا تجـلّي الروح القدس، هـنا والآن، في جزء من الإنـسانيـة متجسّدة مصاغة في جـسد المسيح. لذلك في تقليد الكنائس الشرقية والغربية معًا، الكنيسة هي إمّا محليّة أو غير محليّة "[٢]. كذلك، وضّح الاب الياس خليـفة، رئيس جامـعة الروح القدس ، واسـتاذ اللاهوت فيـها، الفكرة نـفسهـا في وجهـة نظر لاهوتية، إذ قـال: "الكنيـسة المحليّـة، ليست بكل بسـاطة جزءًا من الكنيـسة الجـامعـة؛ تُـحَـقـّق الكنيسةُ الجامعة ذاتَها وتتجسّد في كلّ كنيسة محليّة "[٣].

في ختام هذه المقدّمة، نستخلص النتائج التاليّة:

أ – السعي إلى فهم الخطوط البارزة للمسيحية في لبنان، يفرض علينا اولاً مقارنةً هيكليات الكـنائس القائمة في لبنان، مع الاخذ في الاعتبار عُمقَ تجذّرها في البلد.

ب – هذه المقـارنة نكمّلها بلمـحة تاريخـية خـاطفة، جـديرة بأن تطلعنا على حيوية كلٍّ من هذه الكنائس، كما تبدو الآن.

ج – انطلاقاً من التاريخ ومن الحال الحاضرة، سنبحث ايضاً في الامكانات المتاحة لمستقبل افضل.

---

[٢] جان كوربون، «كنيسة العرب»، منشورات سيرف، باريس، ١٩٩٧، ص ٢٩.

[٣] من دراسة عن الكنيسة لا تزال مخطوطة .

٢ – الكنيسة في لبنان

اولاً : لوحة مقارنة

لوحة المقارنةِ هذه تَختَار، نقاطَ استدلالٍ، الهيكليات الأساسية التي تبيّن الحدّ الذي يمكّننا من ان نؤكّد ان هذه الكنيسة أو تلك في لبنان محليّة. من وجهة النظر هذه، اعني من خلال نشأة هذه الكنائس واصالتها ونشاطها في البلد، يمكننا ان نصنّف الكنائس في لبنان اربع فئات:

١) الفئة الاولى

الكنائس التي لا تملك سوى تمثيل متواضع في لبنان، في حين تتركّز في الخارج هيكلياتها الكنسية الأساسية ومراكز نشاطاتها الرئيسية.

٢) الفئة الثانية

الكنائس التي لها في لبنان حضور اكثر بروزا، غير ان هيكلياتها الأساسية موزّعة بين بلادنا وبلدان الشرقين الادنى والاوسط.

٣) الفئة الثالثة

الكنائس التي اختارت لبنان مركزاً لهيكلياتها الأساسية إنما اكثر شعبها يقيم في الخارج.

٤) الفئة الرابعة

الكنائس المتجذّرة تجذّراً عميقـاً في لبنان مع هيكلياتها الأساسية والتي تبذل نشـاطاً كنسيّـا شبه كـامل في هذا البلد مع حضـور لها خارج لبنان.

ثمّة ملاحظتان لا بد منهما في هذا المجال:

أ - **الاولى**، اننا في تصنيفنا هذا، انسـقنا وراء المبدأ القـائل بأنّ الكنيسة لا تكون مـحلّية إلا بمقدار ما يتركّز في البلد نفسه نشاطها المزدوج الداخلي والخارجي، فـضلاً، بالطبع، عن هيكلياتها الكـنسية الرئيسية، خصوصًا بطريركيتها وادارتها.

ب - **الثـانيـة**، هي ان هذه المقـارنة تُوَلِّد عـندنا الشـعـور بأنّنا كنائس مقسّمة، مجزّأة ومفتّـتة. من هنا ضرورة كتابة لمحة تاريخيّة صغيرة تفسّـر لنا لماذا ومتى وكيف وصلت هذه الكنائس إلى لبنان، ولماذا ظلّت، حتّى يومنا، في حال التفتت هذه.

ثانيًا : لمحة تاريخية

لا يخفى ان المسيحية انتشرت في لبنان انتشـارًا واسعًا منذ القرن الرابع، حيث تمتّعت الكنيسة بالسلام وبحرّية المعتقد (براءة ميلانو، ٣١٣). لنا في ذلك شهـادة من فم السيد المسيح بالذات حـينما بشّر

الكنعانية – الفينيقية ابنة مدينة صور[٤]. كيف نمت المسيحية تاريخيًا وما هي اسباب تقسيمها كنائس عدة؟

أ – بطريركية انطاكية

لقد كانت انطاكية مركزًا إداريًا وعسكريًا وحضاريًا لسورية الرومانية والبيزنطية، وملتقى طرق تقود إلى المنطقة الداخلية، ناهيك بانها كانت كذلك مركزًا بطريركيًّا للشرق كله (اعني مقاطعة الشرق في الادارة الرومانية). هذه البطريركية كانت مقسّمة اداريًا تسع ابرشيات أو ولايات دينية، منها الكيليكيتان والفينيقيتان. وكلّ أبرشية قُسّمت بدورها أسقفيات عدّة.

فالفينيقيتان، كما ذكرنا في مقالتنا الأولى ونعيدها هنا لاهمّيتها، كانتا ترتبطان ببطريركية انطاكية وتتوافقان تمامًا مع الولايتين المدنيتين الفينيقيتين: "فينيقية البحرية"، مع عاصمتها صور، كانت تضم ١٢ اسقفية؛ وفي "فينيقية اللبنانية"، وحدها هليوبوليس (بعلبك والبقاع) تدخل في نطاق بحثنا، ذاك ان لبنان التاريخي (الذي يؤلّف الآن الجمهورية اللبنانية) كان مكوّنًا من ابرشيات واسقفيات اتينا على ذكرها آنفاً[٥].

---

[٤] انجيل يوحنا، الفصل الرابع العدد ٢٣ .

[٥] ر. دوفريس، «بطريركية انطاكية»، باريس، ١٩٤٥، ص ١٩٢٠ وما يتبع.

ب – تشعّب بطريركية انطاكية

سـلام الكنيسـة هذا لم يدم طويلاً. فلم تكد الوثـنية تندثر حـتى قامت صراعات داخلية صاخبة اجّجت النفوس زارعة الشكّ والخلل. فتزايدت الخلافات وقُسِّمَتْ المسيحية شيعًا وفئات.

ومن الطبيعي ان تنال بطريركية انطاكية نصيبها من هذه المحن:

– فـفي العام ٤٣١، حَـرَم مجـمع افسس الاول النسـاطرة الذين انفـصلوا عن بطريركيـة انطاكـية ليـؤلّفوا "كنيـسة الشـرق" التي أُسـميت ايضًـا "الكنيـسة النـسطورية". بطريركـها يقـيم الآن في بغداد. لا وجود كبيرًا لهم في لبنان.

– في العـام ٤٥١، بطريركيـة انطاكيـة ذاتها انْقَـسَمَتْ فـريقين: الفريق الخلقيـدوني القائل بالطبيعتين والفريق اللاخلقـيدوني القائل بالطبيعة الواحدة؛ كان الخلقيـدونيون أقلّ عدداً ويقيمون اجمالاً في مناطق افامية وكيليكية وفينيقية البحرية .

– الفريق الثاني اللاخلقيدوني ألّف لاحـقا "الكنيسة السريانية" المسمّـاة "يعقوبيـة". بطريركها يقـيم حاليـا في دمشق، والمؤمنون موزّعـون بين لبنان وسورية والعـراق... يمثلهم في لبنان اسقـفان وبعض رعايا...

– الفريق الأول الخـلقيدوني المسـمّى أيضاً «ملكيّـا»، لم يلبث ان

انقسم كنيستين: الملكيين المكسيميين والملكيين الموارنة. الملكيون المكسيميون (الروم الارثوذكس) يتمتعون بوجود مميز في لبنان، غير أن هيكليتهم الاساسية موزعة بين لبنان، وبلدان الشرقين الادنى والاوسط؛ أما الملكيون الموارنة، فقد استقرّوا كليًّا وفي صورة نهائية في لبنان ابتداءً من القرن السابع، مع حضور لهم كبير خارج لبنان.

وهكذا وجدت بطريركية انطاكية نفسها مقسّمة تفرّعات أربعة: الكنيسة النسطورية، الكنيسة السريانية (اليعقوبية)، الكنيسة الملكية المكسيمية، والكنيسة الملكية المارونية.

– تجدر الإشارة إلى أنّه، ما عدا الكنيسة المارونيّة، عادت هذه الكنائس فانقسمت بدءًا من القرن الثالث عشر وحتى القرن الثامن عشر، من أجل إقامة وحدة مع الكنيسة الرومانية، ومن هنا تولّدت اربع كنائس كاثوليكية جديدة [٦]:

١– في العام ١٥٥٢، بعد محاولات عدة جرت في القرنين الثالث عشر والخامس عشر، نظّم جان سولاكا **الكنيسة الكلدانية الكاثوليكية** الممثلة في لبنان باسقف وبجماعة ضئيلة.

٢– في العام ١٦٦٢، بعد مساع عدة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، انشأ أندريه اكيجان **الكنيسة السريانية**

[٦] ب . روندو، «مسيحيو الشرق»، «دفاتر افريقية وآسية»، باريس، ١٩٥٥، ص ٣٤ – ٣٥ : ٥٠ – ٥٣ .

الكاثوليكية المثلة في لبنان تمثيلاً بيّنًا ويقيم بطريركها في بيروت أو في الشرفة (كسروان)، مع حضور لها بارز خارج لبنان.

٣- بعد عدد من المحاولات سنة ١٢٧٤ و ١٤٣٩ وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر، انشأ كيرلّس الخامس في العام ١٧٠٩ **كنيسة الروم الكاثوليك أو الملكيين**، الممثلة في لبنان تمثيلاً جيّدًا. لبطريركها مقرّان رئيسيّان، احدهما في دمشق والآخر في القاهرة. اليوم عاد الملكيون فتجمّعوا في لبنان بعدما نقلوا المقرّ البطريركي إلى الربوة، ولهم ايضاً حضور بارز خارج لبنان في الشرقين الادنى والاوسط في نوع خاص.

٤- بعد محاولات اتحاديّة واهية في القرنين الثاني عشر والخامس عشر، نظّم ابراهام اردزيفيان عام ١٧٤٠ **كنيسة القسطنطينية الارمنية الكاثوليكية**، الممثلة في لبنان تمثيلاً جيداً. بطريركها يقيم في بيروت أو في بزمّار، ولها حضور ايضاً خارج لبنان.

وكأن هذه التقسيمات والتجزئات لم تخلّف محنة في مستوى العاصمة الكبرى انطاكية، فقد توافدت، منذ بداية القرن التاسع عشر، طلائع المرسلين "البروتستانت" من اميركة التي اخذت تتوسّع. وقد افلح هؤلاء المرسلون في تكوين سلسلة جديدة من كنائس صغيرة أو **جماعات كنسية** : Presbytérienne, Episcopalienne **ولوثرية**.

– الاب جـان كـوربون الذي تألّم لهـذا التـفـتّت في بطريركـيـة انطاكية، يتكلّم في كتاب صدر له أخيرًا في باريس في منشورات دو سيـرف، على "كنيـسة العرب" التـي جاءت، فضـلاً عن ذلك، تحلّ محلّ كنيسة انطاكية، فـقال: "لا كنيسةً جديدةً من دون جذور ومن دون تاريخ، بل الكنيسة نفسها في زيٍّ جديد"[٧]!!

٣ – أسباب تعدّد بطريركية انطاكية

أمام هذه الصورة لكنيسة انطاكية التي حُطِّمَت مرّات عدة ولبثت حيّة على رغم تحطّمها، هل علينا ان نجـرّم انفسنا حتى اليأس؟ طبعا لا، على الاقل لاسباب ثلاثة: اولها (لن نتحدّث عنه تفصيليًا) لا يحقّ للمسـيحي ان ييـأس، لأنّه ابن الرجاء. ثانيـهما ليـست هذه الظاهرة وقفًا على كنائس لبنان أو الشرق. فما عـدا استثناءات نادرة، غالبًا ما توجد انـقسامـات حيـثمـا توجد حـضارات واعـراق مختلـفة. هذه الكنائس لا تتميّز كثيرًا بتفاهمها، بل يجب ان نعترف بانها تسعى من جهة اخرى إلى تسامح لا تحظى به الا في اوقات متقطّعة. امّا السبب الثالث لرفض اليأس، فيُمليه علينا ان هذا التشرذم البادي للعيان في تاريخ الكنيـسـة، يتجلّى بوضـوح اكـثر سـاعـة نعكف على تحليل التاريخ السـياسي والديني للشرقين الادنى والاوسط بطريقـة اكثر

[٧] جان كوربون، المرجع نفسه، ص ١١.

شمولاً.

في الواقع، قبل المسيحية بمدة طويلة، عرف هذا الجزء من العالم، الذي هو مفصل ثلاث قارات، آسية الكبرى وأفريقية وأوروبة، أو تحمّل أو فَرَضَ انقساماته الذاتية وتجزئاته وتوتُّراته وتشنّجاته – وفقاً لكلمة متداولة – وتعدديته وتنوّعه. هذه المنطقة، مفترق الطرق، هي التي اصبحت في الشطر الاكبر بطريركية انطاكية. وعندما يقول الأب كوربون ان هذه البطريركية وُلدت تحت فلك التعدّدية، وانّ دعوتها على مدى ألفي سنة لم تنفكّ تعددية ... اذ ان تاريخًا طويلاً يورث الاجيال المتعاقبة تنوّعاً مدهشاً على الاقليم نفسه[٨]، نقول ان الاب كوربون اصاب الحقيقة.

ان سياق الظروف جعل الإنسان، على مدى اجيال، يضيف إلى التنوّع الجغرافي، الذي هو هبة طبيعية غنيّة ومتنوّعة، تنوّعًا روحيًا وثقافيًا وإتنيًا وسياسيًا اكثر غنىً واكثر اختلافًا، ولكن هل حدث ذلك طوعًا أم كُرهًا؟ احيانًا هذا واخرى ذاك، وفي بعض الاوقات كلاهما معًا. امّا ما هو مؤكّد، فهو ان الدافع الثابت إلى مجمل هذه الانقسامات رفض الاستسلام للتلاشي أو الابتلاع، والتأكيد، بايّ ثمن، على هويّة الاصالة والحرية. ناهيك بارادة مواطن هذه المنطقة في تسجيل عبوره في شكل بارز وثابت. لقد كان هذا واضحًا بحيث ان الرومان لدى وصولهم إلى هذه الاماكن في العام ٦٤ قبل الميلاد،

[٨] جان كوربون، المرجع نفسه، ص ٢٩.

"اكتـفوا، حسب ج. مـارغواردت[٩]، بتجـزئة هذه المنطقة، نظرًا إلى عجـزهم عن تنظيمها مـوحّدة، إمّا بسبـب جنسيات سكّانها المخـتلفة وإمّا بسبب الصـراعات السياسية التي كـانت تتنازع البلد. قصارى القول، إن الـرومان لم يفلحـوا في فرض دكـتاتوريتـهم التوحـيدية والموحّـدة. فالـشعـوب التـوّاقة إلـى الحرية والاصـالة نجـحت في معارضة هذا الامر.

وللاسبـاب نفسها، لم تحـرز المسيحيـة نجاحاً افضل. فـاجدادنا اصرّوا، وفـقاً لاسلوبهـم، على تأكيـد اصالتهـم حتى على حـساب وحدة المعتقد. لقد عُرفت المنطقة بصـيغة اصبحت مشهورة: "منطقة الهـرطقـات". ثم تُنوقلت التـعـابيـر من جـيل إلى جـيل في انحـاء الامـبراطوريـة كلها. مـثـال ذلك: "يحـمل البـدعة في دمـه"، "ان الخصوصـية تنخره"، "انه مجرّد من الحسّ العـام". هذه العبارات تعبّر عن واقع: واقعنا نحن، اقلّه في الزمن الغابر.

وعبثـاً جهد الاسلام، من ناحـيته، في فرض انظمـته وممارساته العامة. فالامبراطورية العثمـانية عاودت المهمة وفشلت. لقد رُفضَت الأحادية الاسـلامية. والكنائس القـائمة في ظلال الفـتح الاسلامي جُنّت وتمرّدت، بيـد انها لم ترضخ إلاّ جـزئيًا. ولجـأت إلى التقـوقع تحت تأثيـر شريعـة السيف. حـتى كـان نظام "الذمّة" فـوفّر لهـا

[٩] ج. مارغـواردت، «تنظيم الامبراطورية الرومـانيّة»، باريس، ١٨٩٢، الجزء الثاني، ص ١٤٩ – ١٦٨.

الظروف للتحوّل «أممًا» أو «مِلَلاً» تتمتّع باستـقلالية واسعة إلى حدّ ما.

هذه "الامم"، علـى الرغم من انهـــا "صُنِّـفَتْ"، أو هُمِّـــشت أو خُدِّرت، بقيت على ما هي عليه. أليس البقـاء على قيد الحياة، بالنسبة اليهـا، أفضل من الاضمحـلال في لجّة غريبـة عن معتقـداتها ؟ هل يُرفَض إعطاء هذه الكنائس الهوية الوطنية، وحق الوجود في المجتمع الاسلامي المدني؟ لا بأس! حسبها الاعتراف بـهويّتها الدينية وحقّها بالوجـود ليس إلاّ، هذا الحقّ الذي ليس حـقّا أكـثر ممّا هو وجـه من وجوه التـسامح. مـهمـا يكن، لقد ارتضت هذه الشـروط الصعـبة، لسبب وحيد هو انها تُؤَمّن الحدّ الادنى من الأصالة والحرية.

٤ – مستقبل بطريركية انطاكية

لعب الفـتح الاسـلامـي، من حـيث يريـد أو ربما لا يريد، دوراً حاسماً منذ القرن السابع في تكوين كنيـسة لبنان واستقرارها: فهو الذي ساهم في بَلْوَرَة شـخصيـة لبنان الطبيعـية والجغرافـية، وفي صورة اقل، الإنـسانية. مـنذ ذلك العهـد، أخذت **الكنيـسة** تستـقرّ وتتكوّن في الجبل اللبناني. ومنذ ذلك العـهد أيضاً، راح المسيـحيون ولا سيما الموارنة يتمركزون يومًا بعد يوم، **كنيسةً محلّيةً**، يحوّلون الجبل واحة عيش مشـترك. وعلى صخرة عنادهم وكدّهم وايمانهم، ترتدُّ الهجمات المتتالية وتتكفئ.

وهكذا، بعدما حافظ الجبل اللبناني على استقلاليته بفضل كنيسة محلية كانت تترسخ في استمرار، لن ينفكّ يستقبلُ كلّ الذين سيؤمّونه ناصبين فيه خيامهم طلبًا للسلام. في هذا السياق، يُخلّد هذا الجبل، من جيل إلى جيل وحتى ايامنا هذه، دعوته المسكونية التي صاغها على انسجامِ تاريخُه وجغرافيتُه على رغم النزاعات والخصومات. وهو سينجح أبدا، بإذن الله وبفضل تفاهم ابنائه، في ترسيخ **حسّ الحرية والحوار والتمسّك بالاستقلال واحترام استقلال الآخرين والرغبة في الاقدام على العمل الصعب.**

أولاً: النتائج السلبية والإيجابية لهذا الوضع

بهذا نتبيّن، في رأينا، مَن نحن، مسيحيي لبنان، ولماذا وكيف نرانا في ما نحن عليه. نحن مجموعة كنائس، بعضها اكثر ترسّخًا في هذا البلد من غيرها، وبعضها تتبادل الحوارات اكثر من اخرى، وبعضها يقتصر سعيها على علاقة تَجَاوُرٍ بسيطة. فبدلاً من ان نندفع في مزايدات لمعرفة مَنْ تعودُ اليهم الاستحقاقات، اذا كانت موجودة، وعلى مَنْ تقعُ مسؤوليةُ الاخطاء والاساءات التي لا شكّ في وجودها، وبدلاً مِنْ ان نتنازع بعضنا مع بعض، مِنَ الافضل ان نتمرّس بالشجاعة، افرادًا وجماعات، ونضطلع، بوضوح ومحبة ورباطة جأش، بمسؤولية هذا الوضع، وضعِنا بالذات. بهذا الشرط

فـقط وبدافع من الروح، نتـمكّن من ان نحصـي الخطوط الإيجابيـة والخطوط السلبـية في مـا نحن عليـه هنا والآن. بعدها، نحـاول ان ننظر في الوسائل التي تتـيح لنا ان نعطّل السلبية مـا امكن، ونبحث في الاسلوب الحـياتي الذي يوفّـر لنا الحظ لتنميـة الايجابيـة. هكذا تصبح مسيرتنا المشتركة اكـثر كَنَسيّةً، واوفر تطابقًا مع تدابير الله، كما اوفـر فائدة لمستقـبل هذا البلد، وهذه المنطقة باسرها والكنـيسة الجامعة، ولمَ لا؟ لمستقبلنا ولمستقبل المنطقة.

المهـمّة شـاقّـة، وإنّنا لمدركـون، على ايّ حـال، انها تـفوق قـدرة الافراد. قد يصعُب علينا النفاذ إلى خـفايا الروح القدس أكثر من أي مسيـحي آخر. إنّما نقوم بما علينا ملتزمين فـقط بما يترتب علينا من مسؤوليّة: هذه اقتراحات متواضـعة نخضعها بكلّ بساطة لتفكيركم وتأملكم.

ثانيًا : الوجوه السلبية

بعـد هذا، أقدّم للقـارئ بعض نتـائج هي في رأيي سلبيـة لوضـع كنائسنا.

أ– إن المشهد الذي نقـدّمه لغير المسيحـيين الذين نعايشهم يخلق شـبْهَةً دائمـة. فمن العسير ان تُعـطى انقساماتنا تفسـيرًا آخر، لدى الذين نسعى إلـى اعطائهم البشارة، غـير كلام الـذي قال: "ليكونوا

متحدين كما انا والآب واحد".

ب- ان انقساماتنا التي تشجّعها احيانًا بعض الصغائر، هي مبعث شبهة ايضا لدى المؤمنين انفسهم. انها تزرع الشك في الضمائر؛ والحياةُ المسيحيةُ، حياةُ الايمانِ، تخسر في العمق وفي قيمة الشهادة.

ج- ان الحذر الذي يخالج بعضنا ازاء البعض الآخر يجمّدنا في اجترار دائم لتقاليدنا الاكثر قدمًا، وميولنا الاكثر عفاءً والاكثر انحطاطًا ممّا يشكّل عائقًا في وجه كلّ تقدّم وكل تطوّر وكل تجديد. فبدلاً من ان نتميّز بالتجدّد انطلاقًا من تقاليدنا الحيّة والراسخة، نتفرّد بالركود وسط تقاليد جامدة لانها ميّتة.

د- هذه الانقسامات تعرقل الروح الرسالي، إمّا بمنافسات مؤسفة إزاء غير المسيحيين، وإمّا بغيرة تتجاوز، والحال هذه، فضيلة الفطنة عندما يؤول الامر إلى الاصطياد في املاك كنيسة اخرى.

هـ- هذه الانقسامات نفسها، تُقَلّص امكانات التحققات الكنسيّة والاجتماعية، لانها تحول دون وضع وسائلنا في عمل مشترك.

و- البحوث اللاهوتية تشكو، هي ايضا، من قلّة التعاون.

ز- ماذا نقول ايضًا في شأن تشابك السلطات القضائية والادارية في منطقة واحدة؟ ما خلا التعقيدات المبهمة، كم من

ورطات في الاشخاص والاماكن يمكنهـا ان تُحجَّم وتُتجنَّب لمصلحة اعمال اكثر فائدة؟

ح – قد لا نكون في حاجة إلى الاشارة ايضًا إلى انانيتنا في ما يخصّ المال. لو ان ثرواتنا تُدار ادارة حسنة ووفقًا لمبدأ التوافق والتعاون بين الكنائس كلّها، لأصبح في مقدورنا أداء خيرٍ أكثر وتقليص الاجحاف والظلم.

ثالثًا – الوجوه الإيجابية

إلى ذلك، في وسعنا ان نطيل لائحة الوجوه السلبية لهذه الحال التي تجد الكنيسة نفسها فيها، لكننا لا نعمد إلى احصاء شامل بمقدار ما نعمد إلى اقتراحات من شأنها ان تفتّح عيوننا. من المتوجّب علينا الآن إلقاء نظرة على الوجه الآخر للايقونة، فإذا كان صحيحًا ان الامور لا تسير صوب الأفضل في أفضل العوالم الممكنة، فاننا لسنا على شفا الهوّة. واليكم بعض دلائل:

أ – ان تعايشنا لا يتميّز قط بجهل مشترك. قد نتلاقى احيانا من دون ان نتعارض. هكذا تَعَلَّمْنا معًا أو أقلّه اننا على استعداد لان نتعلّم احترام الآخر في غيريّته وشخصًا مختلفًا عنّا. نحن في طور التسامح المتبادل، وعلينا ان نعبر إلى طور المشاركة. أليست هذه هي طريق المسكونية؟

ب – كلّ كنيسة، في تميّزها عن غيرها، تمثّل غنىً روحيًا ولاهوتيًا ادّخره تاريخ طويل. لها الفضل في انها ناضلت للحفاظ على إرث لا يُثمّن.

ج – هذا الإرث ليس قيمة جامدة ومكتفية بذاتها. هو وجهة نظر خاصّة وفريدة في تاريخ الخلاص، اذ انه يتيح اكتشاف ثروات نسكية ودينية ولاهوتية غير مشكوك فيها إلى الآن ويتعذّر بلوغها بواسطة سبل اخرى.

د – ان التنوّع يشجّع على المنافسة التي هي هنا كما في اي مجال آخر احد شروط التقدّم. لا يُنكر اننا اعتمدناها احيانًا خدمة لهذا الغرض.

هـ – هذا التنوّع الذي حرصنا عليه بالنسبة لكلّ شيء وعلى رغم كلّ شيء، قد يكون هو ايضًا الذي حَفَظَنَا في الوجود. لقد صان فينا روح الحرية والاستقلال. فالتاريخ برهن على ان التجمّعات المسيحية الكبرى مثل الامبراطورية البيزنطية وغيرها لم تثبت في وجه الموجات المضادة.

هذه هي الآثار الايجابية الرئيسية للتعدّدية الكنسية للمسيحية في لبنان. إن منهجًا مبسّطًا يتطلّبُ الطمأنينة، من شأنه ان يقارن بين الايجابي والسلبي وان يكشف التوازن بين الاثنين.

الخلاصة: ألا يجدر بنا ان نغيّر شيئاً؟ هذا المنهج الاصلاحي

بالذات هو الذي يجب ان يُتَّبَع. فالمسيحي اكثر من ايّ آخر، هو الذي لا يلتفت إلى الماضي والحاضر إلاّ ليكون اكثر اندفاعًا صوب غدٍ افضل. لا يُقعده الفشل أبدًا كما انه لا ينتشي بالنجاح. انه يحمل صليبه ويسير ابدًا إلى الامام مصغيا إلى الروح القدس ومتسلّحا بالنعمة.

٥ - آفاق مستقبلية - نموذج انطاكي

أمّا نحن، في هذا اللبنان الذي لا يزال مصلوباً، في هذا البلد الذي يبحث، في ملء تحوّله، عن شكلِ وحدةٍ توفيقية، أفلا نشعر بأننا ملزمون بإعادة النظر في مواقعنا السابقة؟ طراز جديد من الوفاق والتعاون والوحدة ينتظرنا. واذا طرحتم عليّ السؤال: من اي وحي نستنبط هذا الطراز؟ اجيب: ان يكون شديد الشبه بالنموذج الانطاكي. اجل، ان لبنان الحاضر يحقّق عددًا من الشروط تكسبه دعوة مماثلة لدعوة انطاكية. يجب ألا يَصْدُم هذا احدًا! فضلاً عن ان انطاكية كنيسة محلّية، هي أيضاً كنيسة جامعة، هي مكان وروح، اعني هي في الوقت ذاته مكان وتخطٍّ لمكان. هي مكان وفي الوقت ذاته روح ينفخ حيث يطيب له، في المبدأ كما في الفعل، فلا مكان ولا فترة في التاريخ من شأنهما ان يحدثا لها ازعاجًا. وفي موضوعنا بالذات، كلّ افتراض هو في الاصل اعتباطي. ان دورنا يكمن في

الاصغاء إلى الروح القدس وقراءة ندائه في علامات الأزمنة التي يطلع علينا بها من وقت إلى آخر. ان افتراض الدعوة الانطاكية للبنان الراهن لا يشكل احتقارًا لهذه المبادئ، بل بالعكس. فهو ليس سوى نداء يهدف إلى وضع جهوزيتنا في حال تأهّب، مع كل التحفّظات التي تفرض ذاتها معتمدين على معطيات تذكّر، يا للغرابة، بانطاكية.

في الحقيقة، إنْ تكن انطاكية بخليطها وبكسموبوليّتها وبمواطنيّتها العالمية بوتقة اختبار بشري ومسيحي متنوع، فلبنان هو كذلك.

إن تكن انطاكية قد عرفت افراطًا في الكسموبوليتية أو في المواطنية العالمية التي انقلبت في النهاية ضدّها وهدّدت وجودها بالذات، أفَلَمْ تعانِ القضية اللبنانية من الامر نفسه؟

هل توالت غارات الفرس و الـ Avares والعرب على انطاكية باعتبارها ارضًا وفسحة ليس إلا ...؟ أم تدفقت هذه الموجات لتدمّر روحها وتزيل القيم السامية التي كانت تمثّلها. أليست هذه ايضا حال لبنان؟

لئن منحت انطاكية "المسيحيَّ" هويته إذ أسمته بهذا الاسم الجديد والعالمي، وسجّلت بذلك انتصار العالمية المسيحية في وجه الانعزالية والاحتكارية اليهودية – النصرانية، أفلا يكمّل لبنان اليوم تقريبًا هذه المهمة ذاتها؟

لئن كانت انطاكية نقطة انطلاق للرسل والمرسلين لِهَدْي العالم روحيًا، بعدما ادركوا نهائيًا ان البشرى السارة موجّهة إلى الامم كافة، وثنيين ويهودًا؛ ولئن حقّقت انطاكية بذلك انتصار العالمية في وجه اورشليم المتهوّدة، ألا تحصل في لبنان، اليوم، احداث مماثلة في مجابهة اكثر من اورشليم واحدة، واكثر من عاصمة اصولية؟

لئن كان على انطاكية مجابهة خطر عدوّين عملاقين آنذاك: البربرية والعنصرية، أفلا يمرّ لبنان الآن بالتجربة ذاتها؟ إنّ الخطرين الاكبرين في عصرنا، العنصرية والمادّية، يتآمران ضدّه وعلى حدوده، متأهبين لاجتيازها وإغراق وطننا في النار والدم.

اني لا ادلّ سوى بالاشارة إلى نقاط المقارنة هذه. وهذه، ان لم تكن من صنع الخيال، فهي تولد القلق، وتدفع إلى التفكير والتأمّل وتصوّر استراتيجية تتيح لنا الاستجابة لنداء الروح. ومن اجل إزالة سوء فهم محتمل، اختم كلمتي بهذا الاعتراف:

لست متحمّسا لايّ ديمومة باهتة لأيّ لبنان! بل للبنان الحرية والتكامل الإنساني المسؤول والمنفتح والمبدع. إن لبنان يجب ان يعيش حتى يعيش آخرون بكرامة. فلنعش معاً متحدين متاحبين لكمال شهادتنا.

المجتمع الماروني

في أواخر القرن السادس عشر [١]

مقدّمة

أهم ما في هذه الدراسة، انها تتناول الموارنة عند ساعة الصفر، بين عهدين: عهد من الفقر والمهانة والانطواء على الذات، يهبط بهم إلى القعر، على أثر انكفاء الصليبيين إلى جزيرة قبرص سنة ١٢٩١، واستلام المماليك مقاليد الحكم في هذه البلاد، وعهد من التقاط الذات، من التحوّل الداخلي البطيء، والنموّ الديمغرافي السريع، من التطوّر العلمي، والتقني، والازدهار الاقتصادي، والاجتماعي، يدفع بهم إلى الذروة، إلى البنيان، بنيان لبنان من خلال بنيان الذات، والى ترسيخ الدولة اللبنانية من خلال ترسيخ "الأمّة المارونية" -كما

[١] نشرت، في مجلة «الفصول»، العدد الثاني – ربيع ١٩٨٠، ص ١٠٢ – ١١٠ .

كانــوا يعرفــون آنذاك – على أسس من المعرفــة والعمل، من الحــرّية والعدالة، من الأصالة والانفتاح، من التقوى واحترام الغير.

فالموارنة، بعد الفتح العثماني للبلاد سنة ١٥١٦، غير الموارنة قبل ذلك التاريخ. والفارق كبيــر إلى درجة أنّ المؤرِّخ يمكنه أن يعتبر هذه الحــقبــة مرحلة نــشوء جــديدة، مرحلــة ميــلاد "الأمّة المارونيــة" والمجتــمع اللبناني الحديث. لقــد أصبحــوا أكثر تحــرّكاً وانفتــاحاً، ويتمتعون بأكثر مميّزات المجتمع الإنساني المتكامل والمنفتح. والأدلّة على ذلك كثــيرة. نكتفي منهــا بذكر وثيقــتين معاصــرتين، كتبهــما مرســلان، من الكرسي الرسولــي، عن أحوال المجتــمع الماروني في أواخر القرن السادس عشر[٢].

١ – **الوثيــقة الاولى**[٣]: تقــرير مكتوب باللــغة الايطاليــة، رفعــه المرسل اليسوعــي الاب يوحنا إليانو إلى قداسة البــابا غريغوريوس الثالث عــشر، سنة ١٥٧٨. نعــتمــد هذا التقــرير في دراستنا وثيــقة أساســية، نحــاول من خلالهــا معــرفة حــال الموارنة، كما شــاهدها ودوّنها شاهد عيان. اعتــبر الموارنة آنذاك أن هذا التقرير لا يعبّر، في بعض وجوهه، عن حقيقة وضــعهم الروحي كاملةً فشكوا منه مراراً، وكانت شكواهم هذه سبباً للبعثة الرسولية الثانية.

(٢) Voir Sami KURI, s.j., *Monumenta Proximi-Orientis, I, Palestine, Liban, Syrie, Mésopotomie (1523-1583, col. Monumenta historica societatis Jesu, vol. 136, Institutum historicum societatis Jesu,* Roma, 1989, P.P.180-187.

(٣) Tobia ANAISSI, *Collectio Documentarum,* Livorne, 1921, pp. 56-61.

٢- **الوثيقة الثانية**[٤]: تقرير كتبه أيضًا باللغة الايطالية رئيس البعثة الرسولية الثانية، الاب ايرونيموس دنديني، ورفعه إلى قداسة البابا اكليمنضوس الثامن، سنة ١٥٩٦. وقد اعتبره الموارنة آنذاك أقرب تعبير عن حالهم الروحية والزمنية.

نعتمد الوثيقة الثانية في دراستنا هذه، وثيقةً مساعدة للأولى. وبديهي القول إنّ مقارنة هاتين الوثيقتين، المختلفتين بعض الاحيان، مع التركيز على الاولى، تعطي صورة أقرب إلى الحقيقة، عن وضع الموارنة في تلك الحقبة من التاريخ.

أمّا سبب تحفّظ الموارنة حيال الوثيقة الاولى، كما ذكر الاب دنديني في ما بعد، فمردُّه إلى ان كاتب الوثيقة الاولى نسب إلى غبطة البطريرك ميخائيل الرزي (١٥٦٧ - ١٥٨١) كلامًا لم يقله، ودوّن عن بعض الكتب، التي وجدت في بعض الرعايا، مآخذ، ومغالطات طقسيّة ولاهوتية كان الموارنة قد تخطّوها في حياتهم العملية.

فالوثيقة الاولى تكفي، في نظرنا، إلى جانب مقارنتها بالوثيقة الثانية، لإعطاء فكرة شاملة واضحة عن تنظيم المجتمع الماروني اللبناني، الديني والمدني في تلك الحقبة. وقد قُسِمَتْ ثلاثة أجزاء. نعتمدها في تصميم هذه الدراسة، وهي: التعريف بالموارنة، تدبيرهم الروحي، ثمّ تدبيرهم المدني.

---

(٤) Girolamo DANDINI, *Missione apostolica al Patriarca e Maroniti del Monte Libano*, Cesene, 1656.

١ - التعريف بالموارنة

يقـول الأب يوحنا إليـانو في تـقـريره المذكـور: "الموارنة -هكذا يدعون- هـم شعب يـنتسبون لمُصْلِحهم مـارون، ويسكنون في مدن وقرى جبل لبنان المواجهة للغـرب، والمشرفة على طرابلس وبيروت، ومنهم عيـال يسكنون دمشق وحلب، وطرابلس وجزيرة قـبرص... وهـم إجمالاً لا يتجاوزون الأربعين ألفاً".

نترك الكلام على نسبة الموارنة إلى القدّيس مارون، ونتوقّف في هذا التعريف عند ثلاثة عناصر، هي الشعب والموطن والعدد.

اولاً : الشعب

يقول إليانو: "الموارنة هم شعب"، أي إنهم حتى في هذه الظروف القاسية، ظروف التقهقر حـتى الاضمحلال، كانوا يعرفون بوحدتهم وتضـامنهم العـضوي، ويعـرّف عنهم مـجمـوعـةً منظّمةً لا أفـرادًا مبـعثريـن. إنهم شعب منتظم، لهم مـدنهم ومناطقهم الخـاصة. لهم طقـوسهم وعـباداتهم، عـاداتهم وتقـاليدهم، وطرق عـيشـهم. لهم علماؤهم وكتبهم، ولـهم جيشـهم وعلاقاتهم داخل البلاد وخارجها.

يقول الاب دنديني في خاتمة كتابه لدى مقابلته قداسة البابا: "أنا

الذي تنازلتم وأرسلتموني السنة الماضية (١٥٩٥) قاصداً إلى جبل لبنان للنظر في احوال الأمّة المارونية"، ثم يتوسّل الأب الأقدس «بأن يتخذ الشعب الماروني تحت حمايته، مبيّنًا له أهميّة وضرورةَ علاقة الكرسي الرسولي مع البلاد المشرقيّة بواسطة هذا الشعب الكاثوليكي».

فيجيب البابا محبّذًا العرض، مثبتًا ايّاه في مهمّته سفيرًا له لدى الموارنة، معربًا عن سروره وارتياحه للأمّة المارونية بتعيينه ابن اخيه الكاردينال محاميًا عنهم في رومة[٥].

هذه النظرة إلى الموارنة لم تكن وليدة الساعة أو حديثة العهد، بل رافقت تاريخهم منذ تكوينهم جماعةً. فقبل هذا التاريخ بمئة سنة، اي نحو سنة ١٤٩٣، عندما عاد ابن القلاعي اللحفدي من رومة، واستقرّ في دير قنوبين، وأخذ يكتب التاريخ، اعتبرهم هو الآخر "أمّة كاملة، شعبًا مختارًا ألجاهم الله إلى مناعة جبل لبنان، وأوكل اليهم المحافظة على الايمان، وكرامة المسيحية في الشرق. ثمّ دعاهم إلى نبذ الخلافات والوقوف صفًا واحدًا مقدّمين وشعبًا مع الكنيسة. وأوضح لهم، أنهم لن يخلصوا من الذلّ الذي لحق بهم في القرنين السابقين (عهد المماليك)، الا عن طريق ثبوت جميع فئات الشعب بقيادة البطريرك، في طاعة روما"[٦].

[٥] «رحلة الاب ايرونيموس دنديني»، ترجمة الخوري يوسف العمشيتي، بيت شباب، ١٩٣٢، ص ١٤٢.

[٦] Kamal SALIBY, *Maronite Historians of Mediaeval Lebanon*, Beirut, 1959, pp. 23ss.

ثانيًا : الموطن

هذا «الشعب - الأمّة» كان منتظمًا حتّى في تحرّكاته وتنقّلاته، له مساكنه الثابتة والمحصّنة طبيعيًا أكثر الأحيان، حيث يطيب له أن يعيش بحرّية وطمأنينة حياته الدينية والوطنية الخاصّة دونما حياء أو إذلال. وكان له أيضًا كشّافته المتحرّكون المتوزّعون، الذين يجوسون الارض الجديدة، طلبًا للرزق والتجارة والعيش الكريم. يتذكرون ابدًا موطن الاكثرية، ويحنّون اليه، وربما يقصدونه زمن الشدّة والمحن.

فغالبيّة الشعب الماروني، حسب التقرير، وكما ذكر قبلاً ابن القلاعي، وغيره من المؤرّخين المعاصرين، كانت تسكن في "قرى ومدن جبل لبنان المواجهة للغرب والمشرفة على طرابلس وبيروت"، أي في منطقة اهدن - الزاوية؛ ومنطقة جبّة بشري - بلاد البترون، ومنطقة جبة المنيطرة - بلاد جبيل، حتى نهر ابراهيم. هذه المناطق المتلازمة كانت تؤلّف المثلّث الاستراتيجي الضامن شخصيتهم المعنويّة، والمحور الأساسي لحياتهم الدينية والوطنية، حيث التقوا اخوانهم في العقيدة، ابتداء من القرن السادس، وعلى دفعات متوالية، حتى خراب مركزهم الأساسي، دير مار مارون، القريب من نهر العاصي في منطقة أفامية - سورية الثانية، في منتصف القرن العاشر.

إلى جانب هذا المثلّث السكني، كان كثير من عيالهم قد استقرّ في أمكنة عدّة :

– في جزيرة قبرص ، بعد انكفاء الصليبيين اليها سنة ١٢٩١.

– في جنوب نهر ابراهيم، بعد تشتيت المماليك الشيعة سنة ١٣٠٥.

– في مدن كسروان وقراه عمومًا، عندما خصّ السلطان سليم الامير عسّاف التركماني بالعناية، وخفّض له المال المترتب عليه.

– في منطقة الشوف، بعدما ورث الامير فخر الدين إمارة الشوف عن ابيه قرقماز سنة ١٥٨٤.

– في المتن والغرب والجرد، بعدما أوكل إلى الامير فخر الدين عام ١٥٩١ التزام هذه المناطق، وبعدما زالت الامارة العسّافية من كسروان وحلّ بنو سيفا محلّهم وأخذوا يسلّطون، من جديد، الشيعة عليهم، خصوصًا عشيرة آل حمادة، في جبة المنيطرة وكسروان وجبّة بشري.

– في صيدا، مع فخر الدين سنة ١٥٩٢.

– في البقاع، مع فخر الدين سنة ١٥٩٤.

– في بيروت، مع فخر الدين سنة ١٥٩٨.

– في كسروان، من جديد، عندما سيطر عليها فخر الدين سنة ١٦٠٥.

- في بلاد صفد ودمشق وغيرهما، حيث حلّ فخر الدين حلّ أصدقاؤه وأعوانه الموارنة، لأسباب سوف نذكرها في مجالها.

ثالثًا : العدد

من الصعب جدًّا تحديد عدد الموارنة في هذا العهد، على رغم تأكيد الاب إلِيانو انهم لا يتجاوزون الأربعين ألفًا:

١ - طبعًا واجه الاب إلِيانو صعوبة كبرى، لا بل استحالة، من اجل تحديد عدد الموارنة في شكل دقيق، بالنظر إلى صعوبة العملية الاحصائية في ذلك الزمان، وأيضا بسبب تشتّت المسيحيين الدائم، كما رأينا. ولكنّه من المحتمل أيضا، ان يكون قد استند إلى أقرب المصادر لديه، وهو كتاب مؤرّخ الصليبيين غوليلموس الصوري المتوفّى سنة ١١٨٣. فالمؤرّخ المذكور، الذي كتب في اللغة اللاتينية التي يجيدها الاب إلِيانو، ذكر هذا الرقم بالذات، وهو بدوره لم يستند إلى اي تقدير أو احصاء بل قصد الاشارة إلى " العدد الكبير " كما كانت العادة في استعمال هذا الرقم في العصور الوسطى، كما جاء في قاموس PELLIOT [٧].

٢- من جهة ثانية، يقول البطريرك موسى العكّاري في رسالة

(٧) Joseph FÉGHALI, *Histoire du Droit de l'Eglise Maronite, I. Les conciles du XV^e et XVII^e s.*, Le Tousey (Paris), 1962, p.3.

وجّهها إلى الامبراطور شارلكان سنة ١٥٢٨: "انّ الموارنة عندهم اربعون الفاً من الرماة، مدرّبون أحسن تدريب، وعلى أتمّ الاستعداد، لخدمتكم". فليس من المعقول، طبعًا، ان يكون عدد السكّان عام ١٥٧٨ اربعين الفاً، بينما يكون عدد المجنّدين، عام ١٥٢٧، هو أيضاً اربعين الفاً!

٣- أمّا البطريرك ميخائيل الرزي (١٥٦٧ - ١٥٨١)، فيقول في رسالته للبابا غريغوريوس الثالث عشر: "انّ الموارنة في لبنان، يقطنون حوالي مئتي قرية ومدينة". ومن المعلوم أنّ الموارنة، كانوا يتحاشون كثيرًا التوزّع في القرى الصغيرة، ويفضّلون عليها التجمّعات السكنية المرصوصة، هربًا من الغزوات وتسهيلاً للدفاع. ولنا أمثلة على ذلك البيوت المتلاصقة في كلّ من زغرتا وبشري، حدشيت، وبقاعكفرا،...

٤ - وهناك أيضا كاتشياماري الذي ذكر لفرديناندو الأول أمير توسكانة سنة ١٦٠٥ ان الأمير فخر الدين "إذا جهّز حملة على الاراضي المقدّسة أمكنه ان يعتمد على عشرين ألفاً من نصارى الجبل" اي الموارنة[٨].

٥ - واخيرا ما جاء في اخبار الرحالة DOMINGO MAGRI سنة ١٦٢٤ "أنّ الامير وسّع مملكته كثيرًا بمؤازرة الموارنة. فان

[٨] لبناني عتيق، (الدكتور فؤاد افرام البستاني)، «ذكرى فخر الدين»، بيروت، ١٩٧٧، ص ٤٥.

عشرين ألفاً من رجالهم يحاربون في صفوفه. وأغلب قوّاده منهم ".

فإذا افترضنا ان العدد الذي ذكره البطريرك موسى العكاري، أربعين الف مجنّد، مبالغ فيه، واعتمدنا عدد العشرين ألف مقاتل، لوروده على ألسنة متعدّدة، وغير مارونية، ومعاصرة لذلك الزمان، لأمكننا تقدير عدد الموارنة بنحو مئة وخمسين ألفًا (اي بنسبة ١٤ في المئة، وهي نسبة تجنيد عالية). وهذا العدد هو فقط في مجموعة القرى المارونية في "المثلّث الاستراتيجي"، لأنّ تجنيد المسيحيين خارج هذا المثلّث، كان يعدّ أمرًا صعبًا، وخطيرًا، لرغبة هؤلاء في التنكّر والتخفّي، وقد أجبروا، في كثير من الاحيان، على اعتمار العمامة البيضاء والتنكّر ظاهريًا لدينهم المسيحي، فدعوا لأجل ذلك "الموارنة البيض" أو "القطن والكتّان" للدلالة على أنهم مسيحيون ومسلمون في الوقت ذاته، كما ذكر الاب إِليانو في ختام تقريره[٩].

٢- تدبيرهم الروحي

يُستفاد من نصّ التقرير أنّ الكاتب ركّز، في كلامه على حال الموارنة الروحية، على نقاط ثلاث: التنظيم الديني، العلاقة بالكرسي الرسولي، ثمّ العقيدة والطقوس.

[٩] الاب بطرس ضو، «تاريخ الموارنة، الديني والسياسي والحضاري»، الجزء الرابع، بيروت، ١٩٧٧، ص ٢٢.

اولاً : التنظيم الديني

"للموارنة، يقول إليانو، رئيس روحي يسوسهم، يسمّونه البطريرك، له تحت إمرته ستة مطارنة وستة أساقفة، ليس لهم كرسي خاصّ، يغلب عليهم الفقر والجهل، وكلّهم، في الاصل، رهبان يدعون من أديرتهم إلى الاسقفية. ففي سوريا كلّ المناصب الكبرى في ايدي رهبان القديس انطونيوس. كما هي في اليونان في أيدي رهبان القديس باسيليوس. يعيّن البطريرك لخدمة النفوس كهنة علمانيين مقيّدين بالزواج كالروم" ...

فللتنظيم الديني، عند الموارنة، كما يظهر من النص، ومن كتاب دنديني، ومن تاريخ البطريرك اسطفانوس الدويهي، طابع رهباني نسكي صرف، وهذا ينسجم كليًا مع منطلقاتهم الأساسية، لأنّ المجتمع الماروني تميّز عن المجتمعات المسيحية الباقية باعتباره تنظيمًا شعبيًا نشأ حول الدير، وأخذ على نفسه عيش عقيدة الدير بعد "المجمع الخلقيدوني"، عام ٤٥١، والدفاع عن هذه العقيدة اذا لزم الأمر.

فكان من الطبيعي ان يأخذ عن الدير تنظيمه وروحانيته. فالطائفة هنا هي الدير الكبير، والبطريرك رئيس الدير، "له وحده، كما يقول دنديني، الحق في ادارة شؤون الطائفة الروحية"، وهو رأس الهرم، ومنه تنبثق كلّ سلطة في الكنيسة، ينتخبه مجمع الأساقفة والأعيان،

ويصادق على انتـخابه الاكليروس والشعب، حسب تقـليد عريق في القدم. وحال انتخابه يدخل الدير ليـدير منه أمور الرعية. ومنذ سنة ١٤٤٠، اسـتقـرّ البطاركـة في دير قنوبين (من يانوح إلى مـيفـوق، كفيفان، كفرحي، الكفـر، ميفوق ١٢٧٨، فقنّوبين ١٤٤٠) بعد مرحلة صعبة من الاضطهاد والتشرّد.

يعاون البطريرك في ادارة الرعايا المطارنة والاسـاقفة، أو رؤساء الاساقـفة والاسـاقفـة كمـا دعاهم إليـانو باللغة الايطاليـة، وهؤلاء بدورهم "يخـتـارون من بين الـرهبـان، لانهم ينذرون العـفّـة، ولا يتقيّدون بعـقد الزواج، واذا وجد أحد الاساقفة مقـيّداً بعقد الزواج، فيسجن في دير ليقـيم مع الرهبان ويحظّر عليه أكل اللحوم وشرب الخمور"[١٠].

أمّا الفرق بين المطارنة والاساقفة، فهو من جهة الصلاحيات فقط. يقول دنديني: "إنّ لفظة أسـقف تتناول عندهم شخصين مـختلفين، **الأول**: هو الذي يتولّى رئاسـة أحد الاديار الاسقفـيّة، ليس له ولاية في خدمة النـفوس، ولا يتزيّا بزيّ الاسقف، ولا يتـخذ أيّة شارة من شاراته، بل يلازم زيّه الرهباني، انما يمتاز عن غيره باستعمال التاج والعصا عند الاحتـفال". وكان عدد هؤلاء الاسـاقفـة ستة في اواخر القرن السادس عشر. **أمّا الثاني** "فهو صـاحب الولاية الذي يتدبّر أمر النفـوس ويسوس الكنائس، يلـبس فوق ثوبه العادي قـنبازا من الجوخ، بنفسجي اللون، يلامس الارض ويعتمر عـمامة زرقاء كبيرة

---

[١٠] رحلة دنديني، ترجمة العمشيتي، ص ٥٣.

فوق الاسكيم الرهباني".

ولما كان يتعذّر على البطريرك زيارة الرعايا البعيدة، اتخذ له ثلاثة مطارنة معاونين يقيمون لديه: احدهم يتولّى ادارة الكرسي الزمنيّة، أي قنوبين، ويستوفي العشور والرسوم والايرادات... أمّا الاسقفان الآخران، فيتولّيان زيارة الابرشيات... ويوجد ايضاً، غير هؤلاء، ثلاثة مطارين في الخارج، مفوّضون تفويضًا مطلقًا. الأول يقيم في دمشق، والثاني في حلب، والثالث في جزيرة قبرص.

أمّا الكهنة، خَدَمَة النفوس، فالبطريرك يشرف مباشرة على تعيينهم، ويحقّ لهم عقد الزواج قبل تقدّمهم من الدرجة الكهنوتية، لا بل يضطرون أكثر الأحيان إلى الزواج، لأنّ الشعب كان ينظر اليهم بعين الريبة اذا لبثوا في حال العزوبة.

أمّا الشمامسة وأصحاب الدرجات الاخرى، فلم يكونوا يتميّزون من عامّة الشعب "سوى بعمامة صغيرة زرقاء مختلفة عن عمامة الاسقف الكبيرة".

هذا التنظيم الهرمي كان يخضع لمراقبة قريبة من الشعب، "وكان للمؤمنين كلّهم – وكلّهم مؤمنون على اختلاف أحوالهم وطبقاتهم– حقّ تثبيت البطريرك والاساقفة ومراقبة الرهبان والكهنة، لأنّ الشعب كلّه، كبارًا وصغارًا، رجالاً ونساءً، كان يجتمع في الكنيسة للصلاة وقراءة الانجيل، والاسفار المقدّسة، وسير القدّيسين، وسماع الكلمة والاشتراك في الذبيحة مرتين في النهار على الاقلّ،

صباحًا ومساء. لذلك كثرت الكنائس في القرية الواحدة وسهل ارتيادها على الجميع... فترى، مثلاً، نحوًا من ثلاثين كنيسة في كلّ من العاقورة وتنورين وبشري واهدن، ونحوًا من خمس كنائس، أو اكثر، في القرى والمزارع الصغيرة"[١١].

هذا التنظيم الماروني لم يكن يشمل الامور الروحيّة فحسب، بل يطال ايضاً الامور الأساسية التقريرية. فالبطريرك هو رأس الهرم، ومنه تنبثق كلّ سلطة ضرورية لادارة الروحيات، أو لإدارة الزمنيّات، ولكننا لا نستطيع إلا أنّ نقرّ بحقيقة هامّة وأساسيّة، وهي أنّ الموارنة كانوا يعملون للملكوت فقط . واذا صدف ان ضعفت سلطة البطريرك، كما كانت الحال بعدما قبض المماليك على البطريرك جبرائيل حجولا وأحرقوه في طرابلس، سنة ١٣٧٧، كان صاحب النفوذ الجديد في المارونية، يطلب الاعتراف له بالزعامة من البطريرك، كما فعل المقدّم يعقوب سنة ١٣٨٢، فاعترفت البطريركية بزعامته وعيّنته شدياقًا في الكنيسة، موكلة اليه تدبير الشؤون الزمنيّة. واذا صدف أيضًا، ان عصى أحد المتنفّذين، فإنّ الشعب الماروني كان يقف له بالمرصاد، كما حدث للمقدّم عبد المنعم، سنة ١٤٨٨، عندما استدعى فريقًا من مسلمي الضنيّة لمساعدته، فما أن وصل هؤلاء خارج اهدن (حمَينا) حتى انقضّ عليهم الأهالي من كمين وأهلكوهم، وأضعفوا معهم نفوذ المقدّمين، وأعادوا إلى البطريركية زعامتها وسلطتها.

---

[١١] الاب بطرس ضو، «تاريخ الموارنة»، مرجع مذكور، ص ١٨٨.

ثانيًا: العلاقة بالكرسي الرسولي

هذا التنظيم الماروني، مهما غالينا في وصفه، لم يكن يقدّر له أن يصمد على الزمن، ويبقى حتى الساعة، لو لم تتداركه قوى صديقة، لو لم تمتدّ اليه يد عناية فتمنع عنه الاختناق، وتزيل منه ما يعوق الإنارة والإشعاع، كما حدث لأكثر الكنائس الشرقية، التي كانت تفوق بطاقاتها قوى المارونية المتواضعة. هذه العناية هي من دون شكّ يد الكرسي الرسولي. فالكنيسة المارونية، توافر لها حظّ الالتقاء عقائديًا مع كنيسة رومة منذ المجمع الخلقيدوني سنة ٤٥١. وحتى الساعة، لم تنقطع صلاتها بهذه الكنيسة، بفعل إراديّ مباشر. فكانت كلّما توافرت لها ظروف الاتصال والتجدّد، تسرع مع كلّ ما يكون قد علق بها، بفعل الزمن، إلى كنيسة رومة، كاللاجئ من "تيار العواصف والأمطار إلى ميناء الأمن..."، كما جاء في رسالة رهبان مارون إلى البابا هورمزدا سنة ٥١٧[١٢].

"كلّهم دون استثناء، يقول الأب إليانو، يعترفون بأنّ الاب الاقدس هو رأس الكنيسة المسيحيّة جمعاء ويخضعون له منذ ٣٧٠ سنة، أي منذ عهد البابا اينوشنسيوس الثالث، سنة ١٢١٥ (وهو تاريخ أول براءة معروفة وجّهها حبر روماني إلى الكنيسة المارونية)...، فتراهم، منذ ذلك العهد، ثابتين على الاتحاد مع الكرسي الرسولي مجاهرين بمحبّتهم نحوه ونحو مجمع الكرادلة. وهم لا

---

(١٢) Collection Avellana, t. II, Epist. 139, pp. 565ss.

يذكرونهم إلا بكلّ وقار وتجلّة... على أنه، مع تمادي الزمن، وبسبب اختلاطهم مع الأمم والطوائف المخالفة لدينهم، قد تسرّبت إلى كتبهم، ودخل في طقوسهم ورتبهم، بعضُ الشوائب التي سبّبها قلّة المعلّمين الذين يعنون بإرشادهم، وليس نقصًا في استعدادهم لقبول تعاليم الكنيسة، واذا سألتهم عن إيمانهم أجابوا إنّ إيمانهم هو إيمان رومة..." .

هذا الكلام، يقبله موارنة اليوم، من دون ان يخلق فيهم العقد والمركّبات، لأن ارادة الوحدة عندهم، كانت أقوى بكثير من اي فروق طقسيّة أو عقائدية. فمنذ مجمع خلقيدونية، أي منذ نشأة الموارنة، حتى عهد الصليبيين، ومن بعدهم المماليك، مع ما كان عليه هذا العهد من ثقل على الموارنة، لم تنقطع الصلات بينهم وبين الغرب، ولا قطعها العهد العثماني، بل ازدادت ترابطاً والتحاماً: فتوافرت للموارنة عناية الكرسي الرسولي وحماية الدول المسيحيّة الغربيّة، كما خفّت وطأة الحكم العثماني، وقويت معنويات البلاد والحكّام، حتى شكّل فخرالدين خطرًا على الامبراطورية العثمانية، بفضل الصداقات الدوليّة التي وفّرها لحكمه أصدقاؤه وسفراؤه الموارنة، مع احبار الكرسي الرسولي، وامراء توسكانة، وملوك فرنسة.

وبفضل عناية الكرسي الرسولي والمؤسّسات الغربية، حقّق الموارنة في هذه الحقبة انجازات حضارية فريدة نذكر منها البعثات المتبادلة، بين الشرق والغرب: بعثات الموارنة العلميّة التعليمية إلى

الغرب، وبعثات المرسلين اللاتين الروحية إلى الشرق، التي خلقت الجسر العظيم الذي عبر عليه لبنان، وحده من بين مجموعة الاقطار الشرقية، من مرحلة القرون الوسطى إلى مرحلة القرون الحديثة، من مرحلة الانحطاط إلى مرحلة الازدهار والترقّي، من مرحلة النسخ والنسّاخ، واحتكار العلم والكتاب، إلى مرحلة الطباعة ونشر العلم والكتاب، فكانت مطبعة دير مار انطونيوس- قزحيا، في أواخر القرن السادس عشر، اي قبل مئتي سنة من حمل نابوليون المطبعة الأولى إلى مصر، وقد بدأت معها نهضة مصر سنة ١٧٩٨، (وهذه ايضًا تمّت على يد اللبنانيين والموارنة في نوع خاصّ)، ومن مرحلة الفطرة والارتجال إلى مرحلة العلم المنهجي الرصين، المبني على النقد المباشر للنصوص، وعلى معرفة اللغات الحاملة الحضارة، كالسريانية، والعبريّة، واليونانيّة، واللاتينيّة... فكانت المدرسة المارونية سنة ١٥٨٤، وكان انتشار تلامذتها وخرّيجيها في الشرق والغرب. فالبعض منهم كان له أثره المباشر في تطوّر العلم وتقدّمه في الغرب، والبعض الآخر كان له أثره المباشر أيضا في التحضير لنهضة الشرق، بإنشاء المدارس، وتعمير الكنائس والاديرة، وتعليم اللغات والآداب، وجمع الكتب والمخطوطات ونشرها...

فهذا التيار المزدوج الاتجاه، من الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق، أحكم الصلات، وقرّب المسافات، ومزج الحضارات، ففتح امام الغرب أبوابًا واسعة على الشرق ولغاته وآدابه وعلومه وأديانه طالما حلم بولوجها. وسمح للشرق، بأن ينهض فكريًا وعلميًا

وتقنيًا. فـلطلاّب هذه المدرسة دور رئيسي يجـب ان يبرز أكثـر دقّة ووضـوحًا فـي تجديد "الأمّـة المارونيـة" ونهـضـة لبنان، ويقظة الشرق، وإحكام الصلات بين الكنائس الشرقية وروما.

ثالثًا - العقيدة والطقوس

لا مجـال للتوسّع في بحث هذه النقطة، لأنهـا تخرج بنا من دائرة التـاريخ إلى دائـرتي علم اللاهوت وعلم الطقـوس، ولأن البطريرك الماروني حـينذاك، مـيخـائيل الرزي (١٥٨١-١٥٩٧) نقض تقـرير البعثـة الأولى، وطلب من البابا إرسـال بعثـة ثانية، فكان مجيء الاب دنديني، الذي ذكر في كتابه ظروف رفض البطريرك هذه الادعاءات. قال: "فأخذ الـبطريرك يشتكي ويتذمّر من المجمع الذي عقـد سابقًا (اي مجمع ١٥٨٠ في حضور الاب إليانو) حيث قُدِّمَت له وللاساقفة ورقة بيضـاء ليوقّعوها بإمـضـاءاتهم، مؤكّدين لهم، أنهـم لا يكتبون فيهـا إلاّ ما يعود لخيـر الطائفة. ولكنّهم، بعد أن وقّعـوها، خدعوهم، لأن، مَن تَولّوا هذا العمل، ما إن برحوا هذه الديار إلى طرابلس، حتى ذكروا فـيها البدع التي شـوّهت حسن سمـعتهم لدى قداسـة البابا ونيافة الكرادلة، دون أن ينبّهوا أحـداً، أو يتركوا، على الأقلّ، نسخة عن أعمـال هذا المجمع في خزانة البطريركـية ... وقد استـغربتُ، في بادئ الأمر، هذه الشكوى، وخامرني بعض الريب في صـحّتها، انما

صدورها عن ذات كريمة وشيخ جليل، أثبتها بكلّ سذاجة وإخلاص، وصادق عليها من حضر، لم أتجرّأ على انكارها "[١٢].

نترك إذًا لدراسة أُخرى بحث الفروق الطقسيّة والعقائديّة، بين كنيسة رومة والكنيسة المارونية في أواخر القرن السادس عشر، وهي، في أكثرها، فروق طقسيّة هامشيّة لا تتناول الهيكليّة والروح والنصوص الأصيلة، تعود اليوم بالكرامة على الكنيسة المارونية، لأنّها حاولت أن تحافظ بها على نقاوة تراثها الانطاكي الشرقي، مع حاجتها القصوى إلى الكنيسة الرومانية، التي لم تكن حينذاك، لتتساهل مع هذه الفروق.

٣ – تدبيرهم المدني

يُستفاد من دراسة التقريرين المذكورين، ومن الدراسات المعمّقة التي كتبها الدكتور كمال الصليبي، في تاريخ هذه الحقبة من الحكم العثماني، أن الموارنة كانوا يطمحون، هربًا من الذميّة، إلى تحقيق هدفين اساسيين هما:

– الاستقلال الذاتي الداخلي.

– والتعامل الحرّ المتبادل مع الشعوب المجاورة والصديقة، داخل البلاد وخارجها.

---

[١٢] رحلة دنديني، ترجمة العمشيتي، ص ٣٨ .

وقد التقوا عمليًا في هذين الهدفين:

- مع الحكّام العسّافيين، ومعـهم أيضًا حصل أوّل تحالف، وتمّت اول مشاركة طائفـيّة في الحكم وقـد جاءت نتـيجة دخـول مناطق مارونية وسنية وشـيعية، للمرة الاولى، تحت زعامـة محلية واحدة، وفي نوع خاص، زمن حكم الامير منصور بن عسّاف التركماني.

- ثمّ مع الامارة المعنية، بعد سقوط العـسّافيين، وقد تحالفوا، في نوع خاص، مع الامـير فـخرالدين الثـاني، بعدما تمّ له النـصر على خصومه بمؤازرتهم، بعد حـرب أهليّة بين الدروز، استمرّت من سنة ١٥٨٤ حتى سنة ١٥٩١.

أولاً : التحالف الاول بين العسّافيين والموارنة

أ- الامير منصور العسّافي

يقول الاب إلِيانو: "الشـعب الماروني اليوم هو تحت حكم سلطان الاتراك (والسلطان عهدذاك هـو مراد الثالث ١٥٧٤ - ١٥٩٥) ولكنّ لهم في جبالهم حاكماً ... ينتسب إلى مماليك مصر، واسمه منصور، وقـد أقطعتـه الدولة التركـية كـلّ قرى الموارنة ليـحصّل من أهلهـا الضرائب السلطانية وكلّ ما يحفظه لنفسه".

فمنصور هذا هو الأمير منصور بن عسّاف، التركماني الأصل، الذي تولّى الامر على كسروان وبلاد جبيل، حتّى عكار شمالا، ثمّ إلى حماة شرقًا، من سنة ١٥٢٣ حتى سنة ١٥٨٠.

ولكنّ الامراء العسّافيين لم يكونوا من المماليك، كما ذكر الاب اليانو، بل من التركمان الذين أتى بهم المماليك إلى لبنان لمراقبة الشواطئ ومنع الموارنة من الاتصال بالصليبيين. فأصبحت لهم، مع الزمن، زعامة تقليديّة في هذه البلاد.

وعندما استتبّ الأمر للفتح العثماني، خصّهم السلطان سليم الاول بالمعاملة الفضلى، من جهة تخفيض المال المترتّب عليهم، فانتعشت، من جرّاء ذلك، مناطق الموارنة التي تحت حكم العسّافيين، وأصبحت كسروان من "أكثر المناطق اللبنانية ازدهارا، فأخذ الموارنة النازحون من الشمال يستقرّون فيها. وارتاح الامراء العسّافيون إلى نزوح الموارنة إلى منطقتهم، اذ كان الموارنة النازحون فلاّحين ودعاء يعمّرون البلاد بنشاطهم ولا يعرقلون مساعي الحكّام... فمال هؤلاء عن الشيعة واخذوا يحيطون أنفسهم بمدبّرين وأعوان من الموارنة "[١٤].

---

[١٤] كمال الصليبي، «الموارنة، صورة تاريخيّة»، ملفّ «النهار»، العدد ٤٠، كانون الثاني ١٩٧٠، ص٢٣.

ب - الشيخ يوسف حبيش

" وللأمــيـر منصــور هذا، يكـمّل الاب إليـانو، وكـيل من وجـوه الموارنة، يدعى يوسف، هو كاخيـته ومستشــاره، يحصّل له الأموال من قومه ويضيف اليها ما يعيش هو منه. فالشعب كلّه دون استثناء، حتّى الســيد البطريرك والاكليـروس عمومًـا، لا مناصّ لهم من هذه الضرائب الثقـيلة. وقد رأينا بالعيان ان الســيد البطريرك، عند عودة جرجس البسلوقيتي ورفيـقه الخوري اقليموس من رومة[١٥]، توجّه إلى زيارة يوسف المذكـور، وقدّم له قـسمًـا من المبلغ الذي تكرّم به عليـه قـداسة البـابا. وكـان الموارنة، اذا نزلوا من قـراهم إلى مـدن الساحل، يسخّرهـم أهلها المسلـمون لأمورهـم، فيضطرونهم إلى نقل أحمالهم، أو يقضون عليهـم بأشغال شاقّة، في دار الحكومة، أو في بيوت الخاصّة ".

فيـوسف هذا، هو الشيخ يوســف حبيش، من مــوارنة يانوح، في جبّة المنيطرة، وكان قد انتقل في أوائل العــهد العثماني إلى كسروان واستقرّ في غزير، قاعدة آل عساف، ودخل أبناؤه وأحفاده في خدمة الامراء، فـاستـعان بـهم الأميـر منصور في القـضاء على مناوئـيه وأخصــامه... "وهكذا عظم شأن آل حبـيش، حتى أصبحـوا الأسرة

(١٥) وكان جرجس البـسلوقيتي هذا مطرانًا على الشام، وقد أرسله البطريرك مـيخائيل الرزي إلى روما برفقة الاب إليانو بالذات، لدرس بعض أمور، أهمّها انشاء المدرسة المارونية.

الأولى، بعد الأمراء العسّافيين في المنطقة. واصبحت لآل عساف، عن طريق آل حبيش، صلة بالموارنة، وقد نجح منصور، بمساعدة آل حبيش، في ضبط المناطق الموكولة إليه. وامتدّ حكمه، مع الزمن، حتى شمل جميع بلاد طرابلس، عدا المدينة، كما شمل مدينة بيروت. وكان الموارنة، في جميع هذه الانحاء، يرون في الامير العسّافي صديقًا وحاميًا لهم. وصارت لآل حبيش زعامة يعترف بها جميع ابناء الطائفة...

وكانت زعامة آل حبيش من نوع جديد لم يألفه الموارنة من قبل، اذ لم تكن دينيّة كهنوتيّة كزعامة البطاركة، كما أنها لم تكن محليّة ضيّقة كزعامة المقدّمين. ولم يكن هناك اي تنافس بين البطاركة وآل حبيش، كما كان بين البطاركة والمقدّمين، بل بالعكس، اذ كان آل حبيش شديدي الغيرة على مصلحة الكنيسة المارونية، يحمونها من جور حكام طرابلس ويدعمون بطاركتها ضدّ مقدّمي بشري، الذين استمرّوا يناوئونهم من وقت إلى آخر... وقد ارتكزت مكانتهم بين الموارنة على تقرّبهم من آل عساف وقدرتهم على خدمة مصالح الكنيسة والطائفة، عن طريق الامراء. وتمكن آل حبيش، كوكلاء للإمارة العسّافية، من الاطلاع على شؤون البلاد الداخليّة والخارجية إلى حدّ لم يتمكّن منه غيرهم، فأصبحوا ذوي خبرة واسعة، وأصبحت لهم علاقات قوية مع النافذين في مختلف المناطق التابعة لآل عساف، وكذلك مع زعماء المناطق المجاورة... ووضع آل حبيش خبرتهم وإمكاناتهم في خدمة كنيستهم وابناء طائفتهم دون

حساب... "[١٦].

ج - أسباب نجاح التحالف الماروني - العسّافي

يعود الفضل في إبراز هذه الحقائق أيضًا إلى الدكتور كمال الصليبي، الذي ردّ أسباب نجاح التحالف الماروني - العسّافي وتوثيقه، إلى نوعيّة الحكم العسّافي، والى انسجامه مع تطلّعات الموارنة ومفهومهم المتطوّر للحكم. "ان حكم آل عساف، يقول الصليبي، لم يكن من النوع الذي عهده الموارنة عند حكّام طرابلس. ذلك أنّ نوّاب طرابلس المماليك، ومن بعدهم الولاة وملتزمو السنجقيّة في العهد العثماني، كانوا يمثلون حكمًا اسلاميًا قائمًا على الشرع، يضع مصلحة الاسلام والمسلمين، مبدئيًا، فوق كلّ مصلحة.

" أمّا آل عسّاف، فكانوا مسلمين سنيين من ناحية الدين، إلاّ أنّ حكمهم كان قائمًا على عرف إقطاعي، وتقاليد محليّة، بعيدة كلّ البعد عن الشرع.

«وكانت مصالحهم، كأمراء، مصالح إقليميّة، لا تمتّ إلى العصبيّة الدينية بصلة، وهذا ما فسح المجال لدخول الموارنة كعنصر فعّال في الإمارة العسّافية. والتقت مصالح الطائفة المارونية ومصالح آل عسّاف، ماديًا ومعنويًا، فنشأت بين الفريقين وحدة حال لم يأنس لها

[١٦] المرجع نفسه، ص ٢٥.

المسلمون وممثّل الدولة العثمانية في طرابلس ودمشق. وتخوّف العثمانيون من تعاظم شأن آل عساف، وجدّوا في البحث عن منافسين لهم في بلد طرابلس. فوقع اختيارهم على يوسف سيفا التركماني، كبير زعماء عكّار، فأخذوا يقوّونه ويرفعون من شأنه».

وقبل ان يتمّ النصر للامير فخر الدين، وتتوحّد معه الامارة الدرزية في الشوف، تنكسر نهائيًا شوكة آل عساف، وتنقرض سلالتهم، بمقتل الامير محمد بن الامير منصور، على طريق البترون، فيتشتّت عندئذ أعوانهم من آل حبيش، فيقتل منهم من يقتل "ويفرّ الباقون إلى المناطق الدرزيّة".

ثانيًا : التحالف الثاني بين الموارنة وفخرالدين المعني

يقول الاب إليانو: "ولكثرة ما يفرض عليهم من الضرائب، قد غادر جمع غفير منهم ضياعهم ومدنهم، والتجأوا إلى جوار شعوب قريبة منهم، يدعون دروزًا، وهم رجال حرب، معادين للأتراك، يحالفون ايضًا أمراء بني عسّاف، ويُعْرَف عنهم أنّهم يخفون دينهم، وان الذين يختلطون بهم ينالون شيئًا من أخلاقهم وعاداتهم.

"ويوجد بين المدن والقرى التي يقطنها هؤلاء الدروز خمس أو ست قرى يقطنها المسيحيّون، الذين يواظبون، من جهة، على ممارسة أسرارهم، ويؤدّون العشور والحقوق للبطريرك، ومن جهة

ثانية، يعتمرون كالمسلمين العمامة البيضاء ويدخلون جوامعهم، واذا سئلوا عن دينهم جهاراً، يقولون إنهم مسلمون".

هذا المقطع الأخير من تقرير الاب إليانو، الذي كتب سنة ١٥٧٨، يرسم الخطوط الكبرى للقاء الكبير، على مفهوم الدولة والحكم، بين الموارنة والامير المعني الكبير. فما أن يوكل اليه، سنة ١٥٩١، التزام الغرب، والجرد، والمتن، بالاضافة إلى الشوف، حتى يزداد نزوح الموارنة نحو المناطق الجنوبية، فيشجّعهم المعنيّ الكبير على ذلك، بغية تقوية مناصريه، والفريق القيسي في نوع خاص، ويستفيد من وجودهم، سياسيًا واقتصاديًا، عمرانًا واجتماعًا. فينشأ بينهم تفاهم وولاء كامل على أسس من المصالح المشتركة، والاحترام المتبادل: "إنّ ولاء الموارنة لفخر الدين، يقول الصليبي، والعناية التي خصّهم بها، كان أساسها المصالح بين الطرفين، وهو أقوى اساس ممكن لأيّ اتحاد أو تحالف".

ومع فخر الدين، كما كانت الحال مع العسّافيين، سيعيدون الاختبار لبناء وطن يضمن لهم، ولكافة المواطنين، كرامتهم.

وبعد فخر الدين، وحتّى الساعة، لا يزال هاجسهم الاول بناء وطن، يضمن لهم ولغيرهم الوجود الحرّ الكامل، المنفتح على التطلّعات الحديثة، والآفاق الإنسانية الجديدة.

خـــاتـــمـــة

هذه بعض الخطوط عن تدبـير الموارنة المدنـي، من خلال مـا ورد في تقرير الاب إليـانو. ولكنّ الموضوع هنا، يتّسع، في صلبـه، لأكثر من دراسة، لأنّ فـيه، من جـهة، عـلاقات الموارنة الداخليـة بالحكّام العسّافيين حتى سنة ١٥٩١، وفيه علاقتهم بالمعنيين، فخر الدين في نوع خاص، وفـيه علاقاتهم بالشـعوب اللبنانية المجـاورة، كالدروز والشيـعة حـتى سنة ١٦٣٥، كما أنّ فـيه مـفهومـهم المتطوّر للحكم وللوطن، للإنسان وللمجتمع، للتربية وللتعليم. وفيه، من جهة ثانية، عـلاقاتهم الخـارجيـة العـامّة بأحـبـار الكرسي الرسولي، وأمـراء توسكانة، وملوك فرنسة، كما أنّ فيه التـفاعل السياسي والاجتماعي والحضاري المثلّث الاطراف، والذي كانوا هم فـيه واسطة العقد، بين الغرب والامارة اللبنانية.

هذا المثلّث الفـريد، الذي نشـأ من انسجـامـه ووحدة مـصالحـه وتطلعاته وأهدافه، لبـنانُ الحديث، لبنان المعاصر، خيـر ما حُقّق في هذا الشـرق، لصـالح الإنســان الحرّ الكريم المتـطوّر. ولبنان هذا لم يدرك معناه، وقيمته، وضرورة وجوده، الغرب والشرق معًا، ممثّلين بالقـوى المتصارعـة اليوم على ارضـه، والتي تجهل أنّ مـا يؤمن به اللبنانيـون، وما يعـملون لأجله هو حـرّية الإنسان، التي هي أقـوى وأصمد من المتصارعين، وممّا يتصارعون عليه ويتهالكون.

ذكرى تأسيس البطريركيّة المارونيّة [١]

الفكرة التي تبقى لقارئ هذا التحديد لسنة ذكرى التأسيس، هي ان البطريركية المارونية التي قامت، بحسب هذه الذكرى، سنة ٦٨٦، تأثرت حتماً بالصراع اللاهوتي الذي انتهى بحرم المونوتليّة[٢] في المجمع القسطنطيني الثالث سنة ٦٨١، اي، خمس سنوات بعد انعقاد المجمع المذكور.

فكما أن إنشاء دير مارون، مهد الجماعة المارونية الاولى، ارتبط بالمجمع الخلقيدوني سنة ٤٥١، كذلك يرتبط قيام البطريركية المارونية بالخلاف الذي نشأ على المشيئة في السيّد المسيح الذي حسَمه المجمع القسطنطيني الثالث سنة ٦٨١ بحرم كلّ معتنقي الارادة الواحدة.

---

[١] كلمة أُلقيت في جامعة الروح القدس، في ذكرى مرور الف وثلاثمئة سنة، على تأسيس البطريركية المارونيّة (٦٨٦ – ١٩٨٦).

[٢] اي الاعتقاد بالارادة الواحدة في السيّد المسيح .

قد يكون لهذا التحديد التقريبي بعض المبررات، ولكنّه يبقى مجرّد ظنّ، لا بل تبسيطاً مجّانياً لمسألة معقّدة لن تُحَلّ في مقدّمة أو في محاضرة، بل تقتضي لها الابحاث والدراسات المعمّقة، والرجوع إلى المصادر القديمة في لغاتها الاساسية، والمقابلة بينها وتنسيقها مع تاريخ البطريركية الانطاكية العام.

من الثابت والاكيد ان قيام البطريركية المارونية لم يكن حدثاً جانبياً أو عفوياً نتج فجأة من صراع فكري عقائدي، فلا شيء في التاريخ ينشأ من سبب وحيد، مهما كان فريداً، بل اكثر احداث التاريخ تنشأ من تلاقي الاسباب والظروف وتفاعلها.

فقيام البطريركية المارونية في نظري، وكما يُستَخلص من سياق الاحداث، هو مآل طبيعي لمسيرة رهبانية كنسية طويلة وشاقّة، بدأت قبل المجمع الخلقيدوني وتواصلت بعده لدى تأسيس ديرٍ على اسم مارون، اشهر نسّاك سورية آنذاك، من ضمن مؤسّسة رهبانية واسعة الانتشار في منطقة "افامية" من سورية الثانية، حسب التنظيم الروماني، عُرفت بغيرتها واندفاعها في سبيل عقيدة خلقيدونية، اي كمال طبيعتي المسيح الالهية والإنسانية والتركيز في نوع خاص على الطبيعة الإنسانية[٣].

توسّعت هذه المنظمة وازداد عدد الاديار المنضوية تحت لوائها،

(٣) راجع هذه الدراسة المعمّقة في الكتاب – الاطروحة «المارونيّة لاهوت وحياة»، الاباتي بولس نعمان، الكسليك، ١٩٩٢ .

حـتى قارب الاربعين ديراً، وتحـلّقت حولهـا جـماعـات من المؤمنين الملتزمين عـقيدة خلقـيدونية في اكثـر مناطق البطريركية الانطاكـية وفي نوع خاص في افاميـة وقيليقية وفينيقـية، فانتظموا في تنظيمٍ دفاعي، بسبب الاضطهادات، حتى اصبحـوا الممثلين الرسميين للتيار الخلقـيدوني في اكـثر المجـامع واللقـاءات والمجـادلات الرسـميـة والخـاصة التي حـصلت بعـد المجمع المذكـور حـتى زمن البطريرك افـرام اميـد (٥٢٩–٥٤٥)، الذي قـرّبهم اليـه مـستـعـيناً بعلمـهم وخبـرتهم اللاهوتيـة، وصولاً إلى عـهد الامبـراطور هرقل (٦١٠–٦٤١) الذي وهبــهم، عندمـــا زار ســـورية، كلّ الاديار التــابعـــة للمونوفيزيين، حـتى قيل عنه انه كان مارونيًا، كمـا ذكر ابن العبري عن البطريرك اليعقوبي ديونيسيوس التلمحري (٨١٨–٨٤٥).

هذه الجماعـة الملتزمة والمناضلة والمنظمة سوف ينتـهي بها الامر إلى اختيار ادارة ذاتية عندما ينقطع كلّ اتصال لها بروما وبيزنطية والبطريركـيـات الاخـرى، غداة الفـتح العـربي وشـغـور الكرسـي البطريركي الانطاكي .

كيف كـان النشوء، ومتى، ومـا هي الاسباب الـتي دفعت الموارنة إلى هذه الاستقـلالية، وهل في استطاعتنا اليـوم ان نعيّن سنة، ولو تقريبية، لنشوء البطريركية المارونية؟

لا شكّ في انّ الرهبـان أنفسـهم عندمـا بدأوا هذه المسـيـرة لم يكونوا يدركون، كما يحدث غالبـاً في التاريخ، إلى اين ستفضي بهم

هذه الطريق. هناك عوامل واسباب متعدّدة برزت عبر مجرى الاحداث وتفاعلت حتى افضت بهم إلى هذا النوع من الادارة الذاتية.

فالفكرة التي سيطرت عليهم، آنذاك، كما يُستَخلَص من الوثائق التي في حوزتنا، **لم تكن فكرة الانفصال أو الاستقلال** عن كنيسة انطاكية الرسمية، **بمقدار ما كانت فكرة الحفاظ عليها من هيمنة الدخلاء**، حفاظاً يضمن التراث والتقليد واستمرارية الوجود، خصوصًا عندما شرع البيزنطيون يعيّنون على كرسي انطاكية بطاركة اسميين يقيمون في القسطنطينية ويدينون لهم بالولاء والتبعية بدءًا من سنة ٦٤٠ تقريباً حتى سنة ٧٠٢. اما بعدها، فامتنعوا كليًا عن اي تعيين.

بعد مجمع خلقيدونية، دخل «جماعة بيت مارون» في صراع مثلّث انتهى بهم إلى تأسيس ادارتهم الذاتية ومن ثم بطريركيتهم:

– صراع داخلي بين مؤيد عقيدة خلقيدونية ومناهض لها. وقد تزعمّوا هم الفئة المؤيدة لمدّة تفوق المئتي سنة.

– صراع خارجي سياسي، بعض الأحيان، إلى جانب الحكم والامبراطور، واكثر الاحيان ضدّهما، عندما كان الحكم يتخلّى عنهم لصالح المونوفيزيين الذين كانوا اكثرية لا يُستَهان بها في البطريركيّة.

– صراع ثالث حضاري بين الهلّينية والآرامية، لانهم كانوا

يحرصون حرصاً شديداً على لغتهم وحضارتهم الآراميتين السريانيتين من طغيان الهلّينية والتيارات الاخرى الغربية.

انطلاقًا من هذه الاحداث المتداخلة، آثرنا الكلام على فترة زمنية تبلورت خلالها فكرة انشاء البطريركية، بدل الكلام على سنة معينة بما فيها سنة ٦٨٦.

هذه الفترة تتحدّد بأحداث مهمّة، هي:

أولاً: الفتح العربي الاسلامي لسورية سنة ٦٣٢، ثمّ السيطرة التامّة عليها بعد معركة اليرموك سنة ٦٣٦، حيث لم يعد في إمكان جماعة «بيت مارون» الاتصال بروما أو بيزنطية برًا أو بحراً لمدّة طويلة، كما اثبت ذلك المؤرخ الكبير جاك بيرّن في كتابه الشهير «محمد وشارلمان».

ثانياً: تنامي الشعور الكنسي الاستقلالي عن بيزنطية، وامتزاجه بالحسّ الوطني، كما قال ديل: «ان الكراهية العميقة والقديمة للعالم اليوناني وعاصمته القسطنطينية، وجدت بسهولة في هذه الخلافات فرصة للظهور ...»[٤].

ثالثاً: قبول الموارنة بفكرة «الفعل الواحد في المسيح» (Monoénergisme) التي فرضها هرقل الملك بالاتفاق مع البطريرك سرجيوس بطريرك القسطنطينية، حلاً سياسيًا بين

---

(٤) DIHL et MARCAIS, *Le Monde Oriental, de 395 à 1081*, Paris ,1944, P. 22.

الخلقيدونيين واللاخلقيدونيين، ثمّ تَطَوُّرُ هذه الفكرة من «الفعل الواحد» إلى «الارادة الواحدة»، مما اوحى بان الموارنة، اصدقاء هرقل، اعتنقوا مذهب الارادة الواحدة في السيد المسيح اي المونوتليّة. مع ان المجمع المسكوني الثالث لم يأتِ على ذكرهم عندما عَدَّدَ أسماء الهراطقة مُعتَنِقي المشيئة الواحدة، على الرغم انهم كانوا معروفين جيّداً بولائهم للامبراطور هرقل، وبدفاعهم المستميت عن العقيدة الخلقيدونية. ثم ان احداً لا يفهم كيف كان هؤلاء «اللاهوتيون»، اساتذة البطريرك افرام اميد الخلقيدوني، كما دعاهم خصومهم، يوفّقون بين ايمانهم بطبيعتي المسيح من جهة، وتسليمهم بالمشيئة الواحدة، من جهة ثانية، في حين ان العقيدتين متناقضتان؟

رابعاً: شغور الكرسي البطريركي الانطاكي بوفاة انستاز الثاني في ايلول سنة ٦٠٩ وبقاء هذا الكرسي شاغرًا أو مرتهنًا للقسطنطينية بسبب فوضى الغزوات المتتالية حتى سنة ٧٤٢، حين تمّ انتخاب البطريرك اسطفان الثالث بسماح من الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان.

في هذه الظروف العصيبة وخلال هذه الفترة (٦٣٦-٧٤٢)، قامت البطريركية المارونية لسَدِّ فراغ قيادي، وحفظ الرعية من التشتّت والارتهان والذوبان.

لا شكّ في انّ الاحتفال سنة ١٩٨٦ بمرور ١٣٠٠ سنة على

التأسيس له مـبرّرات قد يجدها البـعض كافية ومُـرضيَة، إلا اننا لا نزال نميل إلى وضع التـأسيس من ضـمن فتـرة زمنية حتى تـظهر اسباب اخرى اكثر دلالة ووضـوحًا تُمكّننا من تحديد سنة التأسيس الحقيقية.

اننا نثني على جهـود المحاضرين ودراساتهم القيـمة، وندعو إلى مـزيد من البحث والتنـقيب، ظنًا منّا بان البـاب لم يُقـفل بعد مـا دام هناك وثائق تاريخية دفينة.

ولكن، اياً تكن نتيجةُ الدراسات والابحاث العلمية، ما من شكٍّ في ان قـيام البطريـركيـة المارونيـة قبل سنة ٧٠٢، أو بـعدها، هو حـدّ فاصل انهى معاناة خطيرة بسبب غـياب القيادة، وبدأ مرحلة جديدة من الوجود المتراص المتميّز المعالم دينيًا واجتماعيًا وثقافيًا.

ولا يسعنا اليوم، بمناسبة التحضـير لمجمع خاص بكنيسة لبنان، الا التنويه بالدور القيادي الذي أدّته هذه المؤسّسة على مرِّ التاريخ.

ان الوفاء لأصالة الذات يقتضي منا الاستمرار على الامانة لتراثنا كمـا يقتضي الالتـفاف حولهـا رمزاً ومنارة تهدي إلى سـبل النجاة وتطلّ باضوائها على آفاقٍ بعيدة.

ما اجـداها عبـرة نستـشفـها من الماضي المشـرق، لِنُحَصِّنَ بـها الحاضر المُتَعـثِّر والمتعَسِّر، ونقتـحم في ضوئها المستقبـل، بشجاعة الايمان وقوة الوحدة وثقة الانفتاح!

معنى لقب بطريرك انطاكية

وسائر المشرق ومداه[١]

مقدّمة

سنة ١٧٥٦، قرّر الأساقفة الموارنة المجتمعون في دير مار انطونيوس - بقعاتة، برئاسة البطريرك طوبيا الخازن (١٧٥٦ - ١٧٧٧)، اضافة عبارة "وسائر المشرق" إلى لقب البطريرك الماروني القديم "بطريرك انطاكية"[٢]. ما معنى هذه العبارة، ما مداها الجغرافي، وما هي أهميتها التاريخية بالنسبة إلى التقليد الماروني، حتى يهتم بها المجمع اللبناني الكبير (١٧٣٦)، ويأمر بإضافتها إلى اللقب القديم "مجمعُ بقعاتة"، الذي عقد أصلاً لوضع مقررات المجمع اللبناني قيد التنفيذ؟

للردّ على هذه الاسئلة، الموجّهة من ادارة مجلة "نور وحياة"،

[١] مقال صدر في مجلة «نور وحياة»، آذار ١٩٧٥.

[٢] C. de Clercq, *Histoire des Conciles*, 1re partie, de 1575 à 1849, Paris, 1949.

رأينا ان نقصر الاجوبة على معنى عبارة "انطاكية وسائر المشرق" ومداها، ممهّدين لها بلمحة خاطفة عن طريقة نشوء مفهوم كلمة "بطريرك" وتطوّره، خاتمين بحثنا بالتقسيمات الجديدة.

١- نشوء مفهوم كلمة بطريرك وتطوّره

ان الجماعات المسيحية الاولى نشأت في المدن حيث التجمّعات السكنية الكبرى. وكانت تدعى بادئ الأمر ابرشيات (paroikiai) (Paroisses) أي تجمعات الغرباء، لان المسيحيين الاولين كانوا يعتبرون ذواتهم غرباء ومسافرين على مثال ابراهيم (عبر ١١/ ١٣-١٦). وكان الاساقفة يرئسون هذه الجماعات. ومع تراخي الزمن وازدياد عدد المؤمنين، توزّعت هذه الجماعات، من ضمن المدينة الواحدة، كنائس متعددة.

أمّا في القرى والأرياف، فقد بدأ ظهور الكنائس متأخرًا أي ابتداء من القرن الثالث. وقد حفظ المؤرّخون القدامى أسماء الكهنة الذين خدموا فى قرى وأرياف اسبانية، ومصر، وسورية وغيرها. يذكر اوسابيوس القيصري في تاريخه الكنسي أسماء اساقفة بعض قرى سورية (اوسابيوس VII ، ٣٠، ١٠).

ولكن على الرغم من وجود أساقفة في الارياف، بقيت الأولية لأساقفة المدن، وبقي أسقف المدينة الكبيرة الرئيس المباشر لاساقفة

المدينة الباقين، وأساقـفة القرى والأرياف المحيطة. وكمـا كان مؤمنو المدينة يؤلّفـون رعيـة، كذلك كـان مجمـوع الرعايا يـؤلّف مقاطـعة كنسية، ومجـموع المقاطعات "أبرشية"، غالبًـا ما تتّفق حدودها مع حدود المـقاطعـات والابرشيـات في التنظيم الاداري للأمبـراطوريّة الرومانيـة. أمّا رؤساء الابرشيات الكـنسية، فقد كـانوا، في صورة طبيعـية، اساقفـة عواصـم الابرشيات الادارية الرومانـية. وقد أطلق عليـهم منذ القرن الرابع اسم مـتروبوليت، اي اسـقف المدينة -الأم، لأنّ كنائس القرى والملحـقات والمدن الصغـرى في اكثرها كـانت قد تأسّست انطلاقًا من العاصمـة، فكان من الطبيعي ان ترتبط الكنيسة - البنت بعلاقة وطيدة بالكنيسة الأم[٣].

إلى هذا التنظـيم الأبرشـي، كـانت هناك تجـمـعـات أوسع مـدى بالنسبة إلى العواصم الثلاث الـكبرى: رومة والاسكندرية وانطاكية، ذكرها مـجمع نيـقية سنة ٣٢٥ في القـانون السادس. قـال: "لتُرعَ العادة القـديمة المعمول بهـا في مصر وليـبية والمدن الـخمس بحيث يكون لأسـقف الاسكندريـة سلطان على كلّ هذه المقـاطعـات، فـان لأسـقف رومة مـثل هذا التـقليد. ويجب ان تـرعى ايضا امـتيـازات انطاكية والمقاطعات الآخرى..."[٤].

فهذا القانون، كمـا يتضح من النص ذاته، لا يدّعي خلق مؤسّسة جديدة، بل إثبـات تقليد كنسي قـديم يحفظ حـقوق "المتـروبوليات

(٣) Prof. E.EID, *La Figure juridique du Patriarche*, Rome, 1962.

(٤) ORTIZ de URBINA, *Nicée et Constantinople*, éd. de l'Orante, Paris, 1963 .

الثـلاث الكبرى " . وقـد اعـتبـره الشـرّاح والمؤرّخـون بداية التنظيم البطريركي اللاحـق، الذي كرّس لأسـقـفـيـات رومـة والاسكندرية وانطاكـيـة، الـتي نحن في صـددها، حقّ الولاية عـلى الابرشـيـات والمقاطعات التابعة لها. أمّا كـيف ومتى تمّ تحديدُ وحصر الأبرشيات والمقاطعات التابعـة لبطريركية انطاكية وحصرها فـهذا ما سنحاول ايضاحه في جوابنا على السؤال الثاني.

٢ - معنى عبارة " انطاكية وسائر المشرق " ومداها

للإحـاطة بهذا الموضـوع إحاطـة علميـة علينا الرجـوع إلى التنظيم الاداري السياسي الشـامل الذي باشر به الامبراطور ديوكليـسيان، سنة ٢٩٢ [٥].

حال تسلّمه الحكم في الامبراطورية الرومانية، سنة ٢٨٤، اختار ديوكليسـيان شـريكًا له في الحكم يدعى مكسيـميان. كـما اخـتار مسـاعدين اثنين برتـبة قيـاصرة، وقـسم الامبـراطورية الشاسـعة الاطراف ٤ مديريات و ١٢ أبرشـيـة و ٩٦ مقـاطعة. واختصّ نفـسه بمديرية الشـرق (Préfecture d'Orient) لأهمـيّـتـهـا السـيـاسـيـة والاستـراتيجيـة والثقافـية. وكانت هذه تمـتدّ من تراقيـة - القسم الاوروبي من تركية، واليونان وبلغارية - حتى ليـبية- الجمهورية

(٥) J. MARQUART, *Organisation de l'Empire romain*, Paris, 1962.

الليبـية اليوم –، وتتــألّف من خمس أبرشيــات، هـي: أبرشية تراقـية وعاصمـتها هرقلية، أبرشيــة آسيا وعاصمـتها نيكوميـدية، أبرشية البنطوس وعــاصمــتــها الكابادوك، أبــرشيــة مصــر وعــاصمــتهــا الاسكندرية، وأبرشية الشرق (Diocèse d'Orient) وعاصمتها انطاكية.

نحصر همّنا، في هذا البحث المقـتضب، في "مديرية الشرق" في نوع عام "وفــي أبرشية الشــرق" وعاصــمتــها انطاكيــة في نوع خــاص، (راجع الخريطة) لأنّ الإدارة الكنســيــة كانت قـد اختــارت واتبعت طوعًــا التقســيم السياسـي الاداري، لأســباب عدّة تاريخــية وجغرافـيّة وفي نوع خاص عملية. لذا، يمكننا، في صــورة عامة، ان نعتــبر المتروبوليات الادارية–الســياسيــة متروبوليات اكليــريكية– كنسية، الاّ في بعض الحالات الاستثنائية.

فالــعاصمــة الادارية الكبرى انــطاكية، "تــاج الشرق الجمــيل"، اروع مدن الشــرق اليوناني[٦]، ملتقى أهم الطرق التــجارية في ذاك العـصر، لم تكن عــاصمــة ادارية وثقافـية وعــسكرية فحــسب، بل عاصــمة دينيــة ايضًا ومقــرّ اسقـفية الشــرق التي سوف تتــحوّل، خصوصًا بعــد مجمع خلقيدونية (٤٥١)، مقر "بطريركـية انطاكية وسائر المشرق". انطاكـية هذه، كانت تخضع لولايتها مــتروبوليات وأسقـفيات مــتعــدّدة بتعدّد المقــاطعات التي تتــألّف منها "أبرشــية الشرق" السياسية – الادارية. يذكــر البحّاثة روبير دوفريس Robert

(٦) Glandville Downey, *Antioche in the age of Thodosium the Great*, U.S.A, 1962.

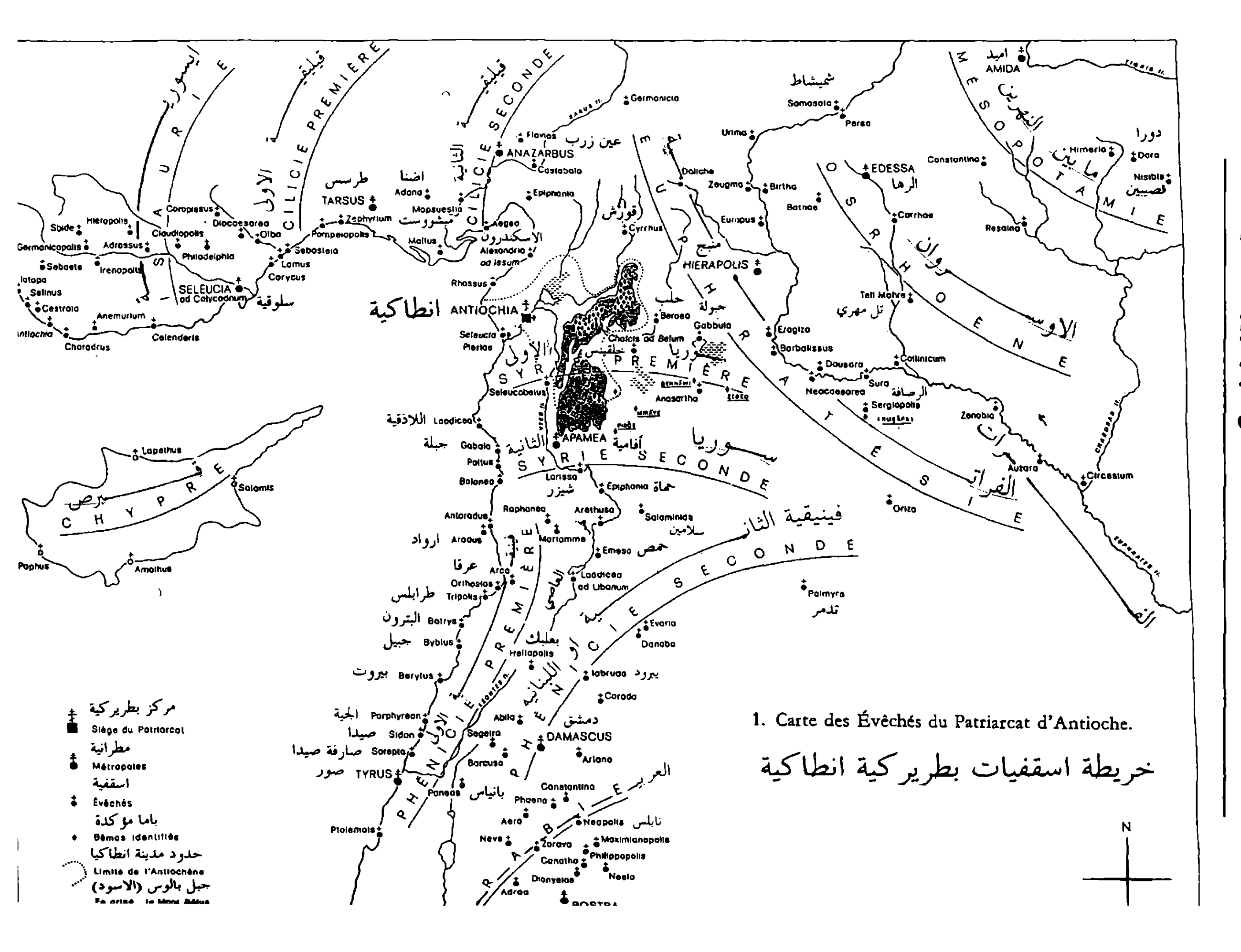
Devresse في كـتـابه "بطـريركـيـة انطاكـيـة "[٧] اسـمـاء خـمس متـروبوليات، هي: بيروت، حلـب، دارا، سرجيـوبوليس، ثم حمص، وتسع اسقفيات كبرى (اي مطرانيـات) بعدد المقاطعات السياسية – الادارية التـسع، وهي: ايسـورية، قـيليـقـيـة، سـورية، الفـراتيـة، الاوسروان (الرها)، ما بين النهرين، فينيقية، فلسطين، العربية.

فاللقب الذي نحن في صدده "بطريرك انطاكـية وسائر المشرق" يعني، حـتى القرن السـابع، اي قبل ان تكرّست الانـقسامـات داخل الكنيسة الواحدة وتعدّدت "بطريـركية انطاكية"، أنّ ولاية بطريرك العاصـمة انطاكـية كـانت تمتد على المتـروبوليات الخـمس والمراكز الاسقـفية المتعـدّدة الواقعة من ضـمن المقاطعات التـسع المذكورة، باستـثناء قبرص التي فصلت عن ولاية انطاكـية بعد مجـمع افسس سنة ٤٣١، واورشليم بعد مـجمع خلقيدونيـة سنة ٤٥١. ولكن بعد الانقسامات تـفرّدت كلّ كنيسة بتقسـيماتها الخاصّة مع احـتفاظها بلقب "انطاكية وسـائر المشرق". ولا مجال هنا للتـساؤل عمّن يحق له الاحتفاظ بهذا اللقب.

فالمجمع اللبناني (١٧٣٦) في الفـصل الثالث، الباب الرابع، العدد العاشر، يعـتبر أنّ بطريركيـة انطاكية للموارنة تشـمل، لا "أبرشية الشرق" فـحسـب، بل "مديرية الـشرق" أيضًا، وتتـعدّى هذه وتلك من التقسـيمات الادارية لتشمل "آسيا والمشرق إلى الـهند"[٨].

[٧] Robert DEVRESSE, *Le Patriarcat d'Antioche*, Paris ,1945.

[٨] «المجمع اللبناني »، ترجمة المطران يوسف نجم، جونية، ١٩٠٠.



1. Carte des Évêchés du Patriarcat d'Antioche.

خريطة اسقفيات بطريركية انطاكية

٣ - كيف تقسّمت بطريركية انطاكية المارونية ابرشيات؟

- حتى نهاية القرن السادس عشر، لم تكن البطريركية المارونية مقسّمة أبرشيات. والمطارنة والأساقفة كانوا يقيمون إمّا في الدير حيث البطريرك، أو في الاديرة النائية في الجبال، أو في بعض المدن مثل دمشق وحلب وقبرص، ولم يكونوا إلاّ نوّابًا وممثّلين للبطريرك، يرسلهم باسمه لزيارة الرعايا معززين برسالة رعوية[٩].

أما الاساقفة، رؤساء الاديار، فلم تكن لهم أي ولاية خارج أديارهم. والمطارنة في المدن والمناطق كانوا مفوّضين تفويضًا مطلقًا[١٠].

- المفهوم القانوني للابرشية لم يوجد عند الموارنة الا مع المجمع اللبناني سنة ١٧٣٦. لقد كانت كلمة "رعية" تستعمل من دون تمييز كبير للخوري خادم الرعية المباشر، كما للمطران، كما لغبطة السيد البطريرك. والمجمع اللبناني نفسه لم ينجح في ادخال المصطلحات المناسبة للتنظيم الجديد، بشهادة الطبعة العربية للمجمع

(٩) Paul ROUHANA, *Le Synode Libanais,* (Mémoire) Louvain, 1985, p. 44, note 35.

(١٠) Joseph, FÉGHALI, op. cit. , L. 39 - 40.

اللبناني، سنة ١٧٨٨، التي تشير بوضوح إلى ان المجمع لم يستعمل كلمة "أبرشية" ليميّزها عن كلمة "رعية". لقد استعمل آباء المجمع، اكثر الاحيان، كلمة "رعية" مشفوعة بنوعية الخدمة والدرجة: مثلاً رعية الكاهن، أو رعية المطران، أو رعية البطريرك[١١].

– ولكن، اذا كان مصطلح كلمة "أبرشية" قد تأخر استعماله حتى بعد المجمع اللبناني، فان التمييز بين صلاحيات البطريرك وصلاحيات المطران، كان قد بدأ يثير الاضطرابات والمشاكل منذ المجمع التريدنتيني في شكل عام، ومنذ إرساليتَي الأبوين اليسوعيين، يوحنا إليانو (١٥٧٨)، وايرونيموس دنديني (١٥٩٦) والمجمعَين اللذين عقداهما، وايضًا منذ رجوع تلامذة المدرسة المارونية في رومة، وإعادة تنظيم الرهبانية اللبنانية المارونية (١٦٩٥)[١٢].

– هذه العوامل أدّت إلى حدث فريد في تاريخ الكنيسة المارونية وهو خلع البطريرك يعقوب عواد في مجمع المطارنة، سنة ١٧١٠. هذا الحدث شكّلَ اول خلل في التنظيم الكنسي الماروني التقليدي القديم، وكان سببًا من اسباب انعقاد المجمع اللبناني سنة ١٧٣٦.

– يرجع، إذًا، انشاء الابرشيات في الكنيسة المارونية إلى

---

(١١) ROUHANA, *op. cit.*, p. 95, note 36.

(١٢) ROUHANA, *op. cit.*, p. 45, note 40.

المجمع اللبناني الذي قسم البطريركية ثماني ابرشيات، وحدّد صلاحيات المطارنة وواجباتهم، وهي في مجملها مطابقة لصلاحيات الاساقفة اللاتين وواجباتهم، كما ورد في المجمع التريدنتيني المنعقد سنة ١٥٤٥-١٥٦٣.

- اما الابرشيات، فهي التالية: حلب، بيروت، جبيل، البترون، قبرص، دمشق، بعلبك، طرابلس، ثم صور وصيدا.

سنة ١٩٠٦، قسّمت ابرشية صور وصيدا ابرشيتين مستقلتين.

سنة ١٩٤٦، تحوّلت النيابة البطريركية في مصر مطرانية مستقلة مع مطران مقيم هناك.

سنة ١٩٦٠، حملت ابرشية دمشق اسم "صربا"، مع مطران مقيم في بلدة عشقوت ومدينة صربا، واحتفظ البطريرك بنيابة عامة في ابرشية "صربا".

وبعدها أنشئت أبرشية زحلة والبقاع، وضمّت اليها مدينة بعلبك، وتحوّلت ابرشية بعلبك سابقًا ابرشية جونية، ثم انشئت ابرشية اللاذقية-طرطوس، وابرشيات أخرى في بلدان الانتشار...

- على رغم التقسيمات القانونية التي وضعها المجمع اللبناني، والمطالبات التي بدأها سابقًا المطارنة بصلاحيات اوسع، وعلى رغم التأثيرات الغربية التي دخلت مع تلامذة المدرسة المارونية في رومة،

ومع الاصلاح الرهباني، بقي السيّد البطريرك الرأس والأساس في الكنيسة المارونية حتّى مطلع الاستقلال، تساعده روح كنسية عالية في السادة الأساقفة، حتّى لو لم يعودوا نوابًا بطريركيين، كما تساعده روح اصيلة في الشعب الماروني، "والتنظيم الملي العثماني" الذي كان يعتبر البطريرك الممثل الوحيد للكنيسة والامة.

بقيت سلطة السيّد البطريرك كاملة حتى بداية عهد الاستقلال، ونهاية بطريركية المثلّث الرحمات البطريرك انطون عريضة، (١٩٥٥). بعدها خفّ نفوذ البطريرك، وازدوج الحكم عند الموارنة دينيًا ومدنيًا، كما بدأ الاضطراب في الافكار والمواقف بسبب الحق القانوني الشرقي الجديد، والمداخلات المتعددة، وانشاء الابرشيات خارج نطاق البطريركية، وتحديد صلاحية البطريرك بالنسبة إلى هذه الابرشيات مع اقتصار سلطته على الامور الطقسية، ونشوء النزعات الاستقلالية ...

هذا هو في اختصار كلي، وبكثير من التبسيط والتعميم، معنى لقب "بطريرك انطاكية وسائر المشرق" ومداه. ولكنّ الموارنة اليوم وقد ضاقت بهم، كيفًا اكثر منه كمًا، لا "بطريركية انطاكية" فحسب، بل "سائر المشرق" ايضًا ،فانتشروا في القارّات الخمس واصبح عددهم في العالم ستة اضعاف عددهم في "انطاكية وسائر المشرق" - لان البرازيل وحدها تضمّ أكثر من خمسة ملايين ماروني - الموارنة هؤلاء هم في حاجة إلى احياء رُبُطِهم التاريخية:

الروحـية والـلاهوتية وتراثـهم الإنساني الـزاخر، أكـثـر منهم إلى تكريس تعابير جغـرافية من مثل عبارة "انطاكـية وسائر المشرق"، أو حتى "انطاكية وسائر القارات".

والآن ونحن في مستهلّ بطـريركية جديدة (١٩٧٥)، نأمل من غـبطة أبينا البطريرك، الذي عُـرف بالابوة والعفـوية والطيبـة، ومن المطارين، الذين اولاهم هذا الشـعب الماروني الطيب ثقتـه، ان يعملوا على جـمع الطاقات والمواهب المارونيـة، وهي كثـيرة ومـختلفـة في المشـرق والمغـرب، في مـجـمع لبناني ثانٍ نجـدّد فـيـه ايماننا بالله وبالإنسان، انطلاقًا من ايماننا بالاله المتجسد -حسب نظرية مدرسة انطاكية التي ورثناها - لخير انطاكية والمشرق، كما نجدد فيه الأطر والمفـاهيم القـديمة فنبـلورها في ضـوء العلم الحـديث، ونجـعلهـا مسكونية شاملة على صورة العصر، ونطلقهـا تعبيرًا حياتيًا صـادقًا عن حضارة اليـوم، كما كانت تلك تعبـيرًا عمليًا صادقًـا عن حضـارة الأمس.

المارونيّة حتى سنة ١٩٤٣ (١)

مـــقـــدّمـــة

اولئك الآتون من البعـيد، المستـقرّون في الاعالي، الهـادفون إلى الأبعد، من هـم بالنسـبة إلى تاريخ لبنان؟ ايّ كلمـة-رسـالة اعطوا ان يحملوا؟ ايّ دور أُنيط بهم تحقيقه؟

مُحـبّون مُضـحّون محـبّة سامـري الانجيل وتضـحيتـه. ودعاء مسالمون وداعة المساكين بالروح، أغيـر على مجد الله وكرامته منهم

(١) النص الكامل للكلـمة التي أُلقـيت في الندوة المنعـقدة، بتـاريخ ١٩ ايار ١٩٧٤، في قاعة مـحاضرات معهـد الرسل في جونية، بدعوة من الرابطة المارونـيّة، وقد تكلم فيها الى الاب بولس نعمان، عميد كلية الآداب ومدير قسم التاريخ في جامعة الروح القدس، الدكتور فيليب الخازن، في الميـثاق الوطني، معالي الاستاذ ادوار حنين، في السياسة المـارونية - اللبنانية منذ سنة ١٩٤٣، معالي الدكتـور شارل مالك، في الطاقات المارونية في لبنان والعالم. وأدار الندوة واختتمها واعلن مقرراتها، المحامي شاكر ابو سليمان، رئيس الرابطة المارونيّة.

على مجدهم وكرامتهم اياهما. اجمل بيت في قراهم ومدنهم بيت لِلّه، واعلى تمثال على ذراهم ومنعطفاتهم تمثال للعذراء، أَنَعْرِفُهم بعدُ ام نجد لهم شبيهًا في ما بيننا غير الاسماء والاحجام؟

المارونية –وهـي الروحية البـاقيـة من نهج الموارنة القدمـاء– ما كنت لاتكلّم عليها في مثل هذه المواقف، لو لم تصبح عـلامة استفهام كبرى، مثار غيرة، واداة تجارة واستغلال...

ان جيلنا عاش، بفعل مخدّرات تربوية وسياسية، اجنبية ووطنية، سَبْـيًا فكريًا لعلّه سِـمَة افظع حقـبة في تاريخنا، حـتى أن شبيـبتنا كادت تُفْـصَل عن جذورها، وبتنا جـميـعًا من المارونية فـي غربتين: غربة مـعرفة وغـربة حياة، وهي لم تكن قطّ، في مـفهومــها الديني ومفهومها الوطني، إلا مصدرَ خير وإلفة وتقدّم لنا وللبنان ولإنسان هذا الشرق العزيز.

تلك المارونية، في تاريخها ومراميـها حتى سنة ١٩٤٣، اعرضـها اليوم لـكم في ربع سـاعـة بلوحات ثلاث: الاولى نشـأتها، والثـانية ارتباطها بلبنان حتى نهاية عـهد الامارة، والثالثة تطويرها لبنان منذ عهد المتصرفية حتى الاستقلال سنة ١٩٢٢ ثم ١٩٤٣.

١- نشأتها

انهـا تراث روحي يشـدّنا إلى الإنجيل والسـيّـد المسـيح -الإله المتجسّد- بالوسيط القدّيس مارون مثالنا في عيش الإنجيل ببساطة وإخلاص، بتفان وبطولة.

وهي تراث حـضاري يشـدّنا أيضًـا إلى مـسيـحيـي بطريركيـة إنطاكـية، ومـدرستـها الـفكرية الكبرى، ونهـجـها الثنائي في فـهم شخصـية المسيح الاله الكامل والإنسان الكامل. بفضل هذه العـقيدة وهذا المفهوم الثنائي لطبعي السيد المسيح، ارتبطت كنيستنا المارونية منذ القرن الخامس (٤٥١) بكنيسة رومة، وكانت البادرة بينهما مبدأ عـلاقات دهرية طيّـبة، الأمـر الذي سـوف يشكّل على الزمن صفـة مضافة إلى صـفات المارونية تقيها الالتفـاف على ذاتها، وتسمح لها بالانفتاح على كلّ تقدّم حضاري في الغرب.

إِذًا، ليست المارونية مفهوماً مدنيًا ولا مفهوما دينيًا صرفا، بل هي احـد انجح تجـسّدات الفكـر العملـي والتركـيب المسـيـحي في هذه المنطقة. فقد استطاعت، بما لها من دفع روحي ولابنائها من اخلاص العيش في صـميمها، ان تُـوَحّد معًا، في ذاتهـا، التقوى الشخـصية والامانة الكبـرى للمسيح وللكنيسـة الجامعة، بما هي ديانة، والـثقة المطلقة بالإنسان المتطوّر المتجدّد، والأمانة الكبرى لخطّها الحضـاري، بما هي أُمّة. اسـتطاعت ان تكون، في الوقت نفسـه، ديانة ودولة من

غير ان تدوّل الدين وتديّن الدولة.

واذا حاولنا الايجاز قلنا، ان المارونية، من حيث النشأة، انما هي مذهب فكري انطاكي ديني مدني معًا، ذو صفة مميزة متّصلة مباشرة بحضارة قديمة، اردتُ الحضارة الآرامية السريانية، وبواسطة رومة بالحضارة العالمية، ومطبوعة بطابع مسيحي خاص، طابع روحانية القدّيس مارون، قبل ان تكون طائفة حسب المفهوم المتداول للكلمة ، محصورة العدد تدور في حلقة الصراع الطائفي في سبيل البقاء. فالتمسك بالخط الحضاري الوطني -انّى كان الوطن- والارتباط بالمسيحية العالمية، مع الحفاظ على روحانية القديس مارون، كلّها متماسكة، كفلت هذا النوع من الوجود للموارنة. وقد نشأت منها ميزات اساسية هي اليوم وغداً المحك لقادتها الموجّهين، والمقياس لنجاحهم أو اخفاقهم. تلك الميزات، هي:

١ - نظرة روحية إلى الكون وجعلها رأس النظرات.

٢ - بساطة وعفوية في العيش؛ يرضى الماروني بالفقر ولا يبطره الغنى.

٣ - سعي دائب نحو الاصالة الفكرية والروحية ما ألحّت المغريات.

٤ - احترام عميق للإنسان وللقيم الإنسانية، مصدره تجسّد الاله وثنائية طبعه وتجسيد قيمه في المجتمع.

في سبيل الحفاظ على هذه المزايا، لا سيما الاصالة، كان تأسيس

البطريركيــة المارونية في فتــرة زمنيّة تُحَـدَّد ما بين سنتي (٦٣٦ و ٧٤٢) لما سقطت انطاكيــة مدنيًا تحت حصار الفـاتح العربي، ودينيًا تحت نفوذ الامبراطورية البيزنطيــة. ومنذ ما قامت البطريركية التفّ حــولها كـثيـرون من ابناء مــدن وادي العــاصي وقراه حــيث الدير الشهير، ومن ابناء قــرى اودية ادونيس وقاديشا في لبنان، فكوّنوا نواة الكنيسة المارونية.

وفي ســبــيل الحفــاظ على هذه المزايــا، كان الخــلاف مع الفــاتح العربي على رغم تسامح بني امية المأثور، "ولكنه تسامح لم يستطع ان يغيــر شيئًا من مــوقف الذميين امام الشرع ولو كــانوا من رجال البلاط "[٢].

وفي سبـيل الحفاظ عـليها، كــان الارتباط بلبنان مــوطنًا حصنًا يكفل، بفضل طبيعته الجبلية الصــعبة، الحريةَ والأصالة والاستقلال لناشديها. وقد تمّ ذلك على مراحل نعــرض أهمّها بكثير من الايجاز، مستندين إلى الدراسة القيّمة التي نشرها الدكتور كمال الصليبي في ملفّ «النهار»، العدد الأربعين، ٥ كانون الثاني ١٩٧٠.

---

[٢] المطران مـيخــائيل ضــومط، «الموارنة والبطريركـية المارونيّــة»، في مــجلة «رابطة الاخويات»، العدد ٣١، تموز – آب ١٩٥٥ .

٢- ارتباطها بلبنان

المرحلة الأولى

تتميّز بالانطواء على الذات والتكيّف وطبيعة لبنان الوعرة، وتنتهي بعَوْدِ الاتصال بروما بواسطة الصليبيين.

وقد كان تأثيرها عميقًا وحاسمًا، فتطبّع الموارنة خلالها بوعورة بيئتهم الجديدة، "واصبحوا شعبًا صلبًا، متراصّ الصفوف، شديد البأس، غيورًا على كيانه ودينه، ماهرًا في القتال. واستمرّت الكنيسة تقوم بمهمّات القيادة، ترشده في الامور الروحية والزمنية، وتؤمن له مستودعًا لخبرته. وكان البطاركة والمطارنة يعيشون إلى جانب الشعب، ببساطة ووداعة، يشاركونه في افراحه واحزانه".

المرحلة الثانية

كانت مرحلة امتحان عسير عهد المماليك والمقدّمين، وصفها المطران ميخائيل ضومط بأنها "اقتم العهود في تاريخ الموارنة ولبنان"[٣]. فقد قُتل خلالها وتشرّد واحرق كثير من البطاركة

---

[٣] المرجع المذكور سابقًا.

والاساقـفة. وكتب مـؤرخ السلطان قلاوون واصفًـا اسر البطريرك لوقا البنهراني، فقال: "اتفق ان في بلاد طرابلس بـطركًا عتا وتجبّر واسـتطال وتكبـر واخـاف صـاحب طـرابلس وجـمـيع الفـرنجـة (الصليبيين)... وكان امـساكه فتوحًا عظيمًا اعظم من أفـتتاح حصن أو قلعة"...

المرحلة الثالثة

هي مرحلة بناء داخلي للبنان، وامتداد فـيه من شماله إلى جنوبه، بحيث ان "الرقعـة اللبنانية القائمة اليوم" تنتـهي بالامتداد الماروني آنذاك. وقد حصل هذا الانتـشار، بتشجيع مـن الاسر المسيطرة على المناطق، لانهم رأوا في الموارنة حقيقتين:

- قوة داخلية بنّاءة تعمل بكدّ وأمانة وثبات، وليس لها أي مطمح إلاّ إلى الاستقلال.

- وقوّة خـارجية تفـتح لهم البحر وتصـلهم بالتجارة والتـقدّم العالميـين. وقد اعتُـبِروا آنذاك الجـامع المشترك للطوائـف في القرى والمدن اللبنانية المختلفة: فلا ارتباطات لهم بالداخل بينما لهم علاقات وطيدة بايطالية ورومة وفرنسا.

وفي هذه المرحلة نفـسـها كـان الانسجـام تامًا ليس بين الكنيـسة المارونية والامـارة اللبنانية، على اختلاف مـذاهب الامراء وادليانهم

وحسب، بل وبين الكنيسة والزعامة المارونية الجديدة من آل حبيش وآل الخازن وغيرهم. وكان هؤلاء عكس المقدّمين، شديدي الغيرة على مصلحة الكنيسة. وبقي التلازم على صفائه إلى يوم تحوّلت الامارة الشهابية امارة مارونية مع الأمير يوسف بن ملحم سنة ١٧٧٠.

المرحلة الرابعة

هي مرحلة امتحان ثانٍ اقسى من سابقه، من سنة ١٨٤١ إلى سنة ١٨٦١، حيكت عليهم خلالها الدسائس من الداخل والخارج، خصوصًا بين الامبراطوريتين العثمانية والبريطانية. وانتهت بمذبحة سنة ١٨٦٠ في القائمقامية الدرزية.

طيلة هذة المدة، وخلال المحن القاسية التي مرّوا بها، لم يغب قطُّ عن بال الموارنة مثلهم الشعبي المأثور "من لا وطن له لا دين له"، فتخطّوا محنة سنة ١٨٦٠ ونبذوا الاحقاد وأقبلوا، منذ أُعلن نظام المتصرّفية، "على التعاون هم والدروز، لانجاح التجربة اللبنانية الجديدة، محوّلين عصبيتهم الدينية تدريجيًا إلى ولاء للبنان كوطن يجمع بينهم وبين الطوائف الاخرى"، ضامنًا مصالح الجميع، والعيش الكريم للجميع، ولهم المناخ الملائم لحفظ المزايا التي طبعت وجودهم منذ البدء. وقد تمّ ذلك ايضًا على مراحل نذكر اهمها.

٣ - تطويرها لبنان

المرحلة الأولى

هي مرحلة نشوء الفكرة اللبنانية وتبلورها. كانت الكنيسة خلالها "القوام الاساسي لهذه الفكرة والمؤسّسة والمجسّدة لها"، يقينا منها بان لا بد من ارادة مخلصة، صلبة، مجردة من الغرضية، في اساس بنيان كلّ وطن يطمح إلى الاستقلال والبقاء.

المرحلة الثانية

عاد فيها الموارنة إلى خبرتهم مع فخرالدين وضرورة إرجاع الرقعة اللبنانية إلى ما كانت عليه من الاتساع، فاخذوا يعملون مطالبين بالموانئ البحرية والمناطق المحاذية للجبل، وهي السناجق والاقضية. وقد فعلوا ذلك بحسّ وطني صافٍ، غير آخذين بالاعتبارات الطائفية الضيقة، لأنّ قسمًا كبيرًا من سكّان هذه الأقضية والسناجق كان مسلمًا. ولم يتحقّق سعيهم الا في نهاية الحرب، وتَقَلُّصِ الوجود العثماني سنة ١٩١٨.

المرحلة الثالثة

تحقّق فيها حلمهم الأكبر، وأعلن الفرنسيون في الأول من أيلول سنة ١٩٢٠ دولة لبنان الكبير في حدوده الحاضرة، وهي، كما قلنا، حدود الامتداد الماروني على عهد الامارتين. وقد تمّ ذلك على اثر حماس شعبي منقطع النظير، ولجان عمل في باريس والاسكندرية وبيروت، ومفاوضات ترأس اهمها البطريرك الياس الحويك بتفويض من الشعب اللبناني ومجلس الإدارة، المؤلّف آنذاك من ممثّلين عن الطوائف اللبنانية المختلفة. ولا تزال محفوظة في الأرشيف "المعاريض" التي وقّعها وأرسلها أبناء الاقاليم المسلوخة يطالبون فيها بالرجوع إلى لبنان. وقد كتب حاتم المكاري إلى الاستاذ يوسف السودا واصفًا حال البلاد يومئذ: "ان الحركة اللبنانية هي حركة قوية تشمل جميع الجبل واكثر المنسلخات، والجميع ينادون بالاستقلال، ومجلس الإدارة يحبّذ الحركة بكلّ قواه ونفوذه، والكرسي البطريركي عزيمته اشد من عزيمة المجلس والشعب، حتى ان جميع اهل لبنان يتظاهرون بكلّ معنى الكلمة: إما الاستقلال أو الموت وهم حاضرون للمظاهرة ضد فرنسا حتى بالثورة لاجل نوال الاستقلال"[٤].

---

[٤] يوسف السودا، «في سبيل الاستقلال»، صفحة ١٨٠.

المرحلة الرابعة

أُنجِزَ فيها الاستقلال، من سنة ١٩٢٠ إلى سنة ١٩٤٣. وقد تنازل فيها السياسيون الموارنة، في ذلك الحين، عن بعض الحقوق على اثر **مناقصات داخلية في ما بينهم، ومزايدات ومداخلات** من السياسة الانكليزية لتقليص النفوذ الفرنسي.

وان كان الموارنة قد قبلوا بهذه التنازلات، فيقينًا منهم بان الفكرة اللبنانية التي دعوا اليها منذ البدء، "تفترض الا يكون لبنان وقفًا عليهم وحدهم، بل على جميع اللبنانيين على السواء، شرط ان يتحمّل الجميع مسؤولياتهم تجاه الوطن اللبناني والقيم الإنسانية" التي رافقت نشوءهم، وقد حرصوا على سكبها اساسا للميثاق الوطني؛ وهي الاصالة الحضارية والروحية لكل طائفة من الامة اللبنانية، والانفتاح على الغير، خصوصًا الغرب.

وإذا عملت الكنيسة المارونية أُمًّا سحابة أجيال وأجيال، بهمّة لا تعرف الكلل، وتضحية وتجرّد فريدين، فلكي تحلّ الجمهورية اللبنانية محلّها في القيادة الوطنية، وتعمل على تحديث الوطن وتطويره وجعله المكان الامثل والاصلح لنمو المواهب، مواهب كلّ فرد وكل جماعة أو طائفة، من افراد لبنان وجماعاته وطوائفه، لا لجعل لبنان نهبًا مقسّمًا مغانم وحظوظًا للطامعين الطارئين.

***

أيّها السادة، ان إهمال التاريخ، والتراث، وترك القيم الروحية والخلقية التي كانت في اساس المارونية ووُضعت في اساسات لبنان الحديث، ليسا من مصلحة أحد. واعلموا جيدا بان يومًا وُجد في التاريخ طابقت فيه دعوة الموارنة، إلى الاصالة والحرية، دعوة الجبل اللبناني، إلى الصمود والاستقلال، فكانت الجمهورية اللبنانية هذا الموطن-الحصن، الذي يكفل لهم ولغيرهم الحرية والاصالة والاستقلال.

وان جاء يوم آخر -لا سمح الله- خالف فيه الموارنة دعوتهم، فالجبل اللبناني لن يخالف دعوته الدهرية، بل يبقى حصنًا للحرية والديمقراطية في هذا الشرق.

يومئذ تزولون انتم، ونزول نحن، وتبقى المارونية منهجية لبنان والجبل اللبناني.

أيّها السادة، ما رددته باسم أجدادكم آمل بأن يردده أحفادكم باسمكم، فيكرّرون الدعاء لأولئك المردة الآتين من البعيد، المستقرّين في الأعالي، الناهدين إلى أعلى.

الفصل الثاني

عودة الروح

أولاً – الحياة النسكيّة في لبنان خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

ثانيًا – دور الرهبانيّة في المجتمع اللبناني

ثالثًا – العلم والتعليم في الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة

الحياة النسكيّة في لبنان (١)

مــقــدّمــة

منذ العهد المسيحي الأول، اعتُبرت الحياة النسكية في الشرق جوهرَ الحياة الرهبانيّة، فلم يقم بينهما فواصل أو حواجز. فالمحبسة - ذروة الحياة النسكيّة - كانت محطّ آمال الرهبان يستقرّ فيها مَن تمرَّس تمرّساً عميقاً بالأعمال النسكيّة وبلغ درجة من الطهر والنقاوة والسيطرة على الذات تؤهّله لحياة الصمت والتأمّل، لحياة الوحدة مع الله. قانونُه ناسك آخر، أكبر سناً، وأكثر اختباراً، يُغدق عليه النصح والارشاد والهداية الروحيّة هرباً من تجارب الشيطان، وتلافياً لخطر الضلال إن لجهة الحماس الروحي الزائد أو لجهة الكسل والتواني. فالحياة النسكيّة كانت ملازمة للحياة الرهبانيّة الفرديّة والديريّة، ومكمّلة لها.

هذه الحياة الرهبانيّة كانت، منذ بداية القرن السابع، وفي نوع

(١) محاضرة أُلقيت في بقاعكفرا، بلدة القديس شربل، بتاريخ ٣ ايار ١٩٩٧.

خاص، بعد الفتح العثماني للبلاد سنة ١٥١٦، قد اتَّجَهت بابصارها وتطلّعاتها نحو لبنان، حيث وَجَدَت في جباله العالية ووديانه السحيقة بديلاً لها من صعيد مصر، وكهوف ما بين النهرين واودية سورية الشمالية وتركية الجنوبية وتلالهما. فتجمَّع اكبر عدد من الاديار والمناسك في مناطق الاكثريّة المسيحيّة في نوع عام، وفي مناطق التجمُّعات المارونيّة في نوع خاص، اي في المناطق الثلاث المتلازمة والآمنة: منطقة اهدن–الزاوية، منطقة جبَّة بشري–بلاد البترون، ومنطقة جبة المنيطرة –بلاد جبيل، كما ذكر المرسل اليسوعي الاب يوحنا إِليانو في التقرير الذي رفعه سنة ١٥٧٨ إلى قداسة البابا غريغوريوس الثالث عشر: «الموارنة ... يسكنون في مدن وقرى جبل لبنان المواجهة للغرب والمشرفة على طرابلس وبيروت، ومنهم عيال يسكنون دمشق وحلب وطرابلس وجزيرة قبرص» (١٢٩١).

هذه الوحدة الجغرافيّة كانت تؤلّف المثلّث الاستراتيجي الذي يضمن للمسيحيين عمومًا وللموارنة في نوع خاص شخصيتهم المعنويّة ويسمح لهم بممارسة واجباتهم، وعيش حياتهم الدينيّة والوطنيّة بحريّة واطمئنان. ومع الزمن وبفضل تحالفهم مع الامارتين المعنية منذ سنة ١٥٨٤، والشهابية منذ سنة ١٦٩٧، اتَّسَعت هذه الوحدة الجغرافيّة وشملت مناطق كسروان، بعد سنة ١٦٠٥ والمتن والغرب والجرد حتى جزين، سنة ١٥٩١، بعدما أوكِلَ إلى الامير فخر الدين التزام هذه المناطق.

يسير الدير في الطليعة ويتبعُـه الشعب مع كلّ مستلزمات حياته الدينيّة والوطنيّة.

١- الحال الاجتماعية والسياسية

هذا التجمّع في فينيقية اللبنانية، وفي الاماكن النائية منها والوعرة المسالك، لم يكن تجمّعاً حول مصالح أو حول مصادر الثروات الطبيعيّة، بل كانت غايتُه عيش العقيدة بامانٍ، وحفظ الايمان سليماً من مداخلات الامبراطورية البيزنطيّة، ومن اجتياح الفتح العربي والاسلامي. ولأنّ دوافعه كانت روحيّة، ازدهرت في هذه المناطق روح العبادة وكثرت الممارسات الدينيّة على أنواعها حتّى غدا لبنان، كما قلنا سابقاً، البديل الطبيعي من صعيد مصر وكهوف ما بين النهرين واودية سورية الشمالية وتركية الجنوبيّة وتلالهما.

خلال هذين القرنين، الثامن عشر والتاسع عشر، ظلّت الحياة الروحيّة استمراراً طبيعياً للقرون التي سبقتهما. ظلّ اللبناني عمومًا والماروني خصوصًا متمسّكًا بايمانه حتى اصبح هذا الايمان جزءاً من كيانه الوطني، وظلّت الصلوات والطقوس الجماعيّة هي التي تحرّك الحياة العامة. لقد اصبحت حياته «تعاونية» بكل ما لهذه الكلمة من معنى، وهي التي جعلت من الموارنة، كما يقول يوسف ابراهيم يزبك، «عصبة فريدة متماسكة في محيطها لا انفصام لها:

فالموارنة يتعـاونون في بناء بيوتهم البدائية المتواضعـة، ويتعاونون في حراثة حـقولهم، ويتعـاونون في الترفيـه عن العائلة التي تفـقد رئيـسهـا أو عـضـواً منها، فـيـقـومون بجـمـيـع مـوجبـات المأتم، وباستضـافة الغرباء وباطعام اهل الفـقيد، ويتعاونون في مـساعدة جارهـم وصديقـهم في زواجه، فـيقدّمـون له ما يـحتاج الـيه بيـته الجـديد ... وبهـذه العادة التعـاونيّة، التي جعـلت حياة اللبناني شـبه مشتركة، اشتدَّت الرابطة الوطنية عنده»[٢].

غـير أنّ هذه البـسـاطة في الايمان والعيش الـيومي لم تَحُـدَّ من طموح اللبنانـي، كما لم تجـعله يرضى بالرتابة بل عكس ذلك خلقت فيـه شوقـاً إلى المعـرفة وتوقـاً إلى الجديد وقـابلية للعـمل الفكري، وضعـها في خدمة الـتطوّر عندما مُدَّت له يد المسـاعدة، يدُ الكرسـي الرسـولي، منذ القرن السـادس عشـر بواسطة المرسلين، والزيـارات الرسـوليّـة: من الفـرنسيـسكان، حـرّاس الأراضـي المقـدّسـة، إلى اليـسوعـيين: الاب يوحنا إِلـيانو سنة ١٥٧٨، والاب ايـرونيمـوس دنديني سنة ١٥٩٦، إلى انشـاء مـدرسة حـوقـا، سنة ١٥٤٢ زمن بطريركيّـة موسى العكّاري، إلى تركـيز المطبعـة الاولى في دير مار انطونيـوس قزحيّـا، سنة ١٥٨٤، إلى انشاء المدرسـة المارونية في رومة سنة ١٥٨٤، إلى المجمع اللبناني المنعقد سنة ١٧٣٦، الذي نظَّم الكنيـسة ووضع قـواعـد التربيـة والتـعليم وشـرَّع لها في البـاب

[٢] «شربل لبنان»، كُـتيِّب نشـره «اصدقاء شـربل» بالاشتراك مع صـحيفـة «النهار»، سنة ١٩٧٧، ص ١١ – ١٢.

السادس من القسم الرابع. وتميز تشريعه هذا بقراراتٍ متقدّمة وجريئة مثل الزامية التعليم ومجّانيته بالنسبة إلى الصبيان والبنات. وقد اشاعت هذه التدابير اجواء العلم ومناخات المعرفة والانفتاح على العالم، وعلى كلّ شيء جديد.

في هذه الاثناء، وكما يحدث غالباً عند كلّ تطوّر نوعي في المجتمع، قام تنافس سياسي ادّى إلى نزاعات داخليّة واحداث خطيرة، وإلى تقلّبات خارجيّة في أنظمة الحكم، فمن نظام الإمارة إلى نظام القائمقاميتين إلى نظام المتصرفيّة. وترافقت هذه التحوّلات مع تقلّبات داخليّة وثورات شعبيّة قلّصت النظام الاقطاعي وألغت الامتيازات وفرضت المساواة بين المواطنين، «وكان هذا الالغاء، الاول من نوعه في الشرق كله بقيادة الفلاح الكسرواني طانيوس شاهين».

٢ – الحال الروحيّة والرهبانيّة

وعلى رغم هذه التطورات والفتن والانتفاضات الشعبيّة، لم يتغيَّر شيء من الحياة الدينيّة: «ظلّ الثائرون الموارنة اخوة داخل الكنيسة، يتحلّقون حول «القراية» كلّ مساءٍ من مختلف الطبقات»، كما بقيت الحياة الطقسية المحرك الاساسي الذي تأسسوا عليه. «يروى عن البطل اللبناني يوسف كرم انه كان يبدأ مع رفاقه يومه بالصلاة،

واذا أتيح لهم سماع القداس في كنيسة آمنة ذهبوا اليها وسمعوا القداس بكل خشوع، ولم يخوضوا معركة إلا وبدأوها بالصلاة العلنية المشتركة»[٢].

إلى هذا النمط الحياتي العام والثابت، والسلوك الشعبي المثالي، حصلت تنظيمات دينية جديدة مكّنت روح العبادة في الرعايا ونظّمت الحياة الرهبانيّة والنسكيّة من ضمن الاديار والمؤسسات الرهبانيّة والمحابس، نختصرها هنا بتنظيمات ثلاثة كبرى، هي:

أولاً : التنظيم الرهباني

التنظيم الرهباني لسنة ١٦٩٥ جدّد الحياة الرهبانيّة ونظّمها بواسطة الشبّان الموارنة الحلبيين الاربعة، تلامذة المعلّم بطرس التولاوي الشهير: عبدالله قرألي، يوسف البتن، جبرائيل حوا وجرمانوس فرحات.

ثانياً : التنظيم الكنسي

التنظيم الكنسي تأثر بالتنظيم الرهباني وتثبّت رسميًا بانعقاد المجمع اللبناني سنة ١٧٣٦.

(٢) يوسف ابراهيم يزبك، المرجع نفسه، ص ١٣٠ .

ثالثاً : التنظيم النسكي

التنظيم النسكي تبع التنظيم الرهباني مباشرة وسنعالجه بايجاز من حيث اطاره الخارجي وتنظيمه الداخلي الذي اذابه تدريجيًا في الحياة الرهبانيّة المشتركة.

٣ – التنظيم النسكي الجديد

حتى نهاية القرن السابع عشر إذاً، وقيام التنظيم الرهباني الجديد سنة ١٦٩٥، كان الناسك الحبيس متروكاً لمبادراته الشخصيّة. في امكانه ان يعيش حياة العزلة حيثما أراد وكما أراد خاضعًا، من بعيد، لتوجيهات المرشد –اذا وجد– ولطاعة السيد البطريرك أو الأسقف.

ومع اول قانون مكتوب للحبساء سنة ١٧١٦، بدأت المحابس تتجمّع حول الأديار «على بعد كيلومترين أو ثلاثة على الأكثر»، فكان للرهبانيّة اللبنانيّة محابس عدة أهمّها: محبسة دير مار انطونيوس قزحيا، ومحبسة دير مار بطرس كريم التين، ومحبسة دير سيدة طاميش، ومحبسة دير حوب، ومحبسة دير ميفوق،ومحبسة دير القطارة، ومحبسة دير مشموشة، ومحبسة دير مار مارون عنايا، التي سكن فيها، حتى ١٩٢٠ اثنا عشر حبيساً

منهم الأب اليشاع شقيق الأب نعمة الله الحرديني «معلم» الأب شربل مخلوف. اما الرهبانية الانطونية، فكانت في جوار معظم اديارها أيضاً محابس، أهمّها: محبسة دير مار اشعيا الشهيرة، ومحبسة دير مار عبدا المشمّر، ومحبسة دير مار بطرس وبولس، وغيرها الكثير...

على أثر هذا التنظيم الاول، ارتفع عدد الحبساء وشمل الرهبان غير الكهنة، فازدهرت المحابس وبلغت الأوج في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، على رغم الفتن والنكبات. ولكن بعد الحرب الكونية الاولى، والتحولات الجذرية في المجتمع اللبناني، المتأثر مباشرة بالحضارة الأوروبية المصنعة حيث لا وقت لمثل هذه الممارسات، وعلى أثر التنظيمات المتعددة للحياة النسكية، وكانت كلها في صالح الحياة الرهبانية المشتركة، ولعوامل أخرى متعددة... تناقصت الدعوات وفرغت المحابس الواحدة بعد الأخرى، فكان آخر حبيس، الأب يعقوب ابي مارون، الذي توفي في ١٨ شباط سنة ١٩٥٨، بعدما قضى مدة ثلاثين سنة في محبسة دير سيدة طاميش.

هذه بعض خطوط تاريخ النسك في لبنان من حيث اطاره الخارجي. أما التنظيم الداخلي، الذي اذابه تدريجيًا في الحياة الرهبانيّة المشتركة، فقد مرّ بمراحل عدة نعرض أهمها:

أولاً: من سنة ١٦٩٥ حتى سـنة ١٧٣٢ قبيل انعـقاد المجمع اللبناني

أشرف على تنظيم الحياة النسكيّة خلال هذه المرحلة الأب عبدالله قرألـي أحد مـجدّدي الحـياة الرهبـانيّة الديريّة. فـقد وضع قـانوناً للنسك من احد عشر بنداً، نَظَّم فيـه هذه الحياة وربطها ربطاً محكماً بالدير. وهذا أهم ما جاء فيه:

أ - «يستطـيع، من حيث المبـدأ، كلّ راهب ناذر، صـحيـح الجسـم، قضـى فـي الـدير مدة خمس سنوات، ان يعـتزل فـي المـحبسة لـيسلك حياة الصمت والصلاة والاتحاد بالله».

ب - «يبـقى حبـيس النظام الجديـد خاضـعاً مـباشـرة لرئيسـه الرهباني، مرتبطاً بالدير، عكس حبيس النظام القديم».

ج - «يجب ألا يكون الحبيس وحيداً بل لا يكون فـي المـحبسة أكثر من ثلاثة، ولا أقل من اثنين».

ثانياً: من سنة ١٧٣٢ حتى سنة ١٨١٠

تميّزت هذه الـفترة أيضـاً بالحدّ من المبـادرات الفردية، فـأثبتت جميع فرائض القانون السابق، وطلبت من الرؤساء التشدّد في قبول

طلبات الترشيح ومتابعة السهر على الحبساء حتى داخل المحبسة.

ثالثاً: من سنة ١٨١٠ حتى سنة ١٩٥٨، سنة وفاة آخر حبيس في النظام الوسيط

في نهاية القرن الثامن عشر، كثرت الطلبات، وازداد عدد الحبساء حتى ضاقت بهم المحابس. ولما كان بين هذه الدعوات من يفضّل الهرب من العمل، والتخلّص من الحياة المشتركة في الجماعة، أكثر من رغبته في حياة الصمت والتأمل، رأى الأب اغناطيوس بليبل، المولج بأمر النسّاك، أن يضيف إلى القانون العام بعض البنود. نتوقف عند اثنين منها، لأنها حَدَّت كثيراً من المبادرات التي هي في أساس النسك الشرقي وأسهمت، في نظرنا، في تراجع الحياة النسكية، في ما بعد، لصالح الحياة المشتركة في الدير:

- يحصر البند الأول الاذن بدخول المحبسة في شخص الرئيس العام الذي لم يكن ليعطي الاذونات بسهولة.

- يرغب البند الثاني على الرئيس العام في ان يسمّي رئيساً للمحبسة، الأقدم بين الثلاثة.

هذه التنظيمات المتكرّرة، وان اسهمت في تناقص عدد الدعوات إلى المحبسة، إلا انها أعطت من دون شكّ خير الثمار، فكان للكنيسة،

خلال هذه الحقبة، أمثلة متعدّدة ومتنوعة ملأت أجواء الجبل اللبناني طهراً وقداسة، وطبعت مجتمعه وعاداته وتقاليده بطابع الزهد والتقشف وكثّفت من تراثه الإنساني. وقد تميّز من بين الرهبان والمتعبدين، خلال هذه الفترة، الأب نعمة الله الحرديني (١٨٠٨-١٨٥٨)[٤]، والقديس شربل مخلوف (١٨٢٨-١٨٩٨) ابن هذه البلدة المباركة وشفيع هذا المقام، والطوباوية رفقا من بلدة حملايا (١٨٣٢-١٩١٤).

ان شهادات المؤرّخين والرّحالة، خصوصًا ميسلين مرشد امبراطور النمسا، والشاعر الفرنسي لامارتين، في صفات هذه الحقبة ومزاياها، وفي الروح المسيحية العالية التي كانت تُهيمن على اجواء الجبل اللبناني، كثيرة ومتنوّعة، وهي التي جعلت منه محطّ آمال طلأب النسك من الشرق ومن الغرب، ومطمح المؤسسات الدينية والارساليات المسيحية الاجنبية.

واني اكتفي هنا بذكر شهادة الشاعر والكاتب الفرنسي لامرتين الذي زار لبنان في القرن التاسع عشر. قال: «إذا شاء المرء ان يتصوّر ما كان عليه عهد المسيحية الاولى الصافية، إذا شاء أن يرى البساطة وحرارة الايمان الاصلي، والطهارة والتجرّد عند رسل المحبّة، ونفوذ الكهنوت دونما تجاوز، والسلطة من دون التسلّط، والفقر من دون استعطاء، والكرامة من غير كبرياء، والصلاة

[٤] طوباوي في ١٠ ايار ١٩٩٨ .

والتقشّف وعمل اليـدين، اذا شاء ذلك لوجب عليه ان يأتي إلى لبنان إلى عند الموارنة ... امـا بالنسبـة إليّ، فلو كان في استـطاعة المرء ان ينتـزع نفسـه كليًا من جـذوره، ولو فُـتِحَ لي باب المنفى قسـريًا، لما وجدت اي مـكان اكثـر عذوبة من هذه القـرى المارونية الهـائة عند اقدام لبنان أو على سفوحه ... ».

غير ان هذه المـؤسّسات والارساليات حـملت معها سلـوكاً جديدًا وافكارًا جديدة يغلب عليها طابع الرسـالة والعمل الرسولي اكثر من طابع التأمل والزهد.

في هذا الوقت بالـذات أيضـاً، كـانت اوروبة، في ذروة فـورتهـا الاستعمارية، تتسابق على اقتسام «تركة» «الرجل المريض» وتحاول ان تدخل الشرق، بعلة أو بغير علة، بواسطة البعثات والارساليات أو بغير هذه الواسطة.

والكنيـسة الكاثوليكيـة كانت هي ايضـاً في مرحلـة حاسمـة من التقاط الذات، ومن التنظيم المركزي، بعد صحـوتها من صدمة حركة الاصلاح التي قسمت الغرب المسيحي قـسمين كبيرين، وبعد المجمع التريدنتيني وتحديد العصمـة البابوية في المجتمع الفاتيكاني الأول. وقد بلغت هذه المرحلة الأوج في مطلع القرن العـشرين عندما نشرت «الحق القـانوني الغربي» ثم الحـقتـه بـ «الحق القانوني الشـرقي» سنة ١٩٥٢.

فالتشريع الكنسي الذي اعقبها كان يحمل في طياته تحوّلاً جديداً

لأنه كان التعبير العملي للتيارات الفكرية والروحيّة الرائجة في الغرب والتي انتقلت إلى لبنان بواسطة العدوى، مع البعثات والارساليات السياسية والدينية، وهي في جوهرها، تيّارات افقية «متسطّحة» ترتكز إلى العلاقات العامة، والى العمل الخارجي خصوصًا، إلى الحوار والمفاوضات، أكثر من ارتكازها إلى الصمت والانطواء على الذات، والى التأمّل والعمل الداخلي في الأعماق.

فكان ان نمت الدعوات الرسولية والعمليّة على حساب الدعوات النسكيّة والتأمليّة، وتحوّلت أكثر الرهبنات النسكية التأملية مؤسسات رسولية عملية و «حركية». واذا بالحق القانوني الشرقي يذكر النسّاك بطريقة هامشية، من دون ان يُجهِد النفس بالاشتراع لهم صراحة، بل يكتفي بدمج حياة النسك بالحياة الرهبانيّة العامة، ويعتبر القوانين التي تُلزِم عمومًا الرهبان ملزمةً ايضاً للنساك والمتوحدين.

٤ - فجر جديد

ولكن لم تكد تمضي عشر سنوات على اذاعة الحق القانوني الشرقي، حتى رأينا بكثير من الدهشة المجمع الفاتيكاني الثاني، الذي سيطرت عليه أيضاً فكرة العلاقات العامة، والعمل الرسولي، والحوار، يرفع في ٥ كانون الثاني سنة ١٩٦٥ على المذابح الراهب

الحبيس شربل مخلوف مثالاً للحياة المسيحية المعاصرة، وهو الذي قضى عمره كله في النسك والتقشف والصمت العميق، ولم يتعرّف إلا إلى الصلاة والتأمل والاتحاد باللّه حتى الاستغراق.

ولم تكد الكنيسة تُعْلِن قداسة شربل مخلوف، حتى بدأت طلبات الدخول إلى المحبسة تتوارد من جديد، كما بدأت المحابس تعمر والدعوات تكثر وكلها امثلة علم ومعرفة وتقى، من الاب انطونيوس شينا، استاذ اللاهوت الادبي في كليّة اللاهوت في جامعة الروح القدس، إلى الاب داريو اسكوبار، استاذ اللاهوت النظري اي العقيدة في احدى جامعات كولومبيا، الذي ترك الولايات المتحدة وقصد الرهبنة والقنابل تنهال على المدن اللبنانيّة، واخيراً لا آخراً الاب يوحنا الخوند الشاعر المتعدد المواهب واستاذ الكتاب المقدس واللغات القديمة في جامعة الروح القدس، الذي دخل المحبسَة رسمياً في ١٧ كانون الثاني ١٩٩٨ عيد أبينا القدّيس أنطونيوس الكبير.

تجاه هذه الظاهرة الفريدة والمليئة بالعبر والمفارقات، نتساءل: هل نحن على افضل المفارق؟ وهل انتهت السنوات العجاف؟ ام نحن امام اعجوبة القديس شربل الكبرى، اعجوبة عودة الروح؟ ام ان العناية الالهية، كما عودتنا عبر تاريخ طويل، تعرف ان تكتب، في الوقت المناسب، أحرفاً مستقيمة على اسطر منحرفة؟

دور الرهبانية في المجتمع المسيحي اللبناني [1]

مقدّمة

سرٌّ عميق بين الموارنة والرهبنة، هذا السرّ هو مفتاح فهمنا دور الرهبانيّة اللبنانيّة في المجتمع اللبناني.

لماذا الرهبانيّة اللبنانيّة تحمل أكثر من غيرها هموم الموارنة وهموم المجتمع اللبناني؟

الجواب قريب من فهمنا وقلبنا، لأنّها الأم الوالدة ولأنّ بين الموارنة والرهبنة رباط قديم العهد، زمالة ترقى إلى اللحظة الأولى

(١) كلمة أُلقيت سنة ١٩٩٥، في دير مار انطونيوس – الجديدة– زغرتا، في مناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية الثالثة لتجديد اطر الحياة الروحية في الرهبانيّة (١٦٩٥ – ١٩٩٥).

من وجودهما، فالمجتمعات المسيحيّة الأولى عموماً وُجدت هي أولاً، ومن وجودها الفاعل نشأ الحنين إلى الوحدة مع الله، إلى الصلاة والخدمة العامّة، إلى الترهّب والتكرّس، فكان الدير نتيجة اختمار المجتمع المسيحي ووعيه ذاته ورسالته. هكذا نشأت الرهبنات في أكثر المجتمعات شرقاً وغرباً.

أمّا عند الموارنة، فالدير كان أوّلاً، ومن تخطّي الدير ذاته، مفهومه الضيّق الحاصر، ومن وعيه الكامل لرسالته، كان التجمّع الماروني الأوّل حوله، في منتصف القرن الخامس في سوريّة الشماليّة، في دير مار مارون قرب العاصي، على أثر المجمع الخلقيدوني، سنة ٤٥٢.

مفهوم الدير عند الموارنة

فالدير في مفهوم الموارنة ليس بيت صلاة وعمل فحسب، بل هو قلعة عقيدة ومنطلق رسالة ايضًا. إنه تيّار فكري يمتدّ إلى أبعد من ساكنيه ومريديه، من دير العاصي قرب حماه، إلى دير يانوح في جبّة المنيطرة، إلى دير سيّدة إيليج في ميفوق، إلى دير قنّوبين في الوادي المقدّس، إلى دير مار شلّيطا مقبس رائد الرسالة المسيحيّة في كسروان، إلى بكركي، إلى دير سيّدة الشوف في مشموشة قرب جزّين، إلى دير مار انطونيوس في النبطية، إلى دير سيدة البشارة

في بلدة رميش... هذه جميعها كانت، في الوقت نفسه، مراكز عبادة وعمل، وقلاع عقيدة وثبات، ومنطلق رسالة حضاريّة ولقاء... يقول مارون عبّود: "لولا وجود الدير لَمْ تحلُ الإقامة للأهلين في قمم الجبال، ولولاهم (الرهبان) لم يُقم الناس براحة وطمأنينة، بل لم يجرؤوا على السكن في أماكن هي عرضة لهجمات الاعداء... ولولاهم لم يصل لبنان إلى حالته الحاضرة... وبفضلهم نمت القرى المجاورة إلى ان صارت جنّة أمن ورخاء ترفرف أطيار الامان والسلام فوقها وفوق جوارها... ".

قد يسهل علينا أن نتصوّر الدير بيت صلاة وعمل، كما يسهل علينا ان نتصوّره مصدر إشعاع روحيّ وعلميّ، لكنّنا لن نتصوّره بسهولة قلعة عقيدة ورائد رسالة، إلاّ إذا كان شعاره الخدمة العامّة المجرّدة، وسلاحه الحبّ والتضحية والحقيقة، كما تحقّق ذلك بالفعل على مدى تاريخ كنيستنا ورهبانيّتنا.

فالدير، في نظر الكنيسة المسيحيّة عمومًا، والكنيسة المارونيّة في نوع أخصّ، ليس حجارة تبنى فتدوم أكثر من بانيها، ولا هو غرسة تُزرع فتظلّل أجيالاً بعد غارسها. الدير حال تأمّل وصلاة واتحاد بالله، باعث نهضة وعمران، مولّد حضارة، عامل وحدة ولقاء، لأن الجميع فيه يتحوّلون اخوة بالمسيح، لذا طالب به المسيحيّ والماروني وأوقف له الأرزاق والممتلكات، كما طالب به الدرزي والمسلم واوقفا له الارزاق والممتلكات تقرّباً منه، ورغبة في الافادة من أمانته وحبّه

العمل والتضحية، وتعميمًا لأجواء النهضة والعمران التي كان يبعثها في محيطه. وليس ببعيد عنّا عهد عاش فيه أسلافنا الرهبان قرابة مئة وخمسين سنة شركاء مرابعة ومساقاة عند المشايخ والملاكين الكبار المسيحيين والمحمديين. لذا قامت القرى والضياع قرب الاديار وتفاعلت معها بربط وثيقة الصِّلات، فالدير والرهبان هما من الضيعة وإليها.

الدير والضيعة والمدينة

هذه الوحدة بينهما هي التي تحمّلنا اليوم مسؤوليات مستقبليّة وتثير فينا، إلى جانب الشعور بالقلق، فَيْضاً من الأسئلة: عن مستقبل الضيعة، بعدما صارت إلى ما هي عليه الآن، وعن مستقبل الدير قربها، عن رسالة القرية ورسالة الدير، عن تطوير الدير تطويراً للقرية. عن مدى نجاحنا في تجديد الأطر والاساليب القديمة مع الحفاظ على الجوهر والروح، عن قدرتنا على الدخول في منطق الاحداث الجديدة والسريعة التحوّل والدوران، وقد انتقل لبنان فجأة من المرحلة الزراعية القرويّة إلى غيرها من المراحل التي يمكن وصفها بالصناعيّة التجاريّة، السياحيّة بعض الاحيان والتي لا يمكن وصفها ولا نعتها بأيّ صفة لعدم وضوحها احيانًا أخرى.

واذا كان لا يزال لنا ملء الثقة بالحقيقة والغاية التي تكرّسنا لها،

فهلا يزال لنا وللأجيال المتعاقبة بعدنا ملء الثقة بالطرق والاساليب التي اعتمدناها للوصول إلى ما نحن عليه الآن؟

ولبنان المدينة، ما مدى تأثيرنا فيه؟ أوليس هو الآخر من نطاق رسالتنا العامّة الشاملة؟ ولماذا تندر، لا بل تكاد تموت، فيه الدعوات؟ ما مدى التفاعل بين المدينة والرهبانيّة، وبين الرهبانيّة اللبنانيّة في نوع خاص والمدينة الكسموبوليتيّة الجامعة الأديان والأجناس؟

نظرة مستقبليّة

أسئلة جمّة يثيرها فينا هذا اللقاء في هذا الدير بالذات، في قلب الرهبنة وقلب الشمال الحبيب، فتتفتّح امامنا آفاق جديدة وآمال وساع ومسؤوليات جسام، فالتاريخ كما الرهبانيّة، ليسا جعبة احداث ماضية واسماء دارسة، بل هما زخم مستقبلي. ممكنات بالقوّة تنتظرنا، تنتظركم لتتحقّق بالفعل على يدكم ويدنا، تنتظر الراهب القدّيس والمواطن اللبناني البطل الذي يعرف بان له من القوة والإيمان ما يجعله لا ان ينقل الجبال وحسب بل ان يغيّر التاريخ ويقوّم مسراه لخير الإنسان، كلّ إنسان.

ولكن قد تسطو الغيرة والأثرة على الدير، وتحمل اليه البغضاء، في مناسبات مظلمة من التاريخ، فتهدمه كما هُدم دير قرب العاصي، أو كما هُدمت أديار في الشمال والمتنين والشوفين، فلن نبكي تلك

الاديار أو نرثيها أو نشحن البغضاء لاستردادها بالعنف والقوّة، بل نبني غيرها مكانها أو بقربها، في يانوح وقنّوبين وبكركي والكسليك وغزير ورميش ...

كما يمكن ان يتخطّى الزمن والمدنية ومتطلّباتهما يانوح وقنّوبين وايليج والوديان المقدّسة جميعًا، فتُطوى هذه بدورها ويُبنى سواها في بكركي وفي أوستراليا وكندا والكسليك والبرازيل، ويفيد منها ابن الكنيسة في تطوره وتطلّعاته المستقبليّة أينما كان.

فالدير، كما الإنسان، كما المسيحية، في تخطّ دائم لذاته، وفي سباق مع الزمن والوعي والتطوّر، لان الهيكل في ضمير المسيحيّة تابع الإنسان لا الإِنسان تابع الهيكل، والمؤمن وحده، كما يقول الرسول بولس، هو هيكل الله، هيكل الروح القدس الحال فيه، وهو وحده يستحقّ ان يُضَحّى بكل شيء في سبيله.

قد يأتي يوم يهرم فيه هذا الدير أو ذاك أو يزول، ولكن لن يزول معه شيء من الهمّة والاندفاع في سبيل العقيدة والحقيقة والرسالة، بل يبقى الحنين إلى نشرها وتعميمها يدفع ويُلهِم، يوحي ويُلهِب، حتى يرجع الدير بحلّة زاهية مزدهرة، وروح جديدة بنّاءة كما هي الحال في هذا الدير وهذه المؤسّسة العلمية الزاهرة. فالأسلاف الذين بنوا الاديار ارادوها واحات لقاء ورجوع إلى الذات، يلتقي فيها من يشاء وجه ربّه ومسيحه على الارض.

***

خـــاتـــمـــة

أملنا ورجاؤنا في موعد الذكرى المئوية الثـالثة لتجديد أطر الحياة الروحيّة في رهبانيّـتنا، ان نوقظ فينا الايمان ونحيي الآمال فنوفّق، نحن حفـدة البناة الاولين، إلى إيجاد الاطر المناسبـة التي تسمح لمن يشاء، وفي أيٍّ مـرحلة من مراحل عـمره، كمـا كان ذلك شـائعا في الماضي، بأن يلتقي وجه الله ووجه اخيه الإنســان في آن معاً. فيعود إلى الدير المحدث، والى المؤسّسة الناهضــة من جديد، دورهما القديم في ترسـيخ الايمان ونشره، وفي بـعث الحضـارة والعمـران، وفي صـهر القلوب والافكار لاعادة بنيان لبنان، وطنًا للإنسان.

العلم والتعليم
في الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة(١)

مقدّمة عامّة

في انطواء المئة الثالثة وإطلالة المئة الرابعة لنشأة الرهبانيّة اللبنانية المارونية، يطيب لي، بل أرى من واجبي، إلقاء بعض أضواء على جانب هام من الجوانب التي التزمتها رهبانيّتي في مسيرتها الطويلة هذه التي تخللتها أحداث وأحداث حملت الكثير من الضنك والمشقات، والتي شقّت فيها دروباً عبر مسالك كثيراً ما كانت وعرة قاسية، فلم تهن عزيمتها ولا اعتراها خور ولا خنعت إزاء تضحية أو خطر.

---

(١) محاضرة أُلقيت في جامعة الروح القدس – الكسليك في مناسبة اليوبيل المئوي الثالث للرهبانيّة اللبنانية المارونيّة، ١٩٩٦.

هذا الجانب الذي أودّ معالجته وإن باقتضاب، يتمحور حول **«تطوّر النظرة إلى العلم والتعليم في الرهبانيّة»**.

الحياة الرهبانيّة ليسَت حالاً روحيّة متقدّمة وحسب، إنّما هي إلى ذلك حال فكريّة حضاريّة، ونضوج فكري واختمار روحي، تفضي بمن يعتنقها إلى ادراك كنه الاشياء، والتمييز بين ما هو عارض عابر، وبين ما هو ثابت لا يتغيّر. إنها دفع داخلي ينبع من الاعماق، وحدس باطني يُكسب معتنقها قوّة جديدة لفهم الأشياء على حقيقتها وتخطيها إلى ما يعتقده أفضل وأسمى. لذا دعا الآباءُ الأولون النسّاكَ الكبار «فلاسفةً» وأسموا، نهجهم «حكمة». فالإنسان لا يكون متقدّماً روحيًا ومتخلّفاً فكريًا في آنٍ معاً، لأنّ التقدّم الرّوحي يلازم حتمًا التطور الفكري.

والنضوج الفكري والاختمار الرّوحي، إلى انهما النتيجة الطبيعية لحياة التأمل وللجهد الشخصي في تحصيل العلم والثقافة، هما أيضاً مناخ عام يطبع بعض العصور والمجتمعات فتُعرف بعصور النهضة والانوار، إذ يطلّ علينا فيها مجدّدون ومستنيرون، فيبرزون بمواهبهم وعطاءاتهم وَيسِمُون عصرهم بطابع الخلق والإبداع.

من هذه العصور كان العصران السابع عشر والثامن عشر، بالنسبة إلى جبل لبنان والى مدينة حلب- الشهباء، حيث اختمرت وتبلورت فكرة تجديد الحياة الرّهبانيّة وتنظيمها في الكنيسة المارونيّة.

خلال هذه الحقبة من التاريخ، برزت مواهب واطلّت وجوه كان لها الأثر الكبير في النهضة الروحيّة والفكريّة، امثال البطريرك اسطفانوس الدويهي والشبّان الحلبيين الاربعة، تلامذة المعلّم بطرس التولاوي الشهير: عبدالله قرألي، يوسف البتن، جبرائيل حوّا وجبرائيل فرحات.

فالبطريرك الدويهي، العالم واللاهوتي والمؤرّخ، يختصر في شخصه المتعدّد المواهب نهضة روحيّة وفكريّة، بدأت في لبنان، في نهاية القرن السادس عشر مع الانفتاح على العالم بواسطة بعثات المرسلين إلى القدس ولبنان، وتطوّرت مع تركيز أول مطبعة في الشرق في دير مار انطونيوس قزحيا سنة ١٥٨٤، التي بدأ معها تاريخ الكتاب المطبوع، قبل مئتي سنة تقريبًا من حمل نابوليون مثيلتها إلى مصر سنة ١٧٩٨، ثم عمّت فوائدها بفضل افتتاح المدرسة المارونيّة في رومة سنة ١٥٨٤، وانتشار تلامذتها وخريجيها في الشرق والغرب.

أما الشبّان الحلبيون، فقد حملوا معهم إلى لبنان، بفضل تربيتهم الخاصة، تراث مدينة حلب، العاصمة الفكرية الكسموبوليتية، التي ورثت حضارة انطاكية وطموح مدرستها الكبرى، فازدهرت فيها المدارس الفكرية على أنواعها، وتنافس فيها رجال الفكر والعلم من كلّ مذهب وملة ودين.

هؤلاء جميعاً، كوّنوا النواة الاولى والاساس المتين للتنظيم الرهباني الجديد، الذي سوف يكون له الاثر الكبير في تطور الحياة

الروحـيــة والفكرية في لبنان والشــرق، لأن عـمــلاً بهذا المســتــوى الروحي، تلتقي حوله هذه النخـبة من المثقفين، يتميـّـز بالانفتاح على المعرفة والاقبال على اقتباس العلم، إلى جـانب اهتمامه الكبير بحياة التأمل والتزهد والتكرُّس لعبادة الله.

بغية الوصول إلى فهم أعـمق وادق لهذه «النقلة النوعية»، نحاول، في دراســتنا هذه، ان نرسم بايجاز كـلّي الخطوط الكبرى لما كـانت عليـه حال العلم والثـقـافة قـبل سنة ١٦٩٥، ثم بعـدها مع التنظيم الرهباني الجديد.

١ - العلم والثقافة قبل سنة ١٦٩٥

اعتُبرت الحـياة الرهبانيّة في الشرق، منذ العـصور الاولى، حياة صلاة وتأمّل دائمين يتـخلّلها العمل، ولا سـيّما العـمل اليدوي في الحـقول والمزارع، لأن المعـاطاة المبـاشرة مع الارض تقـرِّب من الله وتسهِّل فهم اسرار الطبيعة والخلق. يقول الا ب جيروم دنديني، في كلامــه على الرهبان: **«يتـصوَّر البـعض أن الفقـر، الذي سبّـبـَـه تعـسّف الاتراك، هو الذي الجـأهم إلى العــمل وحـراثة الارض، ولكنّني مــتأكّـد من أن هذا الامر هو نـتيـجة حـتمـية لنظامــهم وقوانينهم الأولى. . . فالحـبساء القدّيسون وخـدّام الله كانوا قد تعـودوا على العـمل اليـدوي، مـدة طويلة من النهـار، هربًا من**

البطالة وتحصيلاً لمعيشتهم بوسائلهم الخاصة...»[٢].

ولكن العمل في الارض لم يعكّر حياة التأمل، لأنهم أوكلوا الأشغال القاسية والتي تتطلّب المثابرة والوقت الطويل، «إلى عمّال يستخدمونهم لهذه الغاية».

هذه الاعمال اليدوية لم تقتصر على حراثة الارض، بل تعدتها إلى الاعمال اليدوية المختلفة التي كانت تمارس في القرى والارياف، من مثل تربية المواشي، وتربية دودة الحرير، وحياكة الاقمشة[٣] وجني المواسم الزراعية على انواعها. ويذكر الرّحالة جان دو لاروك، انه عندما زار دير السيدّة في قنوبين سنة ١٦٨٨، وجد ان القسم الاكبر من الرهبان كان خارج الدير منشغلاً بالقطاف[٤].

كان الراهب في صورة عامة يحتفظ بالمهنة التي اتقنها قبل دخوله الدير، فيمارسها في اوقات فراغه، مثل العمار والنحت والترميم... نقرأ في مذكّرات الدويهي أن الراهب جورج حرواص رمَّمَ دير مار اليشع في الوادي المقدس سنة ١٥٣٢، كذلك الراهب جورج الاميوني رمَّم كنيسة دير مار شليطا في السنة نفسها [٥].

(٢) جيروم دنديني، «رحلة الى جبل لبنان»، الفصل العشرون، في العلوم والرتب، شازانة، ١٦٧٥، ص ٩٤.

(٣) الدويهي، المذكّرات، ص ١٩١.

(٤) Jean DE LA ROQUE, *Voyage de Syrie et du Mont-Liban*, Beyrouth, 1981, p. 20.

(٥) الدويهي، المذكّرات، ص ٣٤٣.

يضـاف إلى هذه الاعـمـال اليدوية الـصرف، نوع من الاعـمـال الاخـرى التي تتطلّب مقـدارًا اكبـر من المعـرفة و الدربة مـثل نسخ المخطوطات وتجليدها، وجمع الاولاد وتعليـمهم المبادئ الاولى، قرب الدير أو في ظل السنديانة. يذكر الدويهي في مذكراته، لسنة ١٤٩١، ان الكاهن جـورج الاهدني رئيس دير مار انطونـيوس قـزحيـا، «قد نَسخ الكتب السريانيّة الديـنيّة» كذلك الراهب جبرائيل بن ستـيتات، الذي اصبح رئيساً لدير قزحيا سنة ١٥٤٤، «لم يتوقف، في كلّ مدّة رئاسـته، عن نسـخ الكتب الدينيـة، وان الكتب التي نسـخهـا بخطه الجمـيل كانت مشـهورة في جمـيع انحاء الجبل اللبـناني. لقد اغنى كنيسة اجداده، في اهدن، بكل ما يرغب به القارئ المتخصص لخدمة الله»[٦].

كان الـتعليم والوعظ إجـمالا من الامـور النادرة لا بالنسبـة إلى الرهبان فـحسب، بل بالنسبـة إلى الكهنة خدمة الرعـايا أيضًا. وفي هذا النص للمرسل البابوي الأب جيـروم دنديني صورة صـادقة عن حال العلم عندنا في نهاية القرن الـسادس عشر. قال: «**حتى الكهنة خـدمة الرعـايا، هم ايضـاً كانوا جـهلة كـالشـعب البسـيط، لا يعرفون إلا القراءة والكتابة**، وكانوا يـُعـْتَبرون بينهم الاكثر علماً ومعـرفة. فـبالاضافـة إلى اللغة العـربية، لغتـهم الام، عندهم بعض الالمام بالكلدانيـة (السـريانيّة)، وهـي لهم كـاللاتينيـة لنا، **لا يوجد بينهم إلا ثلاثة أو اربـعة رجـعـوا مـؤخراً مـن روما يعـرفـون**

[٦] الدويهي، المذكّرات، ص ١٦٣.

الفلسفة واللاهوت، ولكن سنعمل، بعون الله، ليزداد عدد هؤلاء بالانصباب، بجهدٍ أعظم، على تعليمهم في المعهد الذي تأسّس لهم في روما. وهذ امر ضروري لهذه الخدمة. **لم يتعرّفوا**، كما في الشرق عامة، إلى ضرورة **للطبعة** وما توفره من سهولة وراحة في طباعة الكتب ونشرها. ولكن، ربما كان في ذلك خير كبير لهذه الامة وللمسيحيّة عامّة، **لأنه لم يوجد بعد عندهم علماء**، ولأن باقي المشرق مملوء بالاتراك واليهود والارمن والنساطرة واليعاقبة... وغيرهم من الشيع حتى لا تكثر وتتعدّد الكتب السيئة بواسطة الطباعة... يخطّون كتبهم باليد، ومع أن هذا الامر لا يخلو من المخاطر، لأن النسّاخ يمكن أن يزيدوا ويحرّفوا على هواهم، ولكن، بما أن هذا الأمر يتطلّب وقتًا وجهدًا، وبما أن الكتبة قليلون، فلا مجال للخوف كثيراً من هذا القبيل... يستخدمون الغزّار للكتابة لأن ليس عندهم عادة استعمال ريش الوز والعصافير. لا يقرأون مثلنا من الشمال إلى اليمين ولكن من اليمين إلى اليسار على طريقة اليهود. يبدأون الكتاب مثل اليهود حيث ننتهي نحن، ولكنهم لا يكتبون مثلهم، اي من اليمين إلى الشمال، بل يقلبون الورقة على جانبها ثم يكتبون بالعرض... »(٧).

هذه كانت حال العلم والثقافة في لبنان عمومًا، وفي الوسط الرهباني في نوع خاص. وهي نتيجة حتمية لاجيال من العزلة

(٧) جروم دنديني، «رحلة الى جبل لبنان»، الفصل العشرون، في العلوم والكتب، شازانة، ١٦٧٥، ص ٩٥ – ٩٦ .

والفقـر والهرب من التعـسُّف والظلم، على أثر انكفاء الصليـبيين عن هذه المنطـقـة واشـتـداد سـطوة المماليك، حين ألجـئ الموارنة إلى التحصّن من جديد بالطبيعة، والعـيش في الوديان السحيقة والجبال العصـيّة، يأوون إلى المغاور والكهوف، كـما نعلم من التاريخ وكـما اثبـتت ذلك الاكتـشافـات الاثرية الاخيـرة، في «عاصـي الحـدث»[٨] وحوقـا وغيـرهما من المعاقل الآمـنة، حيث تحجّـرت، لا معـارفهم فحسب، بل واجـسادهم، ومع ذلك، لم تهن عزيمتـهم، ولا تراجعوا عن ايمانهم ومعتقدهم.

ما عسـاها تكون حالهم الفكرية بعدما زال حكم المـماليك، وخفّت سطوة العـثـمـانيين، بفـضل تدخل الغـرب وابـرام المعـاهدات مع الامبراطورية العثمانيـة، وأهمّها نظام الحماية أو ما دعي خطأً نظام الامتيازات (التنظيمات)، مع فرنسوا الأول ملك فرنسة سنة ١٥٣٥؟

مـا عسـاها تكون الحـال مع التنظيم الرهبـاني الجديد، أو بعـده مباشرة؟ هل حصل تغيـير جذري ام تطوّر تدريجي؟ ماذا كان تأثير البطريرك اسطفانوس الدويهي، والمجددين؟

٢ - العلم والثقافة بعد سنة ١٦٩٥

من الثابت والاكـيد ان المجدّدين ركّـزوا في اصلاحهم على حـياة

---

(٨) Voir, Momie du Liban, Paris, 1994.

التأمّل، فاعتبروها النقطة المحورية في عملهم الاصلاحي. فلا مجال، بالنسبة اليهم، لأي نشاط أو عمل قد يقف حائلاً دون نموها وتطورها.

ولكنّ حياة التأمّل في الجماعات الرهبانيّة المنظّمة هي غيرها في الحياة النسكية المنفردة. ففي الجماعة الديرية، يقتضي أن يكون الراهب المنتظم، والمقيّد بطاعة الرئيس، مستعداً لأكثر من احتمال رسولي. والتوجه الرسولي نحو الجماعة الديرية، أو نحو المجتمع المحيط، يظلُّ ناقصاً إذا لم يستند إلى العلم والمعرفة. انه عطاء من الذات، والعطاء فيض مما اختزنه الإنسان في ذاته من علم ومعرفة واختبار.

ممّا لا شك فيه ان المجدّدين افردوا للعلم والثقافة مكاناً مميزاً في اصلاحهم، لكنهم لم يدوّنوا ذلك صراحة في قانون. لأنهم، هم انفسهم، لم يكونوا قد استقرّوا على فكرة ثابتة: فالرئيس العام الاول، جبرائيل حوّا، يسانده البطريرك الدويهي، كان يميل إلى حياة الرسالة والانفتاح على المجتمع، بينما الاب عبد الله قرألي كان يرغب في حياة التأمّل والعمل من ضمن الدير أو في جواره. يقول البطريرك الدويهي: «ان ولدنا القس جبرائيل قاصد التبشير وخلاص الانفس، وولدنا القس عبدالله قاصد عيشة النسك والرياضة»[٩]. لذا سوف تكون البدايات مضطربة مترجرجة،

[٩] قرألي، «بدايات الرهبانيّة اللبنانيّة»، مذكرات الاب عبدالله قرألي، الكسليك، ١٩٨٨، ص ٤٣.

بالنسبة إلى هذه النقطة بالذات، ولن يشرّع لها بقانون الا بعد مدة أو بعد مرحلة اختبار.

بدأ الاهتمام بتعليم الاولاد خلال صيف سنة ١٦٩٦، بناءً على إلحاح المحيط، وبالحصر بناءً على طلب اهالي بلدتي زغرتا وبشري. وكان الاب جبرائيل حوّا قد تعيَّن رئيسًا. يقول الاب عبدالله قرألي في مذكراته: «في صيف هذه السنة (١٦٩٦) **طلب منا اهالي اهدن ان نعلّم اولادهم القراءة، ولأجل اصلاح احوال الدير، رتَّبني الرئيس ان اعلّمهم ناحية الدير**.. ولما صار الشتاء، ونَزَلَت اهالي اهدن تشتي في قرية زغرتا كالعادة، **أمرني الرئيس أن أنزل معهم وأعلّم الأولاد في مدرسة مار يوسف الكائنة في زغرتا**، وكان يومئذ ابتدأ بنيانها. ونزلت الرهبان تشتي في دير مار ليشع[١٠] ... ولما دخلت سنة ١٦٩٧ صعد الرهبان إلى دير "مارت موره" في بدء الربيع، وصعدت أنا أيضاً إليه، وبقيت الصيف كلّه أعلّم الأولاد في الدير ... ». وفي موضع آخر من هذا الفصل يقول: «وفي هذا الشتاء أرسل الأب الرئيس آخر غيري ليعلّم الأولاد في زغرتا ونزلت أنا مع الاخوة إلى دير مار ليشع[١١] ... ».

نستخلص من هذا النص بعض الأفكار التي تهمّ الموضوع:

أولاً: إن المجدّدين بدأوا تعليم الأولاد منذ السنة الثانية للتأسيس.

---

(١٠) قرألي، مذكرات، ص ٣٠ – ٣١.

(١١) قرألي، مذكرات، ص ٣٢.

ثانياً: انهم كانوا يُعلّمون حيث تسمح لهم الظروف، داخل الدير أو خارجه.

ثالثاً: ان الرئيس الأب جبرائيل حوّا قد امر الاب عبدالله قرألي بالنزول مع الاهالي إلى قرية زغرتا حيث لا دير ولا جمهور رهباني. اما الرهبان، فقد قصدوا دير مار اليشاع لقضاء فصل الشتاء.

رابعاً: هذه التطوّرات حصلت زمن رئاسة الأب جبرائيل حوّا المعروف بميوله إلى حياة النشاط والرسالة.

خامساً: لقد وجد الرهبان انفسهم مضطرين إلى خدمة المحيط وتعليم الأولاد، إمّا لتحصيل معاشهم وإصلاح أحوال الدير أو تلبية لإلحاح الأهالي، حتى لو اقاموا خارج الدير وبعيدًا عن جمهور الاخوة، شرط ان يكون العمل بأمر من الاب الرئيس، وألا تُعكّر هذه الممارسات حياة التأمّل التي هي الهدف الاساسي لتجديد الحياة الرهبانيّة.

هذه الممارسات سوف تستمرّ حتّى سنة ١٧٠٠، أي حتّى نهاية رئاسة الأب جبرائيل حوّا، وتعيين الأب عبدالله قرألي رئيسًا جديدًا على الرهبنة، وتثبيت القوانين الخمسة عشر على يد البطريرك اسطفانوس الدويهي.

٣ - العلم والثقافة في نظر القوانين الجديدة

ركّزت القوانين بصورة اساسية على حياة التأمّل ولم تفرد للعلم والثقافة أي باب خاص بهما، بل أتت على ذكرهما كاهتمامات ثانوية في معرض الكلام على نذري الطاعة والعفّة، في البابين الأوّل والثاني.

هذا الموقف بقي على حاله من دون تغيير في قوانين سنة ١٧٠٠، كما في التعديلين اللذين أُجريا، سنتي ١٧٢٥ و ١٧٣٢، وشروحات الأب عبدالله قرألي، في كتاب «**المصباح الرهباني**»، الذي أنجزه سنة ١٧٢١:

- في البند السابع، من الباب الأوّل «في الطاعة»، يحظّر القانون على الراهب أن «يُفَسِّر أو يُصَنِّف أو يعظ أو يُعَلِّم من دون اذن الرئيس».

- كذلك في البند الرابع من الباب الثاني: «في العفّة» يُذَكِّر بان على الراهب أن «لا يساكن صبياً، وإن قصد الراهب التعليم فناحية عن الدير».

- أما الأب قرألي، فيقول في «المصباح الرهباني»، في «شرح القانون اللبناني»: «**ان قَصَد الراهب التعليم، اي تعليم الصبيان، فناحية عن الدير. فالظاهر ان هذا التعليم ليس هو غرض القانون لأنه لم يقل: ان التعليم كذا وكذا، بل قال إن قَصَد الراهب**

التـعليم، اي ان دعت الحـاجـة إليه، لإصـلاح حـال الجـمهـور، فمسمـوح به، لكن ناحيةً عن الدير...». ثمّ يضيف «كذلك تعليم الصبيان لا يكون إلا للضرورة، ويكـون معلّمهم كفوءاً لذلك، ولا يكن وحده...». ثمّ ينهي كـلامه برأي شـخصي، فـيقـول: **«واني لارغب ألا يكون هذا التعليم في ديارتنا ابـداً، وان صار لضرورة اوجبت ذلك، فليكن، كقول القانون، ناحية عن الدير».**

من هذه النصـوص نستـنتج ان النشاط الثـقـافي، مثل التـأليف والتـفسـير والعلم والوعظ كـان مسـموحـاً به، لأن القانون ذكـرها كنشاطٍ رهبانيٍّ لا يتنافى مع حياة التأمل، كما ان قرألي رغب في ان يكون المعلّم صـاحب كـفاية ومـتـقناً. ولكن العمـل العلمي، في نظر القانون، يبقى نشـاطًا ثانويًا، لم يُرَد لأجل ذاته، ومن الضروري أن يُمارَس خارج الدير، لئلا يُعكِّر صفاءَ الخلوة.

إن القانون لم يقـصد التعليم مـباشرة، بل فـرضته الحـاجة والضرورة، والرهبنة لم تكن يوماً غريبة عن حاجات مجتمعها. لقد وضعت ذاتهـا، منذ التأسيس، في خدمـة مجتمـعها. لذا قال الاب قرألي في تفـسير القـانون، هذه ليست **«غَرَضَ القانون»، اما غرضُ القانون، فهو التأمّل والرسوخ في الفضائل.** لهذه الاسباب ذكر القانون النشاط الثقافي في بابي الطاعـة والعفّة، وبعد استئذان الرئيس الذي يحكم في صـوابيـة الحاجـة والضـرورة، وان يتمـتّع المعلم بالكفاية علمًا وخلقًا ومثالية.

إنطلاقًا من هذا الموقف القانوني، ومن الاستعداد الدائم للخدمة، سوف يعمد رهبان النظام الجديد إلى تسلُّم مدارس قائمة أو إلى إنشاء مدارس جديدة قرب الأديار، بناءً على طلب الأهالي وإلحاحهم، في لبنان أو خارج لبنان، حيث توجد جماعات مارونيّة وحيث تدعو الحاجة. وإليكم المدارس المنشأة مع تواريخ تأسيسها:

أولاً : مدرسة سيدة اللويزة في ذوق مصبح

يقول بليبل: «في مدخل سنة ١٧٠٧، استلم الأب العام عبدالله قرألي دير سيِّدة اللويزة من الشيخ سلهب الحاقلاني... في قرية ذوق مصبح... اكملت الرهبنة عمار هذا الدير... وفتحت فيه مدرسة لتعليم الاحداث، وهو الدير الرابع من اديارها. واسندت رئاسته إلى الأب اروتين الحلبي، وكان رجلاً عابدًا عاملاً حكيمًا ضليعًا باللغة السريانية وحاذقاً بصناعة الخط العربي والسرياني»[١٢].

ثانيًا : مدرسة دير مار الياس غزير

هذه المدرسة لم تتحقّق بالفعل، بل بقيت مطلباً تقدّم به قسم من

[١٢] بليبل، الجزء الاول، ص٥٢ – ٥٣ .

أهالي غزير، بواسطة نسيبهم الاب يعـقوب، الذي كان قد انفصل عن القس جبرائيل حوّا، وتبع الرئيس العام الجـديد عبدالله قرألي. فالأب يعقوب المذكور تقدّم، باسم اقاربه، يطلب راهباً ليعلّم الأولاد في بلدة غزير، «لقـاء ان يعطونا ديرهم المعـروف بدير مار اليـاس... وإنْ ما طاوعْتُه يَـتْـركني ويلحق بالقس جبرائيل حـوّا وهكذا صار... بعدها ذهب لعند السـيد البطريرك واعلمـه بما كان وكـيف في نيـته، ولأن البطريرك كان يحبّ الأب جـبرائيل كثيرًا، سـمح له بالمضـي اليه...». أخيـراً ندم على فعلتـه هذه ورجع وأصبح أوّل رئيس عـلى دير مار يوحنا رشميا[١٣] ...

نذكر هذا الحادث هنا لنَستخلص منه أمرين:

١) إن رهبان النظام الجـديد، كانوا معـروفين في الوسط اللبناني بتعاطيهم الشأن الثقافي التعليمي واستعدادهم للخدمة المجانيّة.

٢) إن الرئيس العام وأعضاء السلطة الجديدة كانوا يرفضون كلّ طلب، مهما كان ملحًا، إذا لم تتـوافر له الشروط اللازمة للحفاظ على الجو الرهباني.

---

(١٣) بليبل، الجزء الاول، ص٥١.

ثالثًا : مدارس في أماكن مختلفة

يظهر ان مدارس الأديار تكاثرت والطلبات تكرّرت ولم تكن وقفًا على منطقة أو ناحية. ففي الأوراق العائدة إلى هذه الفترة، خصوصًا إلى سنة ١٧٢٩، وهي كثيرة ومليئة بالاحداث، نتوقّف عند رسالتين:

الأولى: من النائب العام الأب جرجس قشوع إلى الرئيس العام الأب مخايل اسكندر، المنتخب حديثًا والموجود في رومة، يطلب فيها «أن يرسل لهم كراريس سريانية مطبوعة لتعليم الأولاد في مدارس الرهبنة: مدرسة دير اللويزة ومار ليشع وطاميش ورشميا ومار بطرس (كريم التين) وشويا، ويخبره ان البكافنة (اهل بكفيا) يلحّون عليه كثيراً لينشئ مدرسة عندهم، وحتّى الآن لم يعلم كيف يقرّر هذا الأمر[١٤]...» .

الثانية: رفعها الآباء المدبّرون إلى الرئيس العام الأب مخايل اسكندر، في السنة نفسها ، يذكرون في ختامها ان مدارس الرهبنة في أديار اللويزة وطاميش ورشميا وبشري وكريم التين في نجاح عظيم، إنما أهالي بكفيا وبيت شباب يطلبون بالحاح كثير ان تنشئ الرهبانيّة مدرستين في قريتيهم، وانهم حتّى الآن لم يقرّروا شيئًا[١٥].

---

[١٤] بليبل ،الجزء الاول، ص ١٥٩.

[١٥] بليبل، الجزء الاول، ص ١٦٧ .

رابعًا : مدرسة مار أنطونيوس سير

في الخامس والعشرين من شهر تموز سنة ١٧٣٥، تسلّمت الرهبانيّة من جديد دير مار أنطونيوس سير، بعدما تركته مدّة سبع وعشرين سنة، ثمّ جدّدت بناءه وبناء كنيسته... وفتحت فيه مدرسة لتعليم أولاد القرى المجاورة له[١٦].

خامسًا : مدرسة سيّدة الشوف في مشموشة

وفي سنة ١٧٣٦، اشترت الرهبنة دير سيّدة مشموشة من مؤسّسه المطران سمعان عواد... ثمّ فتحت فيه مدرسة لتعليم الأحداث، وهو أوّل أديار الرهبنة في إيالة صيدا[١٧].

سادسًا : مدرسة رسالة الرّهبانيّة في جزيرة قبرص، سنة ١٧٣٥

لم تقتصر تلبية حاجات الموارنة على لبنان وحده، بل تعدّته إلى جزيرة قبرص، حيث يقيم اكثر من أربعين الف ماروني موزّعين على

(١٦) بليبل، الجزء الاول، ص ٢٣٩ و ٢٤٢.

(١٧) بليبل، الجزء الاول، ص ٢٣٩و ٢٤٢.

نحو عـشرين قرية، كمـا ذكر جيـروم دنديني في وصف رحلته إلى قبرص ولبنان.

فـفي سنـة ١٧٣٥، بعث الاب العـام مـخـايـل اسكندر إلى الاب اندراوس القبرصي، ترجمان المجـمع المقدس، جواباً على رسالة كان قـد طلب فـيهـا الاب اندراوس من الرئيس الـعام ان «يرسل بـعثـة رهبانيّـة سنوية للعون الروحي والارشـاد»، وخصّص لهـذه الغاية مـبلغ عـشرين قـرشًـا سنويًا. يقـول الرئيس العـام: «لأجل نيـتكم الصالحة قد حرّكنا ربّنا إلى عـمل آخر احسن واثبت من الرسالة كلّ سنة... إننا اعتمدنا اعتمادًا كليًا وارسلنا اثنين من رهباننا إلى جزيرة قبـرص، وهما ابونا بطرس المصـور ومعـه رفيقـه القس مكاريوس العـشـقوتـي، وأوجبنـا على المذكـورين ان يفتـحـا مـدرسـة للعلم الروحـاني والـقـراءة للاولاد الذين يجـمـعـوهم من كلّ الـضـيع والمواضع التي فيـها مـاروني... حتّى يصيـر خير لكـلّ الطائفة في قبـرص، قلنا لهمـا ان يجمـعا الاولاد الذين يريدوا ان يتـعلّموا، وان يجـولا أيضـاً في القـرى البـعـيـدة في كلّ مـدَّة، ويعلّمـا ويرشـدا المسيحـيين على قدر قوتهمـا ومعرفتـهما، وقصدنا بـعد هذا حسب التوفيق وعناية الـله. وان رأينا لنا قوّة، وكان لنا مساعـدة واسعاف من أهل الخير والغيرة على خلاص الأنفس، والشفوقين على الطائفة في قبرص الذين قرُب اندثارهم دون ريب، اذا لم يصر لهم سعفة وتعليم بالروحانيات، اننا نفتح ديرًا لرهباننا وبذلك يصـير الخير اكـثر واثبـت. هذا قصـدنا ان اراد اللّه ووفّـقنا ...والآباء المذكـورين

سافروا إلى قبرص من شهرين وكسور قبل تاريخه. وان سألتنا من اين يكون معاشهما لأن اهل قبرص فقراء، فنجيب اولاً، لما نظرنا ضرورة العمل في قبرص اتكلنا على الله وارسلناهما واعطيناهما خرجيتهما من مال الرهبنة الفقيرة، نحو ستين قرشاً فوق المبلغ اللازم لسفرهما. وقلنا ان العارف بالنوايا والمقاصد هو يدبر، واوصيناهما ايضاً ان الولد الذي يقدرون اهله ان يبعثوا له مؤنته، مليح، **واما الفقير الذي ليس لاهله قوة ومقدرة ان يعولوه اطعماه من الرغيف الذي يرزقكما الله اياه**. والرجاء بالّله الجوّاد وغيرة اهل الخير: «ان الله ما بيقطعها». **انه يصير خير من هذه المدرسة اكثر من مدرسة عينطورة**. هذا مختصر اخباري لحضرتكم فبقي المأمول من همّتكم ان تسعوا وتتكلّموا بمساعدة هذه المدرسة واثباتها..»[١٨] .

هذه الرسالة، في حدّ ذاتها، تعبّر أصدق تعبير عن حال الطائفة في قبرص، وعن استعداد الرهبنة النفسي الكامل للخدمة والتضحية في سبيل اداء رسالة المسيح التعليمية.

ولم تكد تمضي اشهر معدودة على افتتاح رسالة الرهبانيّة في قبرص، حتى تكلّلت هذه المرحلة بانعقاد المجمع اللبناني في دير سيدة اللويزة، في الثلاثين من شهر ايلول سنة ١٧٣٦.

هذا المجمع كان رائداً في التجديد والتحديث، على رغم ما شابه

[١٨] بليبل، الجزء الاول ص ٢٢ - ٢٢١.

من هنات. وقد تعاون على تحقيقه وانجاحه قوى ثلاث: الكنيسة المارونيّة ببطريركها واساقفتها، والقصادة الرسوليّة ممثلة بالموفد البابوي السيد يوسف سمعان السمعاني، **والرهبنّة اللبنانيّة التي جرّدت للخدمة كلّ طاقاتها الروحيّة، وإمكاناتها الماديّة والمعنويّة والخدمية، بتوجيه مباشر من رئيسها العام الاب توما اللبودي، ومن مطران بيروت عبدالله قرألي، أحد ابرز مجددي نظامها.**

هذا المجمع اخذ على عاتقه تعزيز شأن العلم والثقافة، وان يشرّع للكنيسة المارونيّة جمعاء ما كانت الرهبنة اللبنانيّة قد بدأت تحقيقه.

٤ - المجمع اللبناني، ٣٠ ايلول - ٢ تشرين الاول ١٧٣٦

انعقد هذا المجمع في الثلاثين من ايلول سنة ١٧٣٦ في دير سيدة اللويزة في ذوق مصبح، وهو الدير الرابع من اديار الرهبانيّة، حيث افتتحت المدرسة الاولى.

من هذا الدير «ناشد آباء المجمع بأحشاء يسوع المسيح، كلاً من المتولّين رئاسة الأبرشيات والمدن والقرى والأديار جملة وأفراداً، ان يتعاونوا ويتضافروا على ترويج هذا العمل الكبير الفائدة... **فيُعنُون أولاً بنصب معلّم حيث لا يوجد معلّم، ويدونون**

اسمـاء الاحداث الذين هم اهل لاقـتباس العلم، ويـأمرون آبائهم بأن يسـوقوهم إلى المدرسـة ولو مكرهين. وإن كـانوا ايتامـاً أو فقراء فلتـقدّم لهم الكنيسة أو الـدير ضرورات القوت، وفي حالة تعذُّر الكنيـسة أو الدير ان يجمع لهم، في كلّ يوم أحد، مـن صدقات المؤمنين مـا يفي بمعـاشهم اجـرة المعلّم فـيـترتب، جـزءٌ منهـا على الكنيسة أو الدير، شرط ان لا يكون المـعلّم راهباً من رهبانه، والجزء الآخر يقوم بدفعه آباء الاولاد...»[١٩].

يذكّرنا هذا النص المجمعي، برسالة الأب العام مخايل اسكندر إلى الخوري اندراوس اسكندر، في شأن رسالة جـزيرة قبرص، وكأنها من وحيٍ واحد. وإثبـاتًا لهذه القرابة بين النصين، وجّـه آباء المجمع في الفـصل نفـسه شكراً إلى الخـوري اندراوس «لأنه وقف راتبًـا مـعـيّنًا على كلّ راهب يعنـى في إنشـاء مدرسـة هنـاك لأجل تعليم الاحداث، أو في ممارسة اعمال الرسالات المقدسة في تلك القرى "... **وطلبوا من مطران قبرص طوبيا الخازن، الراهب اللبناني سابقاً «أن يهتمّ بالمدرسـة والرسالة الموكولتين لعناية أبنائنا الأحـبّاء رهبان القديس أنطونيوس الكبير اللبنانيين»**[٢٠].

كمـا اعلنوا في العـدد الخامس من الفـصل نفسـه، «في الدروس والمدارس»، عن رغـبتـهم في أن يثـابر رهبان الـقديس انطونيـوس اللبنانيين على عـملهم الحمـيد، بأن يفـتتحـوا المدارس في اديارهم،

[١٩] «المجمع اللبناني»، جونية، سنة ١٩٠٠، ص ٥٢٩ – ٥٣٠.

[٢٠] «المجمع اللبناني»، ص ٥٥٠.

فيتولّى فيها تعليم الشباب، بحسب النظام الموضوع آنفاً، اولئك الرهبان الذين اقتبسوا العلوم في دير روما العظمى...»[٢١]. كما يسمحون للاسقف «أن يسلّم إلى الرهبان مدرسة في القرى على وجه الاستمرار أو في المدينة إلى أجل مسمّى»[٢٢].

لم يكتفِ هذا المجمع بالدعوة إلى تأسيس المدارس، **بل اهتمّ أيضًا بوضع اسس التعليم الالزامي والمجاني، كما اوصى بتعليم البنات في الاديار،** ذاك أن قانون الكنيسة يرسم «ان البنات المهذّبات في الأديار يجب أن تقترن تربيتهنّ بروح التقوى وبلوغ الغاية من الاجتهاد والسهر مخافة انهنّ، اذا قضين عمرهنّ النازع إلى الملاذ، خلوًا من أدب، عزّ عليهن فيما بعد الاستصلاح أو امتنع. وعليه فَلْيُعيَّن لهنّ راهبات فاضلات يتحوطنهنّ بعناية لا يبقي لهنّ معها ندحة للتجوّل هنا وهناك...».

وبعد ما استفاض المجمع في الكلام على المدارس القديمة، في الاسكندرية وانطاكية والرها... أمر المعلّمين، الذين يُنَصِّبهم الاساقفة

---

[٢١] «المجمع اللبناني»، ص ٥٣٨؛ لم نأتِ على ذكر هذه المدرسة في كلامنا على تطوّر نظرة الرهبانيّة الى العلم والثقافة، لأنها لم تنشأ في لبنان ومن تطور طبيعي، بل أنعم بها على الرهبنة البابا اكلمنت الثاني عشر ببراءة رسولية صادرة بتاريخ ١٤ تموز ١٧٣٢. ولكننا نعترف بأن هذه المدرسة كان لها الاثر الفعّال في اعداد الرهبان للتعليم، فهي، من هذا القبيل شبيهة بالمدرسة المارونيّة الرومانيّة التي أنشئت سنة ١٥٨٤ لاستقبال الاكليريكيين الموارنة (راجع بليبل ص ١٠٠ – ١١١؛ ٢٠٣ – ٢٠٨).

[٢٢] «المجمع اللبناني»، ص ٤٦٦.

ورؤساء الاديار، ان يرعوا النظام التعليمي العام، فيعلموا الاحداث في المدارس بحسب هذا البرنامج:

أولاً: " القراءة والكتابة، في السريانية والعربية، ثمّ المزامير، ثمّ كتاب خدمة القداس والفرض اليومي والعهد الجديد" .

ثانياً: " ثمّ إذا توسّموا في بعضهم الأهلية لتحصيل العلوم، فليعلموهم: قواعد الصرف والنحو، في السريانية والعربية. **ليعنوا بتدريس احوال اللغة العربية، التي احكم وضعها الطيّب الذكر جبرائيل فرحات،** رئيس اساقفة حلب، ايام كان راهبًا في رهبانيّة القديس أنطونيوس اللبنانية، وان يطالع الطلبة ديوان اشعاره وغيره من مصنّفاته نثراً ونظماً، ذلك ليشربوا في قلوبهم حبّ التقى مع العلم وصفوة اللغة العربية»[٢٣].

ثالثاً: " ليعلّموهم علم اللحن والحساب البيعي، ثمّ يرقّوهم إلى درس العلوم العالية، اي الفصاحة والنظم والفلسفة والمساحة والحساب وعلم الفلك، وما أشبه من الرياضيات ثمّ مبادئ الحق القانوني، وتفسير الكتاب المقدّس، واللاهوت الاعتقادي والأدبي " ...

هذا البرنامج التعليمي الجامع سوف تعمل بموجبه كلّ المدارس التي نشأت بعد المجمع اللبناني من دون استثناء. أمّا تلك التي نشأت قبل المجمع، فإنها كانت تتبع النظام التعليمي القديم، أي القراءة والكتابة في اللغتين السريانيّة والعربيّة، ثم بعض الكتب

---

[٢٣] «المجمع اللبناني»، ص ٥٥١.

المتوافرة مثل كتاب المزامير، وكتاب خدمة القداس، والفرض اليومي، وكتاب العهد الجديد، ثم بعض مبادئ الحساب. وهذه المدارس بدورها سوف تتبع المنهج الجديد لأنه كان، بالنسبة إلى العصر والمحيط، حدثًا علميًا فريدًا، كما كان المجمع اللبناني بدوره «الحدث الأهمّ في تاريخ الكنيسة المارونية، في القرن الثامن عشر»، على حدّ قول مؤرّخ الرهبانيّة، الأب لويس بليبل[٢٤]. ودوره الكبير ان يوحي ويلهم، ان يثير الهمم ويدعو إلى التنافس، قبل ان يصبح واقعًا ملموسًا.وقد يقال عنه انه كان دخيلاً على كنيستنا.

هذا الحكم ينطوي على نصف الحقيقة. اما نصفها الثاني، فهو ان هذا الجزء من الارض، الجامع بين القارات الثلاث: آسية وافريقية واوروبة، نَعِمَ، منذ القِدَم، بحضارة انتقائية تأخذ حيث تستسيغ الاخذ، ثم تتمثّله في ذاتها، ثم تعطيه الآخرين نتاجًا فريدًا.

فالمجمع اللبناني لم يولد بطريقة عفوية مفاجئة، بل سبقته مرحلة طويلة من التحضير والاعداد، من التثاقف والتفاعل بين الشرق والغرب. لقد أتى نتيجة تعاون بين القوى الفاعلة الحية داخل البلاد وخارجها، **والرهبنة اللبنانية الناشئة كانت احدى هذه القوى الحيّة، لانها عرفت منذ اللحظة الاولى، ان تفرض ذاتها اداة أساسيّة للتغيير والتجديد.** يقول السمعاني، مخاطباً الرهبان، في مقدّمة كتاب القانون: «اما انتم ايها الآباء المكرّمون، فان الله قد

[٢٤] بليبل، الجزء الاول، ص ٢٣٨.

انتخبكم... لكي تجدّدوا باعمـالكم ونظامكم السيرة الرهبانيّة. فلذلك ما قنعتم بالسلـوك الحسن السالكين فيه اخـوتكم المعاصرون لكم... ولكن اعتمـدتم ان تزدادوا عليهم فضلاً وتزيلوا عن الرهبانيـة ما قد دخل فـيـهـا رويداً رويداً، بعـد تغلّب الأمم على بلدانكـم، وتكمّلوها بالقوانين الابوية، وتزينوها علمًـا وعملاً مقتـدين بآثار الآباء القدماء الشرقيين... مقتفين امثال الغربيين المتجددين...»[٢٥].

٥ – النشـاط الثقافي، بعـد المجمع، يأخـذ منحًى رسوليًا

عندما ختم المجـمع اللبناني أعماله، كان عدد تلامذة الرهبـانيّة قد تعدّى الثلاثمـئة طالـب[٢٦]، وهـو عدد كـبـيـر بالنسـبة إلى ظروف الزمان والمكان، وان دلّ على شيء، فـعلى اندفاع المؤسّسـة الجديدة وعلى تجـاوب المجتـمع معـها. اندفـاع وتجاوب، **تعضـدهما روح رسولية مسؤولة**، تكاثرت بفعلها المدارس وتعددت، في لبنان وفي البلدان المجاورة، بتـصميم رسولي كـان لتوجيهـات السمعاني فـيه الاثر الكبير. وهذه ظروف تأسيس بعض هذه المدارس:

– **مدرسـة جزيرة قبرص الثـانية**، سنة ١٧٣٧. مبـاشرة بعد

[٢٥] بليبل، الجزء الاول، ص٢٧.

[٢٦] بليبل، الجزء الاول، ص٢٨.

المجـمع، اضطرت الرهبنة إلى ان تـفتح مـدرسـة ثانيـة في جـزيرة قبرص بسـبب بُعد المسافات بين القـرى. ففي رسالة كتـبها الرئيس العام الأب توما اللبودي، إلى الكاردينال رسـبولي، ذكر صريح لهذه المدرسة الثانية. قال: «أما جزيرة قبـرص فمعلوم عند سيادتكم قيام المدرسة المنقامـه هناك. وبعد توجُّه حضرة القاصـد (الرسولي)، قد ارسلت الاب مخايل اسكندر إلى جـزيرة قبرص ليسعى إلى افـتتاح مدرسـة غيـر الاولى، لاجل بُعْد مسـافة القـرى عن بعضـها، والآن موجود هناك اربعة من الكهنة...» [٢٧].

- **مدرسة مدينة عكا**، وفي الرسالة ذاتها، يذكر الرئيس العام ان القـاصد الرسـولي أمره، قـبل سفـره، بان يفتح مـدارس في امكنة مخـتلفة... «وقبل ان يتوجّـه (إلى رومة) كنت ارسلت رهبانًا لقـيام مدرسة في عكا»[٢٨].

هذه المدرسـة وغـيرهـا سوف تُـثـارُ حـولهـا قـلاقل من بعض المطارين والمرسلين اللاتين في القدس، كمـا كتب الرئيس العام للقَس يواصـاف رئيس دير مار بطـرس ومرسلين في رومـة، في ١٥ ايار ١٧٣٨. قال: «وحـقيـقة الحال ان المحـرِّكين لهذه الشـرور وقانعين السيّـد البطريرك هم أولاً المطران اسطفان الدويهي ولكن عـمله سرًا مـثل الخِلْد، وفي الظاهر المطران اليـاس (مـحـاسب). ولكي يقنعـوا

[٢٧] بلبيل، الجزء الاول، ص ٣٠٥، مجموعة اللبودي، الكسليك، ٢٩٨٨، ص ٢٦٠.

[٢٨] بلبيل، الجزء الاول، ص ٣٠٥، مجموعة اللبودي، الكسليك، ٢٩٨٨، ص ٢٦٠.

البطريرك بالزود سَجَّسوا اناسًا من المرسلين معهم، فالكبوجي اخبرناكم عنه سابقًا، والكرملتانيين لأجل بيتهم الذي في طرابلس، وبعض اليسوعيين مثل بادري فرماج وغيره، وسببه دير الراهبات الملكيات» (في الذوق)[٢٩]. وفي مكان آخر، يقول: «**ومن جملة التدابير التي دبّرها البادري والياصجي مع حضرة المطرانين المذكورين انهم ارسلوا إلى مدينة عكا ان يطردوا الرهبان من هناك ولا يقبلوهم** الخ... وذلك تحت حرم قاطع. والحال ان قيام هذه المدرسة كان بحضور حضرة القاصد الرسولي وبطلب من حضرة المطران سمعان (عواد) مطران الرعية الذي قد رفع دعاويه إلى الكرسي الرسولي...»[٣٠].

- **ثلاث مدارس من عكا حتى اللاذقية**، وبتاريخ ١٠ تموز سنة ١٧٣٩كتب اللبودي من مدينة طرابلس إلى السمعاني يخبره بأن القنصل بون الفرنساوي، في مدينة طرابلس سلّمه رسالة إلى السيد «دي سنتيتيان ألجي بك»، من الملك المسيحي (لويس الخامس عشر) يخبره بأن عنده احد عشر الف درهم مخصصة لتُصْرَفَ على الفقراء، و«بعد المراجعة والاستشارة قرّر ان يشتري بها املاكًا في هذه البلاد ومن مدخولها يقام مدارس، وان هذه المدارس تكون تحت عناية رهبانيّتنا»... وبعد مذاكرات طويلة تمّ الاتفاق على ان يقام ببدلها ثلاث مدارس ابتداء من عكا حتى اللاذقية حيث ترى الرهبانيّة

[٢٩] مجموعة اللبودي، الكسليك، ١٩٨٨، ص ٢٤٢، ٢٦٠، ٣٢٠ - ٣٢٢.

[٣٠] المرجع نفسه.

فائدة في ذلك، «وقد قرّرنا أن تكون مدرسة في عكا والثانية في طرابلس والثالثة حيث نرى مناسبًا في اراضي الشمال ام في جبيل ام في بلاد الشوف. وقد طلب مني القنصل صكًا شرعيًا بذلك فما رضيت بل انني ردّيت القضية إلى سيادتكم وحضرة الالجي سيتكلّم معكم... وغاية الرهبنة أن تكون مطلقة الارادة فتوضع المدارس حيث ما تشاء. وسبب ذلك تفهموا بلاد الاسلام، والمدن وتجاريبها مثل عشب الأرض. وبعض الأوقات تلتزم بترك الديورة التي بيدنا إلى زمان، كم بالحري مواضع مثل هذه، انما تعهّدنا ان نقيم ثلاثة مدارس، وكلّ مدرسة تقوم يكون لها كاهنان وشماس ليعلموا القراءة وتعليم المسيح ويعملوا الرسالة في الابرشيّة...»[٣١].

هذا الاندفاع الرسولي حصل مباشرة بعد المجمع اللبناني، بتأثير مباشر من السيد يوسف سمعان السمعاني وبعض القناصل الذين رأوا في الرهبنة قوة يمكن ان يعتمد عليها في التجديد والنهوض. ولكن سرعان ما خفّ هذا الحماس بفعل المضادات الكثيرة التي اعترضت مسيرتها. هذه المضادات اوجزها الرئيس العام في ثلاثة:

١- معاكسات بعض المطارين من الداخل، وأبرزهم المطران اسطفان الدويهي والمطران الياس حنا محاسب.

٢- اعتراضات المرسلين اللاتين العنيفة والمتكرّرة على اختراق

[٣١] المرجع نفسه، ص ٣٣٧، او بلبيل، ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

الرهبنة مناطق اعتبروها محميتهم أو حقلهم الخاص. وقد ذكرهم باسمائهم، وهم الكبوجي، والكرملتانيين، وبعض اليسوعيين مثل البادري فرماج وغيره.

٣- ثم أخيرًا الحال الفقرية التي كانت عليها الرهبنة بعد المجمع، كما صرَّح بذلك للسمعاني: «إعلموا إن هذه المدارس الثلاث يلزمها، اقلّه ستماية قرش لقيامها ودوامها، فالمدخول الثابت ما هو معلوم... والرزق هو تحت مِحْل وإقبال وعطل واشياء مثل هذه...»[٣٢].

هذه الاسباب وغيرها تجمَّعت وفرضت على الرهبنة بعض التريث، وإنْ على مضض، والحدّ من رسالتها التعليمية ومن رسوليتها، وللمة اطرافها وعصر النفقات والعودة إلى قواعدها الثابتة، فتلبّي الحاجات في حدود جبل لبنان متّكلة على سخاء ابنائها، من بعض العيال الميسورة، كما فعلت عائلة الخازن سنة ١٧٥١ اذ قدّمت للرهبانيّة، في بلدة عجلتون، بيتًا وقطعة من الارض صغيرة ليسكن الرهبان ويؤمّنوا تعليم الاحداث[٣٣]. أو كما سوف يعمل اهالي بلدة تنورين بعد ذلك بخمسة عشر سنة[٣٤]. وهكذا راحت تتعدّد الطلبات وتُوقَفُ الاوقاف لاجل انشاء المدارس، في انحاء لبنان حيث تدعو الحاجة وتتوفر الشروط التي وضعتها الرهبانية لذاتها بالاتفاق مع اباء المجمع اللبناني..

---

[٣٢] مجموعة اللبودي، الكسليك، ص ٣٨٨.

[٣٣] بليبل، الجزء الثاني، ص ١٠٩.

[٣٤] بليبل، الجزء الثاني، ص ٢٧.

خـــاتـــمـــة

هذه بعض خطوط المرحلة الاولى. مرحلة البدايات تنـتهي بانعقاد المجمع اللبناني الذي وضـع الاسس لنهضة روحـيّة وتربوية حديثة. وكانت الرهبانية، بتوجيه من السمعاني الكبير، احدى القوى الدافعة والموجِّهـة والعاملة بصمت وثبـات في سبيل التـغيير والتـجديد من ضمن الخط الرهباني الذي رسمته لنفسها منذ البداية.

امـا المرحلة الثانـية، فـقد فَـرَضت على الرهبـانيّـة جهـدًا اكبـر وتضحيات مضاعفـة لأنها تمّت في ظروف اكثر صعوبة وانتهت مع نهاية الحرب العالميّة الاولى، وقيـام الدولة الحديثة، وانشاء المدرسة الرسميّـة في المدن والقرى والأرياف، وتنظيم الامتحـانات ونهايات الدروس. وقد عالجَها بدقّة وروح علـمية حضرة الأب إيلي قزي في كتاب اليوبيل المئوي الثالث للرهبانيّة المارونيّة[٣٥] .

أمّا المرحلة الـثالثة، فـتبدأ مـن قيام المدرسـة الحديثـة إلى انشاء جامـعة الروح الـقدس، اولى الجـامعات الوطـنيّة الخـاصة، بعـد ما شعـرت الرهبـانية بأن قـيام الدولة– العناية قـد يعفـيهـا من بعض المسـؤوليّـات، ويوفر لهـا الأشـخاص والامـكانات، لتتـكرس اكثـر لتوجيه الطلاب الجـامعيين واعدادهم للحياة روحيًا وعلمـيًا وخلقيًا،

[٣٥] «تراث ورؤى مستقبليّة»، مجـموعة محاضرين، الكسليك – لبنان، ١٩٩٦، صفحة ٤١٩ – ٤٤٦

ولكي تساهم في الابحاث العلمية المتقدمة في كليتي العلوم الإنسانيّة واللاهوت في نوع خاص. وقد تريثتُ في ادراجها في هذا الكتاب في انتظار نهاية المرحلة الانتقالية التي يمرُّ بها الوطن اللبناني.

الفصل الثالث

شهود الحرّية

أولاً – دور البطريرك الياس الحويك في إعلان دولة لبنان الكبير

ثانيًا – الكنيسة والسياسة من خلال خبرة الموارنة

ثالثًا – المسيحية والتوتاليتارية

رابعًا – أحكام الطائف

خامسًا – المجتمع اللبناني الجديد في نظر فاعليات الطوائف المسيحيّة

سادسًا – الملف الثقافي – التاريخ كتابٌ وكتابة

دور البطريرك الياس الحويك في إعلان دولة لبنان الكبير[١]

مــقــدّمــة

قَــدَر الموارنة أن يكونوا شـهودًا لـلحرية في هـذا الشرق، وقَـدَر اسـياد يانوح وقنوبين والديمان وبكـركي أن يحملوا همـوم الموارنة وهموم الحـرية، وما اكثـر، وما اثقل، هموم الحـرية وهموم الموارنة في لبنان وفي الشرق! ...

مـرَّة سألني الشـيخ بشيـر، وكـان في احد مكاتب هذا الصـرح، يجيب على اسئلة بعض الصحافيين: ما مساحة لبنان؟

فأجبـته: إنْ لم يَكنْ للبنان مسـاحة ثابتة، فمـساحته كـانت دومًا

(١) محاضرة أُلقيت في جامعة الروح القدس، الكسليك، بتاريخ ١٠/١/١٩٩٤.

مسـاحة الحرية عند الموارنة وفي الشـرق، فإذا كانت الحرّية بخـير عند الموارنة وفي الـشرق كـانـت رقعـة لبـنان تمتـدّ إلى اوسع من حدوده التـاريخية، أمـا اذا كانت الحرية في مـحنة عند الموارنة وفي الشرق، فإن رقعة لبنان تتقلّص إلى أضيق مما نقيم عليه اليوم...

هذه المقـدّمـة الصـغـيـرة تضـعنـا في صلب الموضـوع: "**دور البطريرك الياس الحويك في اعلان دولة لبنان الكبير**".

والعـقـدة في هذا الموضـوع هي فـي "مـسـاحـة لبنان" لا في "استـقلاله"، لأن الاسـتقلال، كـما قـيل، "هو مسألة حـتمـية في مـسيـرة الشعـوب، وهو استـحقـاق يمكن تأجـيله لا الغاؤه"؛ أمـا المساحة، فهي تحوّل رئيسي في تاريخ الوطن ومصيره[٢]".

ولا **يسارعنّ** احد فـيتـمنّى **اليوم**، غيـر ما حُـقِّق **بالامس**، لان للأمس ظروفـه واسبابه، والامـور مرهونة بأوقـاتها، ولأن مـا كان بالامس ومـا فَرَض ذاته على مـسار الاحـداث كان من آمال شـعب لبنان وامانيه وتطلّعاته، وفي طليعته الموارنة.

أمّا الدور، فالتاريخ يُعلِّمـنا ان الدور الاساس لا بل الدور الوحيد الذي كرّسـه التاريخ والتـقليد لبطريرك مـاروني هو في وضع ذاته كليًا في خدمة شعبه وكنيسته كما كتب البطريرك الياس الحويك في أول رقيم أصـدره. قال: "سـأبذل جهـدي وراحتي بل وحيـاتي في سبيل شعبي وكنيستي...".

---

[٢] من محاضرة للاستاذ ويغان علم، لم تُنشَر.

نحاول في هذا الحديث ان نرسم ثلاث لوحات عن:

– حال الولايات المسيحية في الامبراطورية العثمانية عشية الحرب الكونية الاولى،

– "الاستقلال واسترجاع الاراضي المسلوخة" عن لبنان سابقاً، كانا مطلبًا وطنيًا لبنانيًا،

– البطريرك الياس الحويك كان أمينًا في وكالته عن وطنه وشعبه اللبناني.

١ – الرجل المريض وحال الولايات المسيحية

عندما تسلّم الاسقف الياس الحويك كرسي مار يوحنا مارون، في السادس من كانون الاول ١٨٩٩، كانت الامبراطورية العثمانية في نزاع "تبصق آخر اسنانها"، وكانت تعيش أزمة مزدوجة:

خارجية من جهتَي أوروبة والشرق،

وداخلية نتيجة تعدّد الاتنيات ويقظة القوميات وتقلّص الموارد وكثرة الضرائب...

وحَاوَلتْ أن تعالج هذا الوضع بسلسلة من الاصلاحات القمعية التي صدرت بين ١٨٣٩ و ١٨٧٦، عُرِفت بـ "التنظيمات الخيّرة" التي كان من شأنها، إذا طُبِّقت، أن تشدّد قبضة الحكومة المركزية

وتقضي على كلّ مظـهر من مظاهر الاستـقلال الذاتي في الولايات، الامر الذي زاد من نقمة الرعايا المسيـحيين، وبغية تهدئة خواطرهم، باشرت الدولة بتعزيز **القومية العثـمانية العلمانية** التي تساوي بين المسلمين والمسيحيين، ولكنّ غلاة المسلمين رفضوا مبدأ المساواة، فـأصرّ المسـيحـيون عـلى الاحتـفاظ بامـتـيازاتهم القـديمة وعلى الاستقلال الذاتي في ولاياتهم[٣] ...

وكانت هذه الولايات على تفاوت كبير في أحوالها كما في قدرتها على تحقيق أهدافها:

اولاً : فالصـرب واليونان والبلغـار والرومان في البلقـان، كانوا أقرب إلـى أوروبة المسيـحيـة، لذا سهل عليـهم، نسبـيًا، أن يثـوروا ويفوزوا مع الزمن بالاستقلال...

ثانيًا : أمـا الارمن، فقـد ذُبحوا وشُـتّتـوا عندما ثاروا، نتـيجـة وجودهم في كيليكية وارمينية بين الاتراك والاكراد.

ثالثًا : أما المسـيحيـون في «الولايات السورية»، فقـد كانوا في وضع مشابه لوضع الارمن، فلم يـستطيعوا المطالبة بلبنان مـستقلّ فلم يكن لهم اي وطن خاص بهم. ولما حاولت الاكثـرية المسيحية في

(٣) إن تسلسل الاحـداث، خـصوصًـا في القـسم الاول من البحث، يسـتند الى افـضل مرجعين لهذه الحقبة، وهما:

– «تاريخ لبنان الحديث»، للدكتور كمال الصليبي، دار النهار للنشر، الطبعة الثانيّة، ١٩٧٢.

– «الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سـورية ولبنان»، للدكتور زين زين، دار النهار للنشر، طبعة ثانية، ١٩٧٧.

جبل لبنان ان تطالب بالاستقلال، بمساعدة فرنسة وغيرها من الدول، أثارت الدولة الدروز عليهم في الشوف، فكانت مذابح سنة ١٨٦٠، الامر الذي أدّى إلى تدخّل دولي والى بروتوكول التاسع من حزيران سنة ١٨٦١، وهو يقضي بانشاء نظام حكم اساسي للبنان. وقد عُدِّل هذا النظام جزئيًا سنة ١٨٦٤ وبموجبه فَقَد لبنان نصف اراضيه، اي وادي التيم والبقاع وأقاليم صور وصيدا ولبنان الجنوبي وطرابلس وعكار ومدينة بيروت. وقد ضُمَّت هذه جميعها إلى الولايات العثمانية المجاورة، **فتحوّلت الامارة القديمة ولاية مستقلّة أو متصرّفية يحكمها متصرّف مسيحي من رعايا السلطان غير اللبنانيين** ويرتبط مباشرة بالباب العالي، جامعاً في شخصه جميع صلاحيات السلطة التنفيذية، يعاونه مجلس استشاري يمثل جميع الطوائف اللبنانية ويدعى "مجلس الادارة".

٢ – عهد المتصرفية

– عهدُ المتصرّفية هذا كان زاخراً بالاحداث، مليئاً بالايديولوجيات والافكار الوطنية والمستوردة، التي يمكن ان تتلاقى، والتي تتشابك وتتصارع اكثر الاحيان. وقد **حرص المفكّرون المسيحيون على اكتشاف المبادئ والافكار التي يقوم عليها تعاون مسيحي – اسلامي يؤدّي إلى ضمانة الوجود المسيحي وسلامته في لبنان في وجه خاص**، وفي الولايات في وجه عام.

– فـالموارنة، خصـوصـًا في شمـال لبنان، اسـتـمرّوا يعـملون للاستقـلال وينادون به، كما طالبوا بتوسيع رقـعة هذا الوطن حتى يصبح صـالحًا للبقـاء، كما سـوف نرى لاحقًا . نـخصُّ هنا بالذكر المناضل الكبيـر يوسف بك كرم، نائب قائمـقام المسيـحيين منذ سنة ١٨٦٠، الذي سـوف يعمل جـاهداً «للبنان الكبيـر» مع انفتـاح على العرب، كما يظهر جلياً من بعض كتاباته ومراسلاته في المنفى.

– أمّا الفـئات المسـيحـية الاخرى، فلم تحـصر همّـها، لاسـباب متـعدّدة، في توسـيع لبنان وضمـان كيانه، بل ذهبت إلـى ابعد، إلى الولاء للوطن السـوري. وقـد انضمّ اليـهـا بعض الموارنة النافـذين، متـأثرين بالعـالِم الاب هنري لامنس الذي اعتـبر "ان هـذه الحدود الضيقة قد اقيمت لتخنق كلّ نزعة للاستقلال وكل نموّ اقتصادي".

– إلى جانب هاتين القوميتين، اللبنانية والسورية، قامت "**اليقظة الادبيـة العربيـة**"، **واول من نادى بهـا المفكرّ والبحّـاثة بطرس البسـتاني** في اسبوعـيته "**نفيـر سوريا**" وفي مجلّة "**الجنان**" حـيث رفع شعـار "**حب الوطن من الايمان**"، وكـان يعني بكلمـة الوطن "سـورية". وهكذا التـقت فكرة القـومـيـة السـورية بفكرة القوميـة العربية، وهذه ترعرعت حول "الكلية السـورية الانجيلية" وبتـأثير من المسـتعـرب "كـورنيليوس فـانديك". **وهكذا تطوّرت "سورية" "البـستاني"** شيـئاً فـشيـئاً **إلى "عروبة" ابراهيم اليازجي ويعقـوب صرّوف وفارس نمر** وغيرهم من المسـيحيين

اللبنانيين. وهنا لا بدّ لنا من ملاحظتين هامتين:

أولاً : العروبة التي دعا اليها ابراهيم اليازجي ورفاقه لم تكن لتتنافى مع القومية اللبنانية السائدة بين المسيحيين وخصوصاً الموارنة، كما لم تكن تتميز بوضوح عن الفكرة القومية السورية التي قال بها البستاني، لانها تحدَّت، في الوقت ذاته، العصبية الدينية السائدة بين المسلمين، والقومية العثمانية. لذا كان في الامكان ان يقوم تعاون مثمر بين دعاة القومية العربية الاوائل ودعاة القومية اللبنانية، لان الغاية من الفكرتين واحدة وهي تعزيز مقام المسيحيين في الولايات.

ثانيًا: القومية العربية في الأصل ليست مجرّد ابتكار مسيحي لبناني، بل كثيرون من المفكرين المسلمين العرب كانوا من دعاتها امثال عبد الرحمن الكواكبي من حلب وغيره. ولكن لمّا **قام عبد الحميد الثاني، الذي تخلّى عن المبادئ العلمانية واهتمّ بالمسلمين العرب، فَصَلَ المسلمين العروبيين، عن المسيحيين العرب، فاضحت القومية العربية حركة انفصالية يطغى عليها العنصر المسيحي.**

ولما خلع محمد رشاد اخاه عبد الحميد سنة ١٩٠٨ وسلّم الحكم لقادة حزب الاتحاد والترقي ورثة حركة الاصلاح، ابدل هؤلاء فكرة القومية العثمانية الشاملة والمنفتحة على المسيحيين **بالفكرة التركية** الحصرية الضيقة، **فارتد العرب بكثافة إلى القومية العربية،**

مـحـولّين اتجـاهـهـا عن المبـادئ الـعـلـمـانيـة لصـالح المبادئ الاسلاميـة، وتحدثوا عن انشاء امبراطورية عربيـة تضمّ جميع البلدان الاسلامية الناطقة بالعربية، عندها تبدّل موقف المسيحيين من هذه القومية العربية (الاسـلامية) وسارعوا إلى إعلان تحفظهم، **فـهم معـهـا في الاساس لمـقاومـة الحكم الـعـثمـاني والمطالبـة بالاستـقلال التام، لا مع الوحـدة العربية الشـاملة التي ربما لن تضـمن لهم الحـقـوق التي نعـمـوا بهـا في ظلّ الامـبـراطورية العثمانية.**

ولمّا بدأت الحرب العالمية الاولى، وضعت حكومة الاستانة "جبل لبنان" تحت حكمهـا المباشر والغت "امتـيازاته" **فعاد القـوميون اللبنانيـون والقوميـون العرب يناضلـون سويّا**، فاعدم الاتراك ثلاثة وثلاثين منـهم سنة ١٩١٥-١٩١٦، فـخـيّل إلى البـعض انهم كانوا يناضـلون لهدف واحد، ولكن سـرعان مـا بدّدت الاحداث هذا الوهـم، فلما ثار الشريف حـسين في ٥ حزيران ١٩١٦ ضدّ الاتراك، بتشـجيع من بريطانية، واعلن اسـتقلال العرب ونادى بنفـسه ملكاً على البلاد العربية، **تجمع المسيحيـون (القوميون) حول الموارنة في لبنان معلنين رفـضهم الانضمـام إلى اي دولة عربية كـبرى.** ولمّا اعـتمـد مؤيدو حـركـة الشريف على مـعونـة بريطانية، التـفت القـوميـون اللبنانيـون إلى فـرنسة يطلبـون مـساعـدتهـا لضمـان الاستقلال.

وكانت فرنسة بدورها قد عقدت مع انكلترة، قبل ان يُعلِن الحسين ثورته في الحجاز، اتفاقًا خاصاً دعي اتفاق سايكس - بيكو في نيسان - ايار ١٩١٦ يضمن لها حق الاستيلاء على جميع المناطق السورية **الواقعة غرب حلب وحماة وحمص ودمشق باستثناء فلسطين**. وكانت انكلترة قد ابلغت الشريف حسين ان **سورية الغربية (لبنان)** لا يمكن اعتبارها "عربية صرفا"، **وكان الحسين يصرّ، بطلب من القوميين العرب في لبنان، على وجوب ضمّها إلى المملكة العربية المرتقبة.**

٣ - الاستقلال واسترجاع الاراضي المسلوخة مطلب وطني لبناني

هذه كانت حال المسيحيين عموماً، والموارنة في لبنان في نوع خاص، قبل الحرب العالمية الاولى وبعدها مباشرة، وقبل ثورة الشريف حسين في الحجاز في تموز ١٩١٧: **قلق على الوجود والمصير، محاولات جدية لاكتشاف المبادئ والافكار التي تُمكّن من قيام تعاون مسيحي-اسلامي، عمل حثيث لضمان سلامتهم وعيشهم الكريم من ضمن وطن مستقل وقابل للحياة.**

ولكن اي وطن هو هذا الذي يستطيع ان يقدّم لهم هذه الضمانات؟ وما هي حدوده؟ هل هي الحدود القائمة آنذاك، اي حدود المتصرفية،

ام حـدود الامـارة، ام حـدود الوطن الـسـوري الكبـيـر، ام حـدود الامبراطورية العربية الفيصلية المرتقبة؟!

كلّ هذه التساؤلات كانت تضجّ في تفكيرهم واجتماعاتهم، وكلّها كان لها مـناصرون ومحبّذون حـسب المحيط الجغرافي والـتأثيرات الداخلية والخـارجية، **ولكن الرأي السائد كـان يميل إلى توسيع حدود المتصرّفيـة وإذا امكن الرجوع إلى حدود الامارة.** لقد ندّدوا بتصغير لبنان واصرّوا على ان يشـمل لبنان الجديد البقاع وبيروت ومنطقتي طرابلس وصيدا. واننا سوف نتوقّف عند بعض النصوص الرسمية وغير الرسمية التي تعبّر عن هذا الموقف.

* سنة ١٩٠٨ وضـع المحـامي الماروني **بولس نجيم** في باريس كتـاباً يشرح فيـه القضـية اللبنانية المسـيحـية، عرض فـيه الافكار الشائعة والاعتراضات التي تحتم تكبير لبنان، وهذه أهمّها:

"لكي يتاح للبنان أن يلعب فـي سوريا الدور العظيم الذي اسنده اليه التـاريخ والطبيـعة، اقتـضى القيام بإصـلاح عملي جـبّار، أوّله اعـادة الـنظر في حـدوده. فنـظامـا ١٨٦١ و ١٨٦٤ شـوّهـا لبنان **وسلباه بعـضًا من اخـصب مناطقه.** وفوق ذلك كلّه، **حرماه من مـرفأ بيـروت الكبيـر،** بوضـع هذا المرفـأ تحت إدارة الباب العـالي المباشرة. وهكذا، **لم يعد للتجارة اللبنانية الناشطة المزدهرة منفذ إلى البـحر، والبـاب العـالي لا يسمح بإنشـاء مـرفأ جـديد على الساحل اللبناني**[٤].

---

[٤] كان اللبنانيون يطالبون بإنشاء مرفأ خاص بالمتصرفيّة في جونية.

وكـان أن وجد اللبـنانيون انفسـهم، وهم المِكْثـارون، في رقعـة صغـيرة تضـيق بهم ... فكلّ سنة تشـهد هجـرة آلاف اللبنانيين من سكّان الجبل. إذاً، هنالك مـشاكل خطيرة تستدعي إيـجاد حلول لها. والاصلاح السياسي أصبح ضرورة قصـوى. فالمجتمع يتطوّر اكثر فأكثر نحـو الديمقراطية، وباتت الحاجة ماسّة إلى انشـاء مؤسّسات تتلاءم مع هذا التطور ... وقـد اصبح هذا الاصلاح ملحّاً، خـصوصـاً أن جماعة "تركـيا الفتاة" تسعى إلى الغاء اسـتقلال لبنان الذاتي ... فمن الضرورة أن تتـدخّل الدول التي ضمنت هذا الاستـقلال للدفاع عنه وتنفيـذ هذا الاصلاح. لكنّ **المشكلة الأهمّ والأكثـر إلحاحاً هي توسـيع حدود لبنان... فـقوى الوطن اللبناني الفـاعلة الحـية يجب الافادة منهـا في سورية نفسها، عـوض أن تتوزّع في اربع أنحاء المعمورة.** ومن أجل هذا، يجب أن **تضمّ اولاً بيروت والبقاع الخـصب، ثم بلاد بشـارة وعكار والحـولة ومـرجعـيـون، إلى اراضـي المتصرفية**"[٥].

* في ٩ كانون الاول من سنة ١٩١٨، قرَّر مجلس الادارة توجيه كتاب إلى مؤتمر الصلح في باريس بواسطة الوفد الاول، قال فيه:

" من حيث أن جبل لبنان لم يزل منذ القديم وخصوصاً منذ الفتح الاسلامي في عـهد السلطان سليم الاول، مـتمتّـعاً بحكومـة وطنية مستقلّة، **تشمل جبل لبنان بحدوده الجغرافية والاقتصادية** وقد

(٥) M. Jouplain (pseudonyme), *La question du Liban, étude d'histoire diplomatique et de droit international,* Jounieh, 1961, pp. 544 - 545.

امتدّت في عهد بعض امرائه كالامير فخر الدين الثاني المعني، إلى حدود عكا وقيصرية، ومن حيث أن هذا الاستقلال الاداري ما برح مسلّماً به من قِبل الجميع حتى من قِبل حكومة الباب العالي نفسها، وبما انه في سنة ١٨٦١ عقب الحوادث المشؤومة التي دبرتها الحكومة التركية اقرت دول اوروبا في مؤتمر بيروت استقلال لبنان ووضعت له شكلاً مخصوصًا تحت كفالتها، وبما أن المندوب العثماني في المؤتمر المذكور هو فؤاد باشا قد استفاد من منافسة الدول حينذاك لجعل حق لبنان في الاستقلال حقًا صوريًا فقط، **ففصل عنه من جهة موانئ بيروت وصيدا وطرابلس وملحقاتها، ومن جهة اخرى سهل البقاع وبعلبك وجبل الشيخ بما فيه حاصبيا وراشيا، مما اضطر اللبنانيين إلى التشتّت في اطراف المعمور، وبما أن لبنان الحالي لا يغلّ من الحبوب إلاّ ما يقوم بحاجة اهله لمدة شهرين فقط بحيث إذا سدّت موانئه وسهوله المذكورة كان ذلك بمثابة القضاء عليه بالمجاعة، كما حدث في هذه الحرب مما قضى على نصف اهاليه بالموت جوعًا،** وبما أن العمل الذي توخّته الدول سنة ١٨٦١ بقي ناقصًا فإن الذي قصدته الدول هو أن تضمن لجبل لبنان استقلاله الاداري والاقتصادي، واقعيًا لا صوريًا، ولذلك يجب اتخاذ الاسباب التي تمكنه من تحقيق الاستقلال المذكور تحقيقًا فعليًا، فالآن بمناسبة طرح أماني الشعوب في مؤتمر الصلح العام، قرّر هذا المجلس **توجيه كلّ من داود بك عمون احد اعضائه مندوبًا اول، ومحمود بك جنبلاط عضوه**

الآخر وكل من الاساتذة اميل اده وابراهيم بك ابو خاطر وتامر بك حماده ليعرضوا في المؤتمر المشار اليه المطاليب الآتية:

أولاً : توسيع نطاق جبل لبنان إلى ما كان معروفًا به من التخوم تاريخيًا وجغرافيًا، وما تقتضيه منافعه الاقتصادية بحيث يكون بلاداً قادرة على القيام بحياة شعوبها ومنافعها وثروتهم، وبحكومة راقية منظمة.

ثانيًا : تأييد استقلال هذا البلد اللبناني بادارة شؤونه القضائية والادارية بواسطة رجال من اهله.

ثالثًا : يكون لهذه البلاد **مجلس نيابي مؤلّف على مبدأ التمثيل النسبي حفظًا لحقوق الاقلية، وينتخب من الشعب،** ويكون لهذا المجلس حق التشريع، ووضع القوانين الملائمة للبلاد، وسائر ما للمجالس النيابية في البلدان الراقية.

رابعًا : مساعدة فرنسة للحصول على التمنيات المقدّم ذكرها.

* **الاب هنري لامنس** اعتبر في احدى محاضراته ان هذه الحدود الضيّقة اقيمت عمدًا لتخنق كلّ نزعة إلى الاستقلال وكل نمّو اقتصادي.

قال: "في بداية القرن التاسع عشر كتب كورانسيز Corancez[٦] :

"إن اقصى ما يطمح اليه الامراء (اللبنانيون) هو استرجاع

---

(٦) CORANCEZ, *Histoire des Wahabis*, Paris, p. 208.

«بيروت»» أو نقطة اخرى مهمّة من الشاطئ. هذا المنفذ، حين يتوافر، يضمن لهم الاستقلال. «يظهر إن الـباب العالي، كما نرى، حفظ هذه الامثولة من التاريخ. **ففي هذه الحدود الضيّقة، مرتبةً عمدًا لخنق كلّ نزعة استقلاليّـة وكل نمّو اقتصادي، هذه الدائرة الجديدة لم تعد تشمل حتى لبنان الجغرافي»**.

Au début du 19e siècle, Corancez écrivait: "C'est la plus forte ambition des émirs (Libanais) de reprendre "Baruthe" ou un autre point important sur la Côte. Ce débouché, une fois assuré, leur indépendance en serait le gage.

La Porte avait, on le voit, retenu cette leçon de l'histoire. Dans ces limites étriquées, combinées de façon à étouffer toute velléité autonomiste et tout développement économique, la nouvelle circonscription ne comprenait plus même le Liban Géographique"[7].

* إلى جـانب هذه الطروحات: لبنان المـتصـرفيـة، لبنان الكبيـر، لبنان السوري، ولبنان العـربي، كان هناك **طرح خامس** يعكس رأي اللبنانيين المقـيمين في المهـاجر، وقد تنظّمـوا في حزب سـياسـي هو حزب "**اللجنة المركزية السورية**" وانتخبـوا لهم رئيسًا شكري غانم، الاديب والمفكّر الـلبناني الكبير المقـيم في باريس. وهذه بعض اهداف هذا الحزب:

– ضمّ المهاجرين (السوريين واللبنانيين) إلى فِرَق الشرق.

H. LAMMENS, *La Syrie, Précis Historique, II,* Beyrouth, 1921 , P. 188.[٧]

- بث الدعاية (المؤيدة لفرنسة) في الاوساط السورية في اميركة.

- العمل لوحدة السوريين الموجودين في اوروبة واميركة ومصر بغض النظر عن العرق والدين.

- تأمين الوحدة السورية.

- ضرورة تنظيم سورية تبعاً لارادة اهلها، اي من ضمن نظام فدرالي ديمقراطي، الامر الذي يؤمّن وحدة مصالح الاطراف كافة، وبخاصة تحقيق استقلال داخلي للمقاطعات المختلفة بما فيها كيليكية وفلسطين.

- مساعدة الصديقة فرنسة من خلال وصايتها على كامل سورية.

* في ٨ تموز سنة ١٩١٩، وجّهت "**لجنة لبنان الكبير**" عريضة إلى لجنة الاستفتاء الاميركية «كينغ ـ كراين» شدّدت فيها على مطالب ثلاثة، وهي:

أولاً : اعادة الاراضي التي اغتُصبَت من لبنان، من خلال توسيع رقعتها حتى حدودها القديمة.

ثانيًا : الحفاظ على استقلال لبنان في معزل عن سورية.

ثالثًا : تنظيم حكم وطني لبناني بالتعاون مع السلطات الفرنسية.

... في قضية الحدود:

"يتألّف لبنان من سلسلتي جبال تمتدّان من الجنوب حتى الشمال ويفصل بينهما سهلٌ، على طول رقعة انتشارهما، ويحدهما من الجنوب فلسطين، من الشرق والشمال صحراء سوريا ومجرى نهر، ومن الغرب يحدهما البحر الابيض المتوسط".

شواهد من التاريخ:

إن الشواهد التاريخيّة التي تثبت حقيقة هذه الحدود المذكورة أعلاه، متعدّدة. **فالكتاب المقدّس والمؤرخ اليوناني ديودور الصقلّي وابن العبري والمقدسي وابو الفداء وابن بطوطة وشمس الدين الدمشقي** وغيرهم يثبتون ذلك.

البراهين الطبيعية:

إن الطبيعة برسمها حدود لبنان بواسطة السلاسل الجبلية التي ذُكرت آنفًا، زوّدته بالسهول والانهار التي وحدها تضمن حياة الشعب الذي يقطن فيه، فكل الجبال والسهول المعروفة منذ العصور القديمة تحت اسم لبنان، تبرهن على وحدة هذا البلد الذي تمّت تجزئته بفعل الضرورات السياسيّة؛ والسهول كانت منذ القدم مُلحَقَة بالجبال المتاخمة، لانها كانت تتلقى المياه والتربة الصالحة من اعاليها، فضلاً عن أن الجبليّين كانوا من الاوائل الذين استغلّوا هذه السهول، مما يسمح لنا بالتأكيد على أن زارعي سهل البقاع وعكار

ووادي التيم هم لبنانيون، خصوصاً أن اسماء قرى السهل التي سُلخت عن الجبل ما زالت تحتفظ باسماء عائلات لبنانيّة مثل الشهابيّة المشتقة من عائلة شهاب...

البراهين السياسية:

كان القادة اللبنانيون يبسطون سلطتهم باسم لبنان، على كلّ هذه الاقطار المسلوخة قبل الفتح الاسلامي بوقت طويل. وقد دامت هذه السلطة حتى سنة ١٨٦٤، تاريخ سلخ الكثير من هذه الاقطار عن لبنان بفعل الرغبة الاعتباطية للحكومة التركيّة التي برَّرت هذا الامر باستعدادها التعويض على لبنان من خلال التزامها، وفقاً للبند ١٥ من نظامها الاساسي، بدفع مبلغ كبير. هذه المدفوعات أُجّلت حتى اندلاع الحرب الروسيّة التركيّة، ومنذ ذلك الوقت تكدّس الدين التركي تجاه لبنان الذي ما زال له في ذمة تركية الملايين من القروش.

امام هذه الطروحات المتعددة، كان على اللبنانيين وعلى السيد البطريرك الياس الحويك أن يختاروا، **وكان خيار "لبنان الكبير" الحل الوسط والاكثر قبولاً بين اللبنانيين**.

كيف تمّ الاختيار وهل كان في الحقيقة وبالفعل الحلّ الامثل؟!

٤ - البطريرك الياس الحـويك الخادم الامين لوطنه وشعبه

تُقسَم بطريركية الياس الحويك قسمين:

- **القسم الاول:** من السادس من كانون الثاني ١٨٩٩ حتى نجاح ثورة الشريف حسين سنة ١٩١٧.

- **القسم الثاني:** من سنة ١٩١٧ حتى عشية ميلاد سنة ١٩٣١.

في القسم الاول اثبت الحويك للجميع، للموارنة وغير الموارنة، للعثمانيين كما للاوروبيّين والعرب، أنه رجل ثقة وعمران، وصاحب شخصية فريدة تتّصف برحابة الصدر وعمق الادراك، كما تتّصف بالأصالة والحوار في آنٍ.

لقد أُعطي أن يقود شعب لبنان في فترة تحوّلٍ صعبة، في عصر اختلط فيه الحكم الديني بالحكم الزمني. ثلاثة وثلاثون عامًا من الحكم شعارها الجهاد حتى الرمق الاخير، كما كتب في رقيمه الاول.

إنطلاقًا من مبدأي الأصالة والحوار، ركّز الحويك قاعدة ولايته في لبنان، وبذل اقصى اهتمامه في عواصم الفكر والقرار: رومة وباريس والآستانة.

- شيّد الصرح البطريركي في الديمان ودعاه باسم "كرسي جديدة قنوبين"، كما اهتمّ بمحيط صرح بكركي الإنساني

والطبيعي، وغرس غابة الصنوبر المجاورة. اوجد ابرشية صور النائية **وعزّز الوكالات البطريركية في باريس والقدس ومصر،** اوفد المرسلين إلى افريقية واميركة، فشيّدوا الكنائس والمدارس والاديار، والملاجئ والمستشفيات، وعزّزوا الصحافة والجمعيات.

في عهده تمّ تطويب الشهداء المسابكيين، وأجري التحقيق الكامل في دعوى تطويب عبيد الله شربل مخلوف، نعمة الله الحرديني والراهبة رفقا من حملايا. أنشأ جمعية راهبات العائلة المقدسة للعناية بتهذيب البنات وتثقيفهنّ.

– أحيا المدرسة المارونية في رومة وكانت قد صودرَت أملاكها وبيعت على اثر احتلال نابوليون الاول مدينة رومة. **والكلّ يعلم مدى الدور الذي لعبته هذه المدرسة في بعث التراث العربي والشرقي واحيائه وتعريف الغرب به، وفي نقل الفكر الغربي وتعريف الشرق به.**

– أما في باريس فكانت حصيلة إنجازاته بالإضافة إلى خلق ثمانية مراكز للتلامذة في كلية سان سولبيس، نيابة بطريركية **تعرف اليوم بالبيت اللبناني** وكنيسة سيدة لبنان.

– بين حلّ وترحال دائمين، بين رومة وباريس من جهة وبين دمشق والقدس والآستانة والقاهرة من جهة ثانية، اثبت الحويك انه لم يكن رجل اصالة وعمران فحَسب، **بل وسيّد حوار ورائد انفتاح على الشرق العربي والغرب في آنٍ معًا،** همّه أن يُسمِع العثمانيين

صوته ويجعل من المراكـز المختلفة التي عمل على إنشائها أو تفـعيلها وسائل حوار بين البطريركية والموارنة المنتشرين في هذه البلدان من جهة، وبين البطريركيـة والشعوب العربية والغربيـة من جهة ثانية، الامر الذي أثار حفيظة الفراماسون، **فقدّموا فيه شكاوى إلى الباب العالي واتهمـوه بأنه يؤيد فصل المقاطعات العـربية عن الدولة العثمانية ويدعو إلى اللامركزية**، ولمّا تسنّى له أن يقابل السلطان بواسطة أحد أبنائه الموارنة **الوزير نجيب باشا ملحمة**، قال له عبد الحميد ساعة وداعه: «عرّج على الصـدر الاعظم وهو يطلعك على أشـيـاء تهـمّك»، **فـذهب وتسلّم منه رزمـة مـن اثنتين واربعين عريضة حرّرها فـراماسون لبنان ضدّه تشهد اليـوم ببُعد نظره وانفتاحه على العالم العربي**[٨].

أما في القسم الثاني من ولايته، فقـد اكّد الحويك الثقـة المتبادلة بينه وبين اللبنانيين بتكرّسه الكامل للقضية اللبنانية.

فـبعـدما ثار الشـريف حسـين في الحجـاز، ودخل ابنه فيـصل دمشق، انهارت السلطة العثـمانية في لبنان. عندما حاول **القوميون العرب** وضـع الحلفاء امام الامر الواقـع، فتـسلّم عمر الداعوق الحكم في لبنان من الحـاكم التركي ممتاز بك، وللحـال اعلن قيـام حكومة عربية في بيروت، ورَفَع الاعلام الشريفية على المباني العامة، فدخل شكري باشا الايوبي، احد رجال فيصل، على رأس قوة عربية رمزية

(٨) قد يكون من المفيد جداً دراسة هذه العرائض ونشرها.

لاحتلال بيروت، لكن هذا الاحـتلال لم يدم طويلاً، إذ دخلت بيروت، في السابع من تشرين الاول، وحدات من الجيش الفرنسي، بموافقة الجنرال اللنبي، فـغـادر شكري باشـا الايوبي المدينـة وأُنزل العلم العربي عن المباني العامـة، وثُبّت المجلس الاداري في صلاحياته، ثم شرع اللبنـانيون بالتحـضير لـكسب قضيـتهم امام مـؤتمر الصلح المنتظر.

- من ضمن هذا الاطار الدقيق والخطـير في آن، تَحَرَّكَ البطريرك اليـاس الحـويك بكثيـر من الحنكة والـدقّة والحـذر، فكان عليـه أن يفـاوض العرب والانكليـز والفرنـسيين، كـما كـان عليه ان يحـاور اللبنانيين على اختلاف فئاتهم وتيّاراتهم السياسية، وفي نوع خاص مجلس الادارة، وهو الهيئة الوطنيـة المساعدة في الحكم، والذي عُهِدَ اليه باعداد الوفود إلى مؤتمر الصلح في باريس.

اجـتـمع هذا المجلس في كـانون الاول ١٩١٨وزوّد الوفـد الاول بقرار وتوصـيات. ولما عاد الوفد، بعـد بضـع اشهر، من دون نتيـجة تذكر، تألبت الجـموع على بعبـدا وطالبت بارسال وفـدٍ ثانٍ برئاسة البطريرك الحـويك. وقد وصف يوسف السـودا في مذكّـراته اجواء تلك الايام. قـال: "الجمـيع في لبنان ينادون بالاستـقلال، ومـجلس الادارة يحـبّـذ الحـركة الاسـتـقـلاليـة بكل قـواه، **ولكن الكرسي البطريركي عزيمـته اشدّ من عـزيمة الشعب والمجلس..** فنهار البارحة الموافق ٣ حزيران كان اجتـماع في بكركي مؤلّف من جميع الاساقـفة للنظر في مـوضوع الاسـتـقلال **فقـرّروا ايفاد البطريرك**

الماروني مع جماعة من اللبنانيين كمندوبين من قبل الشعب بوكالة رسمية منه... ".

وفي ١٦ حزيران ١٩١٩، التأم مجلس الادارة مرة اخرى واتخذ قرارًا بالاجماع ينتدب فيه البطريرك إلى مؤتمر الصلح للمطالبة باستقلال لبنان الكبير في حدوده الطبيعية "استقلالاً تامًا اداريًا وسياسيًا".

– اثناء وجود الحويك في باريس وقبل ان يقابل رئيس الوزراء كليمنصو، وصل فيصل إلى باريس في ٢٥ آب ١٩١٩، فارتبكت الادارة الفرنسية، وأسرع رئيس الوزراء كليمنصو إلى استقبال البطريرك، وأتبع المقابلة برسالة هامّة جدًا مؤكّدًا فيها "على تقاليد الاخلاص القائمة منذ اجيال بين فرنسة ولبنان. وكما تأكدتم من اللقاءات، إن ما نسعى إلى تحقيقه في مؤتمر الصلح مطابق في مجمله لاماني الاهالي الذين تمثلونهم تمثيلاً عاليًا، فرغبة اللبنانيين في الاحتفاظ بحكومة ذاتية ونظام وطني مستقلّ تتفق اتفاقًا تامًا مع التقاليد الحرة لفرنسة... ويضمن اللبنانيون وهم مستقلّون عن كلّ تجمّع وطني حرّ، وبمساعدة فرنسة ان يكونوا على ثقة بأنهم يحتفظون بتقاليدهم ويوسعون انظمتهم السياسية والادارية ويعملون بانفسهم لتقدم بلادهم... أما الاطار الذي ينفّذ في دائرته هذا الاستقلال، فلا يمكن تحديده قبل أن يعطى ويحدّد الانتداب على سورية ولبنان... " (وثائق ارشيف بكركي).

" Le Désir des Libanais de conserver un gouvernement autonome et un statut national indépendant s'accorde parfaitement avec les traditions libérales de la France".

وعلى اثر رجوع فيصل إلى دمشق في كانون الثاني ١٩١٠، ولم تكن الامور قد استقرّت نهائيًا، اوفد البطريرك وفدًا ثالثًا إلى باريس برئاسة **المطران عبد الله خوري، مؤلّفاً من الامير توفيق ارسلان، والشيخ يوسف الجميّل والأستاذ اميل اده.** ولما اعلن فيصل ذاته ملكًا على سورية المتحدة في الثامن من آذار، بدأت عرائض الاحتجاج تصل إلى المقرّ البطريركي من كلّ مكان في لبنان، معبّرة عن رفض اصحابها الانضمام إلى مملكة فيصل.

– في العشرين من آذار استقبل السيد ميلران، رئيس الوزارة الفرنسية الجديد الوفد اللبناني، واكد له أن الرسالة التي كان قد بعث بها كليمنصو إلى البطريرك الماروني لا تزال تعتبر بمثابة اتفاق ملزم تعتزم الحكومة الفرنسية العمل على تنفيذه. غير أن الحكومة الفرنسية لا تشعر بأنها طليقة اليد في الوقت الحاضر للنزول عند مطلب الوفد اللبناني وتتصرّف من جانب واحد فتضم إلى لبنان ارضًا جديدة (سهل البقاع وحاصبيا وبعلبك) من دون استشارة الدول حليفاتها.

– وفي ٢٨ نيسان ١٩٢٠، أقرّ مجلس الحلفاء الاعلى، المجتمع في سان ريمو، الانتداب الفرنسي على "سورية ولبنان"، على رغم احتجاج الحكومة العربية في دمشق. فصعق القوميون العرب للنبأ،

فيما استقبلته اغلبية المسيحيين في لبنان بالارتياح.

- إلا أن اعلانَ فيصل ذاته ملكًا على سورية المتّحدة احرج حليفته بريطانية وافقده عطفها، واعطى اللبنانيين حجّة لشكوكهم ومخاوفهم "فراحوا يستقلّون في تصريف شؤونهم بانفسهم، وذلك بمعرفة السلطات الفرنسية وبمعاضدتها؛ ونهار الاثنين الواقع في الثاني والعشرين من آذار عُقد اجتماع حاشد في بعبدا، عاصمة جبل لبنان القديمة، **حضره أعضاء مجلس الإدارة وجمهرة من أعيان لبنان ووجهائه وممثلون من مختلف الطوائف، واعلنوا استقلال لبنان**، وعند الساعة الثالثة بعد الظهر، رفع اول علم لبناني على سرايا بعبدا بحضور كتائب من الجيش اللبناني..." [٩].

خـــاتــمــة

حرصت في هذا الحديث الموجز على أن أرسم لوحة عن حال الولايات المسيحيّة في الامبراطوريّة العثمانيّة، وحال لبنان في نوع خاص قبل مؤتمر الصلح، وأن أُثبت بوضوح أن مطلب الاستقلال واسترجاع الاراضي المسلوخة عن لبنان كان مطلبًا وطنيًا لبنانيًا، وأن البطريرك الياس الحويك تصرّف كرجل دولةٍ مسؤولٍ عن

(٩) زين نور الدين زين، «الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان»، دار النهار للنشر، طبعة ثانية، ١٩٧٧، ص ١٥٦ – ١٥٧.

الفـئات اللبنانيّـة كافّـة، فتـخطّى رغـبة البـعض من أبنائه الموارنة، واختار، من بين الطروحات المعروضة يومذاك، **خيار «لبنان الكبير»** الذي يلبّي طموحات المفكّرين الحـريصين على المبادئ والأفكار التي يمكن أن يقوم عليها **تعاون مسيحي- اسلامي**، يؤدّي بالنهاية إلى ضمان الوجود المسيـحي الحرّ من جهة، **وإلى التعاون مع المحيط العـربـي الواسع من جـهـة ثـانيـة، أي يضـمن، بـالوقت ذاته، استقلاليّة الوطن وقابليته للحياة والعيش معاً بكرامة.**

وبتركيزه على هذا الخيار الحرّ يكون البطريرك الحويّك قد وضـع ذاته في خطّ المراحل التـاريخيّـة الكبرى التي قـادها الموارنة، والتي، بالرغم من تفاوتها، لا تهدف إلاّ إلى الاستقلال والانفتاح على الغير.

همُّ الموارنة الوحيد، عبر العـصور، لم يكن الخوف بل الحرّية والعيش بكرامة، وهذا ما حدا **بالمفكّر اللبناني الكبير تقي الدين الصلح** أن يردّد في مجـالسه: «إنّ للمسـلمين الفضل في استـقلال لبنان (عن العالم العربي طبعاً) وللموارنة وحدهم فضل الحفاظ على الحرّية والديموقراطيّة».

هل لنا أن نَفِيْدَ من معطيات التاريخ وتجارب الأمس القريب فنُعيدَ سوية، اسلاماً ومسيحيّين، قراءة تاريخ لبنان الحديث؟

وهل هذه القراءة تختلف كثيراً عن توجيهات الإرشاد الرسولي؟

الكنيسة والسياسة

من خلال خبرة الموارنة (١)

مـــقـــدّمـــة

هذا البحث في «الكنيسة والسياسة» يأتي مباشرة بعد الزيارة التاريخية، الزيارة- الحدث التي قام بها قداسة البابا يوحنا بولس الثاني إلى لبنان في نهاية الألف الثاني، وبعد توقيع «الإرشاد الرسولي» بيده المباركة في بازيليك سيدة - لبنان حريصا، في اليوم العاشر من شهر أيار سنة ١٩٩٧. هذا الإرشاد سوف يكون شرعة مسيحيي لبنان والشرق في مطلع الألف الثالث. وكم تكون المفاجأة سارّة، وكم يكون عمل العناية الإلهية الخفي متكاملاً

(١) محاضرة أُلقيت على طلب رابطة البترون الانمائية والثقافية بتاريخ ٢٢ ايار ١٩٩٧، في دير مار يوحنا مارون - كفرحي، في مناسبة ذكرى المئة والخمسين سنة لبناء الكنيسة.

ومتواصلاً، عندما ندرك أن قسمًا كبيرًا من الإرشاد الرسولي ليس سوى تجريد نظري لحياةٍ مسيحية صادقة، ومسارٍ عفوي سليم، ونهجٍ سلوكي مستقيم اعتمدته كنيستنا اللبنانيّة منذ نشأتها وتكوُّنها في لبنان حتى هذه الساعة. هذا مع الإقرار الصادق بأن هذه المدة تخلَّلتها فترات من الضياع والوهن والاضطراب القيادي، وقد كانت الفترةُ الأخيرة ذروَتَها . هذه الفترات من الضياع والوهن كانت العناية الإلهية تتداركها بتدخل مباشر يعيدنا إلى جادة الصواب ويصحح المسار كما حصل سابقًا، ولمرات عدة في التاريخ، وكما يحصل اليوم مع تفجر روحانية القديس شربل، وزيارة البابا يوحنا بولس الثاني الميمونة والمباركة إلى لبنان.

ذاك ان تنظيم مجتمعنا، مهما غالينا في وصفه، لم يكن يقدَّر له ان يصمد على الزمن ويبقى حتى الساعة، لو لم تتداركه قوى صديقة محبّة، ولو لم تمتدَّ اليه يدُ العناية فتمنع عنه الاختناق، وتزيل منه ما يعوق الانارة والاشعاع، كما حدث لأكثر الكنائس جاراتنا ، التي كانت تفوق بطاقاتها قوى المارونية المتواضعة. هذه العناية هي، من دون شك، يد العناية الإلهية من خلال يد الكرسي الرسولي.

فالكنيسة المارونيّة، توافر لها حظ الالتقاء عقائديًا مع كنيسة رومة منذ المجمع الخلقيدوني سنة ٤٥١. وحتى الساعة، لم تنقطع صلاتها بهذه الكنيسة، بفعل ارادي مباشر. فكانت كلما توافرت لها ظروف الاتصال والتجدّد تسرع ، مع كلّ ما يكون قد علق فيها من

ضعف وضياع ووهنٍ، بفعل الإنسان والزمن الرتيب، إلى كنيسة رومة، «كاللاجئ من تيار العواصف والامطار الغزيرة إلى ميناء الأمن والسلام»... كما جاء في رسالة رهبان دير مار مارون إلى البابا هورميزداس سنة ٥١٧ على اثر مذبحة حدثت لهم قرب قلعة شيزر في سورية الثانية حسب التقسيم الروماني القديم[٢].

ابدأ اولاً بتحديد موجز لكلمتي «سياسة» و«كنيسة» قبل ان انتقل إلى وصف وقائع خبرة الكنيسة المارونية عبر التاريخ.

١ – مفهوم كلمتَي السياسة والكنيسة

ان كلمة سياسة في اصلها اللغوي هي صفة لموصوف هو، إما المدينة أو الحكم أو الدولة أو أي جماعة منظّمة تنشد التناغم بين أفرادها ومؤسّساتها لتبلغ هدفًا معينًا هو الخير العام. ولكن مع الاستعمال والتداول تطوّرت الكلمة من صفة إلى موصوف، فأصبحنا نتكلّم على السياسة «مفهومًا»، وعلى «السياسة» و«السياسيين» كأنّهم أناس مولَّجون تحقيق هذا التناغم بين الحياة العامّة والحياة الخاصّة. يقول المعلّم الشهير ليبانيوس عن سياسة مدينة إنطاكية، «تاج الشرق الجميل»: «ليكن مطمح ساسة المدينة «الهرمونيا» أو التناغم، فكما القيثارة بين يدي أشهر القيثاريين كذلك

[٢] «المارونية لاهوت وحياة»، الكسليك، ١٩٩٢، الملاحق، ص ١٥٩ .

لتتـوطّد «الهرمونيـا» بين الحياة العامـة والحياة الخـاصة في أفكار طبقات المدينة المختلفة وتصرفاتها»[٣] ...

أما كلمة **كنيسة** فتعني جماعة المؤمنين المشتركين معًا في الإيمان والرجاء والمحـبة. جمـاعة، يوحّدها الإيمان بـيسوع المسـيح، وتعمل بالمحبـة على رجاء ملكوته، الذي بدأه بنفسه على الأرض ليمـتدّ إلى أبعد، فيبلغ كماله في نهاية الدهر. فـالكنيسة إذاً هي، من جهة، جسد يسوع السـرّي المرافق الكون، كمـا يقول بولس الرسـول، وهي من جهة ثانـية، مؤسّسة للإنـسان في الزمن تمنحه النعمـة ليُكمّل عمل خلاصه.

فمـن حيث هي مـؤسّسـة للإنسان في الزمن، تكوًّن لهـا تاريخ. وللتاريخ، كما نعلم، ثقله الكبير على المؤسّـسات. فالصعوبة الكبرى، إذا أردنا البـحث في العـلاقة بين الكنـيسـة والسـياسـة، هي في انّ كنيسة المسيح الجـامعة نشأت «كنائس» محلّية مـتعدّدة، في أوساط حضارية مـختلفة. وفكرة الوسط الحضـاري هذه هي أحد المعطيات الأكثر صعـوبة وأهمية في التاريخ، لأنها تشمل في تـأثيرها مسائل عدة من مثل العـادات والأخلاق وطريقة التفكيـر والتعبيـر والعلاقة بالدولة الحـاضنة. وهذه المؤثرات الناتجة من الاوسـاط الحضـاريّة المختلفة هي التي ميًّزت بين كنيسة واخرى.

يقول الإرشـاد الرسولي : «الكنيسـة... هي واقع الهي وإنساني،

(٣) Paul Petit, *Libanius et la vie municipale à Antioche au IVe siècle après J.C*, *Lib*. P. Geuthner, Paris, 1956.

يحيا فـي الزمان والمكان، مع كلّ ما يَسْتـتبعُ ذلك من تكيُّف تاريخي، جغـرافي، اجتماعـي وثقافي. وإنها تتـرسَّخ في ذلك الواقع الملموس الذي تدين له بِسِمات وجهها الخاص وطابعها المميَّز...»[٤].

«فـمن الكنائس، يقـول المطران جـورج خضـر، مـا كـان كثـيف الحـضور في الشـأن الزمني كـالكنيسـة الكاثوليكيـة»، التي تولّت شـؤون شعـبهـا في غـياب الدولـة الرومانيـة بعـد دخول البـربر وتحطيمـهم ما كان يُدعى الإمبـراطوريّة الرومانيّة الغربيّـة، ومنها، «من لم تشـعـر بضـرورة تولّـيـه، كالـكنيـسـة البـيـزنطيـة، لأنّ الإمبـراطورية الرومانيّة –مع تنصّـرها– بقيت حاضنة كليًّـا للشأن الزمني ... »[٥].

أما الكنيسة المارونية، فكانت لها خـبرة فريدة مختلفة، وهذا أيضًا كان بفعل التاريخ، وما كان أثقله على هذه الكنيسة الصغيرة الناشئة والطالعة من قلب المحن والمنازعات الدينية والزمنية.

فالكلام على علاقـة الكنيسة المارونية بالسياسـة يفرض الرجوع إلى ظروف نشوء هذه الكنيسة من ضمـن البطريركية الإنطاكيّة، في المقاطعة الفينيقيّة–اللبنانيّة التـابعة لها، كما يفرض الكلام عن اسهام هذه الكنيسـة في خلق وطن تعـدّدي يضـمن لهذا الشـعب الحـريّة والاصـالة.

---

(٤) Exhortation Apostolique, *«une Espérance Nouvelle pour le Liban»*, p. 30, nº 20.

(٥) صحيفة «النهار»، «الكنيسة والسياسة»، بتاريخ ٢٠/٧/١٩٩٦.

٢ – كنيسة قرويِّين

الموارنة شعب مسيحي قروي كان يعيش في أرياف مدينة إنطاكية ومن ضمن حدود بطريركيّتها التي كانت تمتدّ على تِسع مقاطعات من الإمبراطورية الرومانيّة: من ايسورية وقيليقية في تركية، إلى سورية والفراتيّة (الاسروان) وما بين النهرين شرقًا، إلى فينيقية وفلسطين والعربيّة جنوبًا. شعب مُتَّقٍ اللّه يحب العبادة والصلاة في هدأة، لغته سريانيّة-آراميّة مع معرفة بسيطة باللغة اليونانية، ديانته فيها عنصر شعري عاطفي، ديانة حقول مرحة[٦].

ولأنه كان يعيش من ضمن الإمبراطورية البيزنطيّة، لم يفكر أبداً بالتدخل في أمور الدّولة، طالما تأمَّنَت حريته ومصالحه، ولكن علاقته بالإمبراطورية البيزنطيّة كانت فاترة بسبب الضرائب الكثيرة والتعصّب للحضارة اليونانيّة، مع احتقار للحضارة السريانيّة. ولأنّه كان يعيش من ضمن البطريركيّة الإنطاكيّة الواسعة الأرجاء، لم يفكر مطلقاً بأن يبني له كنيسة محلّية خاصة به.

ظروف دينيّة ومجتمعيّة قاهرة، بعد مجمع خلقيدونية، سنة ٤٥١، ألجأته إلى التجمع في منطقة أفاميةحول تيار رهباني مزدهر، معروف بنضاله في سبيل تثبيت عقيدة الطبيعتين الكاملتين في

(٦) راجع الأب يوحنّا تابت، «إنسان الشحيمة المارونيّة: مزارع وطبيب»، منشورات معهد الليتورجيًا، الكسليك– لبنان، ١٩٩٢.

السيّد المسيح. لقد ساند بقوة مناصري الطبيعة الإنسانيّة الكاملة في المسيح، وبذل في سبيل الدفاع عنها الدّماء الكثيرة. لقد اختار طريق المسيح المتجسّد، الطريق الصعبة والشائكة، ليصل إلى المسيح الممجّد.

وبعد سقوط إنطاكية، على يد الفاتح العربي نحو سنة ٦٣٦، وانقطاع الاتصال بالعاصمة والبطريركيّات الباقية، بما فيها رومة، اختار له سلطة دينيّة وبدأ التجمّع بين جبال لبنان ووديانه العصيّة، لأن الفتح العربي الإسلامي عَبَرَ السهول وترك الجبال وشأنها.

٣ - التجمّع في المقاطعة الفينيقيّة الجبليّة

ولما كان الجبل اللبناني خاليًا من أي تنظيم سياسي، عائشًا على هامش الحياة السياسية والمنازعات الدينيّة في الإمبراطوريّة البيزنطيّة، نظّم الموارنة حياتهم تنظيماً إقطاعيًا قرويًا حسب العرف السائد آنذاك، وكان للكنيسة في هذا التنظيم الجديد تأثير كبير، خصوصًا زمن الحروب الخارجيّة والمحن والمنازعات الداخليّة، لأن الشعب كان يَثِقُ بالبطريركيّة ويعتبرها المرجع الأخير، وكان البطريرك يعيش راهباً في الدير، ولم يكن للإدارة الكنسيّة أي تأثير على الحياة العامة والحكم الزمني، بل كانت تكتفي بتوجيه المؤمنين وقت الشدائد والملمّات.

يقول المرسل اليسوعي يوحنا إِليانو في تقريره الموجه إلى قداسة البابا غريغوريوس الثالث عشر، سنة ١٥٧٨ : "للشعب الماروني رئيس روحي يسوسهم، يسمّونه البطريرك، له تحت امرته ستة مطارنة وستة اساقفة وليس لهم كرسي خاص... وهم اليوم تحت حكم سلطان الأتراك، مراد الثالث (١٥٧٤ – ١٥٩٥) ولكنّ لهم في جبالهم حاكمًا اسمه منصور (العسافي) وقد اقطعته الدولة التركيّة كلّ قرى الموارنة ليحصّل من أهلها الضرائب السلطانيّة وكل ما يحفظه لنفسه،... وللأمير منصور هذا وكيل من وجوه الموارنة يُدعى يوسف (حبيش) وهو... «كاخيته ومستشاره»، يحصّل له الأموال من قومه ويضيف اليها ما يعيش هو منه. فالشعب كله دون استثناء حتى السيد البطريرك والإكليروس لا مناص لهم من هذه الضرائب الثقيلة وقد رأيت بالعيان ان السيد البطريرك... توجه إلى زيارة يوسف المذكور وقدّم له قسمًا من المبلغ الذي تكرّم به عليه قداسة البابا. وكان الموارنة اذا نزلوا من قراهم إلى الساحل، يُسخِّرُهم اهلها المسلمون لأمورهم فيضطرونهم إلى نقل احمالهم، أو يقضون عليهم باشغالٍ شاقة في دار الحكومة أو في البيوت الخاصة»[٧].

لقد مكثوا في هذا المعزل المفروض عليهم، والذي ليس من طبيعتهم القرويّة ولا من ديانتهم المسيحيّة، من القرن السابع تقريبًا حتى القرن الخامس عشر: حياة قروية غاية في البساطة مركّزة على

Tubia ANAISSI, *Collectio Documentarum*, Livorne, 1921, pp. 56 - 61.(٧)

العمل والصلاة والتجمّع في الكنيسة مرتين في النهار أقلّه، لذا تعدّدت الكنائس في القرى والبلدات حتى بلغت في بعضها الأربعين كنيسة ومعبدًا، مثل العاقورة، تنورين، بشري، إهدن، زغرتا، بسكنتا وغيرها. شعبٌ يعيش للملكوت، يهرب من الظلم والاضطهاد، ويحرص على الأصالة الدينية والحضارية، ولا يهتمّ كثيرًا بأمر بناء الأوطان وإنشاء الدول.

٤ - أول مشاركة في الحكم سنية- مارونية

ولكن، لما طال زمن عزلتهم القسريّة واشتدّت عليهم المحن، **قرّروا ان يكسروا طوق العزلة هذه، ويتّصلوا بالشعوب المجاورة والصديقة** التي يمكنها ان تساعدهم للخروج من عزلتهم، **لأن الحرية السياسية في نظرهم، إلى خبرتهم الطويلة، هي أمُّ الحريات، من دونها لا مجال للحفاظ على أي حرية أخرى دينيّة أم غير دينيّة.** وقد باشروا بالفعل بالاتصال بجيرانهم الأمراء العسّافيين بواسطة آل حبيش، وكانت بلدة غزير قاعدةً لحكمهم (ابتداءً من سنة ١٥٠٦). وكان العسّافيّون من المسلمين السنّة، يحكمون بحسب النظام الإقطاعي المدني المعروف، لا بحسب الشريعة الإسلامية، أي يكتفون بجمع الضرائب -وكانت باهظة- ولكنّهم يتركون للرعايا الحرية الداخلية. هذا الوضع كان يناسب

الموارنة، لذا حصل بينهم وبين الامـراء العسّافيين أول مـشاركة في الحكم، مسـيحـية- إسـلامية (ابتـداء من سنة ١٥١٦)، مبنيّـة على المصالح المشتركة لا على تطبيق الشريعة الإسلامية.

استفاد الموارنة كثيرًا من هذه المشاركة وأخذوا بالانتشار جنوباً، لأنهم كـانوا جـدّيين في عـملهم، مـسـالمين في مسـلكهم، أمناء في خدمـتهم. ومع انتشـارهم ناحية جنوب لبنـان تمّ اتّصالهم بأوروبة بواسطة المرسلين الفرنسيـسكان وغيرهم من المؤسّسات المسـيحيّة التي كانت تعمل في الأماكن المقدّسة.

وغضبت الدولة العثمانية على الأمراء العسّافيين وعلى معاونيهم من آل حبـيش وعملت على القضـاء عليهم تدريجيًـا ثم استبـدلتهم بأمراء بني سيـفا، وكان هؤلاء أيضًـا مثل العسّـافيين من القـبائل التركمانيّة، اسـتقدمتهم الدولة العثمانيـة لحماية الشواطئ، **ولكنّهم كانوا من المتعـصّبين جدًا، يحكمون بحسب الشـريعة لا بحسب العرف المدني.**

٥ – التحـالف الثـاني: الدرزي – المـاروني

في هذه المرحلة، بدأت هجـرة الموارنة في اتّجاه المناطق الجنـوبية من جبل لبنان : المتنَين والشوفَين والجرد والغرب والشحّار ... ثمّ ما لبثوا ان عقدوا مشاركـة ثانيّة مع المعنيين ومع الأمير فخر الدين في

نوع خاص. وكان فخر الدين يطمح إلى الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية ويرغب في الانفتاح على الغرب. ولأن الموارنة كانوا قوّة داخليّة عاملة تزرع الازدهار أينما حلّت، ولأنّهم كانوا قوة اتصال بالغرب، أوثقوا صلات الأمير برومة وفلورنسة وتوسكانة وباريس. **وقَوِيَ هذا الحلف كثيرًا وبدأ يشمل، ولأول مرّة، المسيحيين والدروز والسنّة والشيعة. ومنذ ذلك الوقت، بدأت تتبلور فكرة لبنان الحديث التعدّدي المبني على المصالح المشتركة وعلى القبول بالغير مع فروقاته.** وقد بقي هذا العيش المشترك مزدهرًا طيلة عهد الإمارتين: المعنيّة من سنة ١٥٨٤ حتى سنة ١٦٣٣، والشهابيّة من سنة ١٦٣٣ حتى بداية الأحداث سنة ١٨٤٢.

وفي عهد الإمارتين، قوي نفوذ الموارنة وانتشروا في الداخل، كما اتّصلوا بالخارج، **محاولين كسر الطوق الثاني، طوق الجهل**، فكان أول عمل ثقافي تعليمي، بواسطة رومة ومرسليها، **انشاء المعهد الماروني** في رومة لتخريج الطلاب الاكليريكيين، وكان ذلك في السنة الأولى لتعاونهم مع فخر الدين، أي ١٥٨٥.

أمّا الطلاّب الذي تخرّجوا من المعهد المذكور، فمنهم من رجع إلى البلاد واهتمّ بالتربية والتعليم وفتح المدارس، ومنهم من بقي في الغرب يكتب المؤلفات ويُعلِّم الآداب واللغات الشرقيّة وفي طليعتها العربية، أو يجمع المخطوطات ويرتّب المكتبات في كبرى الجامعات،

في رومة وفلورنسة وتوسكانة وباريس. وبفضل هذا الجهد المزدوج تمّ عمليًا وصل الشرق بحضارة الغرب ووصل الغرب بحضارة الشرق.

في هذا الوقت أيضًا، كان المرسلون الذين أوفدهم البابوات لتفقّد أحوال الموارنة، في نهاية القرن السادس عشر، **قد أحضروا المطبعة الأولى** إلى دير مار انطونيوس-قزحيا في الشمال. وقد بدأت فعليًا بالعمل سنة ١٦١٠، أي نحو مئتي سنة قبل ان يأتي نابوليون بالمطبعة إلى مصر، وكانت هذه المطبعة في أساس نهضة بلاد النيل الأدبية والفكرية. وبفضل هذه الإنجازات **دخلوا عصر الحداثة، ونشروا العلم والمعرفة في محيطهم العربي وأسهموا فعليًا في نهضته ونهضة اللغة العربية**، التي كانت قد رزحت تحت سيطرة اللغة التركيّة. كما أسهموا فعليًا في تحطيم قيود الجهل والأميّة.

يتحدّث الإرشاد الرسولي: «عن التضامن مع العالم العربي» وكأنه يصف هذه المرحلة من تاريخ لبنان. ويقول: «ان مسيحيي لبنان ومجمل العالم العربي، الفخورين بإِرثهم، يساهمون بنشاط في إِكمال الثقافة»(...). «واود ان اؤكد على ضرورة محافظة مسيحيي لبنان على صلات التضامن مع العالم العربي وتمتينها. وادعوهم إلى اعتبار اندراجهم في الثقافة العربية، التي طالما ساهموا فيها، موقعًا مميّزًا ليقودوا، مع مسيحيي البلدان العربيّة الآخرين، حوارًا حقيقيًا وعميقًا مع مؤمني الاسلام. ان مسيحيي الشرق

الاوسط ومسلميه، وهم عائشين في المنطقة نفسها، وعرفوا في تاريخهم ساعات مجد وساعاتِ شدّة، مدعوون إلى ان يبنوا معًا مستقبل تآلف وتعاون، في سبيل تطور إنساني واخلاقي لشعوبهم. والى ذلك ، ان الحوار والتعاون بين مسيحيي لبنان ومسلميه يمكن ان يساعد على تحقيق المسعى نفسه، في بلدان اخرى»[٨].

اهمية الإِرشاد الرسولي الكبرى تكمن في هذا الخطاب المباشر من قداسة البابا لكل فرد من افراد الكنيسة، وفي احترامه الإِنجازات الماضية نموذجًا لبناء المستقبل[٩].

٦ – فكرة الوطن التعددي

منذ ذلك الحين بدأ الموارنة بالتفكير الجدي بإرساء الأسس لبناء وطن تعدّدي يضمن الحريات الأساسيّة للجميع، وكانت الكنيسة هي الأم والمعلّمة والحاضنة والموجّهة لكل هذه الإنجازات الأساسية الهامة.

فالنظام السياسي التعدّدي الراهن إذاً، ليس وليد القوى

(٨) Exhortation Apostolique, Une Espérance Nouvelle pour le Liban, pp. 149-150, nº 93.

(٩) راجع مقال الدكتور كمال الصليبي عن الموارنة العرب، صحيفة «النهار»، بتاريخ ٢٧ ايلول ١٩٩٧، ص ١٥ .

الخارجيـة. انه وليد نضـال الكنيـسة المارونية والشعب مـعاً حتى لا يخضعا لنظام الذميّة وليعيشا ايمانهما بحرية ويحطّما طوقي العزلة والجهل. لِذا عقد الموارنة التحالفـات الداخلية مع الطوائف الإسلامية والدرزية التـي كـانت ترغب في ذلـك، واتّصلوا بالغــرب ووصلوا مجتمعـهم الشرقي بالحضارة العالمية وكســروا مبدأ الدولة الدينية، كمـا كرّسوا مـبدأ الدولة العلمـانيّة التعـددية ليتمـكّنوا من ممارسة عقيدتهم الرسولية.

يحاول الدكتور إِدمون ربّاط فـي كتابه «التكوين التاريخي للبنان السياسي والدّسـتوري»، ان يحلّل الواقع اللبناني التعدّدي فيُـرجِعُهُ إلى العناصــر الاولى المكوّنة فـيقـول في اختـصـار: ان لبنان مـدين بوجوده للـطائفيّة، فلــولاها لما كان، خلافًـا للرأي السائد منـذ إِنشاء الدولة اللبنانية، على أنها من صنع الانتداب أو أنهـا خليفة الحضارة الفينـيقيـة. فالطائفـية في نظر ربّاط، باعـتبارهـا نظامًا اجتـماعـيًا سـوسيـولوجـيًا، هـي وليدة الدولة والشـريعـة الاسـلاميـتين، أو بالأحرى، هي وليدة تطبيق جامد لهما منذ قيام الدولة العباسية حتّى عهد التنظيمات سنة ١٨٣٩ وما يليها[١٠].

---

[١٠] في حلقـة دراسية نظّمـتهـا «الندوة اللبنانية»، بـتاريخ ٢٩ آذار ١٩٧٤، عن كتاب الدكتور رباط وفي حضوره، اجبتـه بأن «الطائفية عندنا هي وليدة لبنان الطبيعي والبشـري وليس العكس. ولبنان هو السبـب وليس النتيجـة. وقد تكون الطائفـية التي تولّدت عنه قد أسـهمت في تطويره، ولكنه كان قـبلها ويبقى بعدها. فـقبل ان يصـبح الشـرق مـسيـحـيًـا، ألم يكن لبنان مـوئلاً للاقليـات الوثنيّـة؟ حـتى ان الامبـراطور يوليانوس (٣٦١ – ٣٦٣) عندما اراد بعث الوثنيّـة وإِحياءَها، بعـدما

هذا النظام الطائفي يختلف في لبنان الحديث عنه في الدول الإسلاميّة: ففي تلك، كان محصورًا في أهل الذّمة، باعتبار ان المسلمين هم الأمّة، أي شعب الدولة، والباقون هم في ذمّة الدولة الإسلامية. أما في لبنان، فقد شمل المفهوم الطائفي العائلات اللبنانية المختلفة، بما فيها السنّة. فالفرق شاسع بين تكوين لبنان، المبني على التعايش بين الطوائف من دون سيطرة الواحدة على الأخرى، وبين تكوين الدول الإسلامية المجاورة حيث أهل الذمّة لا يحتلون سوى المرتبة الثانية في الدولة.

النظام الطائفي اللبناني الراهن، إذًا، ليس وليد الانتداب الفرنسي ولا نتيجة النظام العضوي (Règlement Organique) الذي وُضع في مرحلة ١٨٦١ – ١٨٦٤، ولو انّه ازداد متانة بعده واكتسب اعترافًا دوليًا.

هذا النظام اللبناني، أو هذه الذات اللبنانية الراهنة، هي وحدة

تنصّرت الامبراطوريّة الرومانيّة مع قسطنطين (٣٠٦ – ٣٣٧)، لم يجدها حيّة تُبعث الا في بعض اماكن جبليّة نائية من لبنان، مثل أفقا، فقرا، دوما، بعلبك...ولما عمّت المسيحيّة الشرق، ألم يبقَ لبنان موئلاً للأقليات المسيحيّة التي لم تكن على دين بيزنطية؟ ولما تحوّل الشرق مسلمًا، ألم يبق لبنان مُعتَصَمًا للأقليات المسيحيّة والمسلمة التي ليست على دين السنة؟ وحتى يومنا هذا، بقي لبنان على دعوته هذه موئلاً للأقليات التي افرزتها المنازعات الدينيّة والعنصريّة والسياسيّة: فالمحمدي في لبنان هو غير المحمدي خارج لبنان. والمسيحي في لبنان هو غير المسيحي خارج لبنان. عدوّهم المشترك هو الظلم، عدو حريتهما، لأن الظلم لا دين له، ولا عصب ولا لون». (صحيفة «النهار» و «الاوريان – لوجور»، الاحد ٣١/٣/١٩٧٤).

اجتماعية، برزت إلى الوجود منذ عهد فخر الدين الأوّل، على اثر الفتح العثماني سنة ٥١٦. وأسهم في تكوينها عنصران أساسيان عضويان هما: **الكنيسة المارونية والطائفة الدرزية في شخص** الأمير فخر الدين. والى جانب هاتين: الكنيسة والطائفة، تمكّنت بعض الطوائف الأخرى من أن تجد لها ملجأ في لبنان، **فكان النظام التعدّدي واقعًا حياتيًا. هذا هو الانجاز الإنساني الكبير الذي حققته الكنيسة المارونية**، التي كانت، حتّى تلك الساعة، الأم والمعلّمة والقائدة لهذا الشعب.

٧ – حلم الاستقلال

وعندما تحقّق حلم الكنيسة المارونية، بإعلان دولة لبنان الكبير، في أول أيلول سنة ١٩٢٠، وبعدما أُقرَّ لهذه الدولة بدستورٍ جعل منها جمهورية مستقلّة، «قامت الجمهورية، على حدّ قول كمال الصليبي، تجسّد الفكرة التي نادى بها الموارنة، وتحلّ مكان الكنيسة المارونية في القيادة الوطنية. لذا كان من الطبيعي ان تستمرّ الكنيسة المارونية في اهتمامها بالشؤون اللبنانية العامّة والغيرة على الكيان اللبناني الذي سعت جهدها عبر القرون إلى تحقيقه. إلاّ ان الفكرة اللبنانية، وإن يكن الموارنة هم الذين دعوا إليها في الأصل، تفترض مبدئيًا ألا يكون لبنان وقفاً على الموارنة وحدهم، بل لجميع اللبنانيين على السواء، شرط ان يتحمّل الجميع مسؤولياتهم تجاه الوطن

اللبناني والقيم الإنسانية التي يرتكز عليها. وقد شاءت الأقدار ان تكون، من ضمن مسؤوليات الطائفة المارونية، مهمة حمل الرسالة اللبنانية عبر قرون طويلة مظلمة من تاريخ الشرق، ونَقْلِها إلى أبناء البلاد عندما سمحت الظروف بذلك ...».

٨ – النداء – الأمنية

ثم يُنْهي الدكتور الصليبي بحثه بهذا النداء-الأمنية: «فالموارنة الذين تمكّنوا عبر العصور، وهم الشعب الصغير، من المحافظة على هويتهم التاريخية عن طريق الثبات في الموقف، والكفاح المستمرّ ضدّ الجور، والتعلّم من الأخطاء، والحكمة في انتقاء الأصدقاء والحلفاء، والاستعداد للتفاهم مع الغير، والوفاء لكل من مدّ إليهم يومًا يد المساعدة وأظهر نحوهم التفهم والعطف، تمكّنوا في الوقت ذاته، دون تصوّر أو تصميم، من المحافظة على حق الإنسان في الحرية والعيش الكريم، ومن المساهمة في خلق وطن يضمن هذا الحق لأبنائه. والجمهورية اللبنانية التي تجمع اليوم بين اللبنانيين على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم تستمر، عن وعي، في حمل الرسالة التي حلمها الموارنة في الماضي تلقائياً. وقد تأتي ظروف بعدُ تسمح للبنانيين بأن ينقلوا هذه الرسالة إلى غيرهم»[11].

[11] – كمال الصليبي، «الموارنة، صورة تاريخية»، ملف «النهار»، العدد ٤٠، كانون الثاني ١٩٧٠، ص ٤٧.

هذا النداء – الامنيـة للدكتـور كمـال الصليبي يتطابق تمامًـا مع امنيـة قداسـة البـابا في خاتمة كـلامـه على «التـضامن مع العـالم العـربي»، اذ يقـول : «ان الحوار والتـعـاون بين مـسيـحـيي لبنان ومسلـميه يمكن ان يـساعد على تحـقيق المسـعى نفسـه، في بلدان اخرى».

أما عناصر هذه الرسالة التي تكوّنت للموارنة عـبر أجيال وعهود من المحن والمعاناة الطويلة، فنختصرها في خمس نقاط، هي:

أولاً : النظرة الروحـيـةالى الكون. يؤمن الماروني بالصـلاة وسيلة فعالة ويثـابر عليها اقتداءً بروحانيـة الناسك مارون ورفاقه. فالموارنة لم يكتشفوا يسـوع الإله من خلال الفلسفة ولكن من خلال الإيمان التراثي، إيمان الآباء من ابراهيم حتى مارون حتى شربل.

ثانيًا : البساطة والعفوية في العيش. يرضى الماروني بالعيش القشف، وحتى بالفقر والمهانة، ولا يُغَيِّر طبعَه الغنى والنفوذ.

ثالثاً : السعي الدائب نحو **الأصالة الروحية والحضارية** مهما ألحّت مغريات الحداثة والتقدّم.

رابعًا: الاحترام العـميق للإنسان والحرية والقيم الإنسانية، مصدره الإيمان بإنسـانية يسوع الكاملة التي تكوّن الموارنة جـماعةً من أجل الدفاع عنها.

خامسًـا: الارتباط الوثيق **بالكنيسـة المسيحيـة الكاثوليكية** الجامعة.

٩ - الكنيسة المارونية والسياسة

أما نوعية العلاقة بين الكنيسة المارونية والسياسة، فنختصرها في بعض ثوابت تاريخية، أهمها:

- الكنيسة المارونية ما تعاطت ولن تتعاطى السياسة مباشرة. هي ليست كنيسة وطنية بالمعنى الحصري والتاريخي للكلمة. **كما أنها لم ترتبط بأي نظام سياسي، ولم تعمل لأي وطنٍ معيَّن، ولكن تفتيشها عن الحرية ربطها بالوطن اللبناني الحصين.** همُّها الوحيد طيلة تاريخها كان ولا يزال تحرير بنيها وشعبها وإعطاءهم الظروف الملائمة لممارسة عقيدتهم وقناعاتهم الدينية. تمامًا كما ذكر الإرشاد في كلامه على «الإلتزام السياسي». قال: «ان الكنيسة التي، بالنظر، إلى مسؤوليتها وصلاحيتها، لا تمتزج باي شكل بالجماعة السياسية وليست مرتبطة باي نظام سياسي، هي في آنٍ علامة وخلاص لتسامي الشخص البشري». ورسالتها الاولى هي قيادة الناس إلى المسيح، الفادي والمخلص. لذا لا يعود اليها الالتزام مباشرةً بالحياة السياسية؛ وبالفعل، «هي لا تملك حلولاً تقنية، (...) ولا تقترح انظمةً أو برامج اقتصاديّة وسياسية، ولا تُبدي تفضيلا لهذه أو تلك، شرط ان تكون كرامة الإنسان محترَمة ومترقّية كما ينبغي، وان ترى بنفسها المدى الضروري مُفسَحًا امامها لإِتمام خدمتها في العالم». إِلا ان الواجب يحتِّم على الكنيسة التركيز بلا كلل على المبادئ التي تستطيع وحدها ان تؤمّن

حياةً اجتماعيّة متناغمة، تحت نظر الله»[١٢].

– الوطن بالنسبة اليها، هو الإطار الصالح والسليم الذي يكفل المساواة والحقوق التي تساعد الإنسان على بلوغ كمال إنسانيته، لأن كمال الإنسانية يقرّب من المسيح الإنسان الكامل.

– الإيمان بتجسّد الإله، العقيدة التي أخذ بها الموارنة منذ اللحظة الأولى لتكوينهم جماعةً. والتركيز في نوع خاص على كمال طبيعة المسيح الإنسانية، يُحتّمان على كنيستهم أن تكون حاضرة في المجتمع، فاعلة فيه وملتزمة مشاكل إنسانه وقضاياه. فالمسيح دعا كنيسته كي تنتشر في العالم وتدخل مثله تاريخ البشر، وان كانت تتخطّى حدود البشر زمانًا ومكانًا. الكنيسة طاقة دينامية، ليس لها موقف حيادي أو سلبي من العالم بل موقف إيجابي، يُطلب منها أن تحوّل العالم إلى المسيح، وتصوّب وجهته وأفكاره وتصرفاته نحو ملكوته، وليس لها ان تطلب أكثر، لأن الفداء والخلاص هما من عمل المسيح. عليها السعي والجهاد وعليه هو النتائج والثمار.

قد يعتبر البعض ان مهمّة الكنيسة دينية وحسب، ولكن أليس من واجب الدين ان ينظّم علاقة الإنسان بربّه وبأخيه الإنسان وبالمجتمع؟ فمهمّة الكنيسة في النهاية روحية وأخلاقية معًا وتتناول النشاط الإنساني بكامله. وأما القول بأن دور الكنيسة روحي

---

[١٢] Exhortation Apostolique, une Espérance Nouvelle pour le Liban, pp. 174– - 175, nº 112.

وحسب، فهو قول يتجاهل حقيقة الإنسان المركبة، وحقيقة الكنيسة ومهمّتها الأساسية، لأن كلّ ما هو إنساني لا يجب أن يكون غريبًا عن اهتماماتها.

- الكنيسة المارونية اعتبرت، منذ التأسيس، السياسةَ والأخلاقَ أمرين متلازمين. فالذين من ابنائها يريدون معالجة السياسة والأخلاق موضوعين منفصلين يبقون بعيدين عن روحها ولن يدركوا أبدًا أيًا من هذين البُعدين والعِلْمين.

- على ان الكنيسة المارونية تعلم حق العلم ان التزامها أمور أبنائها لا يجب مطلقًا ان يطفئ فيها شعلة مسكونيّتها ورسوليّتها. فهي مسيحيّة، شاملة، قبل أن تكون مارونيّة، والحفاظ على الذات لا يكون مسيحيًا حقًا إلا بمقدار استعداد الإنسان لأن يذوب ويفنى في سبيل الغير على مثال يسوع. فإذا كان في فنائنا حياة للآخرين لكي يخلصوا، نكون قد بلغنا ملء مسيحيّتنا. إن الكنيسة المارونيّة تتبنّى قول الكاهن أوروز (٤١٧)، عندما قوّض البرابرةُ أساساتِ الإمبراطورية الرومانية الأوروبية، واجتاحت قواهم الكنيسةَ الأوروبيّة مخلّفة وراءها الدمار والذعر واليأس والشكوك، حتى اعتقد ابناؤها بأن نهاية العالم قد دنت، فكتب لهم من منفاه يقول: «من يدري، لعلّ البرابرة لم يتمكّنوا من الدخول في الإمبراطورية إلا لتمتلئ كنائس المسيح في كلّ مكان، في الشرق وفي الغرب بهذه القبائل التي لا يُحصى عددها! أفلا يجب ان نُسبّح برحمة الله ونشيد

بحمدِهِ إذ إنه باندثارنا وفنائنا تَعَرَّفَتْ أممٌ وشعوبٌ لا تُحصى إلى حقيقة يسوع المسيح التي لم يكن من الممكن الاتصال بها والتعرف إليها إلا بهذه الطريقة»[١٢].

في مقال للأديب عباس بيضون، نُشر في «ملحق النهار» بتاريخ ٢٢ شباط ١٩٩٧، بعنوان «مَن يدعو الموارنة إلى التخلّي عن لبنان»، تَقْييم لِعَمَل الموارنة السياسي والحضاري يعجز كثيرٌ من الموارنة عن فهمه والتعبير عنه بأبلغ وأفصح مما فهمه وعبّر عنه هذا الأديب. قال:

«أعطى المسيحيون لبنان نظامه، فهم مركز الدولة والاقتصاد والسياسة والثقافة واساليب العيش وانماطه. وهذه جميعها تعكس علاقاتهم وتفاعلهم مع المحيط والعالم. الا انهم والحق يقال، لم يستبدّوا بها فأمكن ان تستقطب سواهم وتغدو لغيرهم. المهم ان المسيحيين تماهوا مع لبنان وتم لهم وحدهم ان يجعلوا من تاريخهم وثقافتهم تاريخًا سائدًا وثقافة سائدة بحسب المصطلح الماركسي. فنحن لا نجد شيئًا يحمل اسم لبنان الا وهم مرجعه...». ثمّ يكمل:

«من الصعب بعدُ العودة إلى ما وراء الدولة المارونيّة أو الدولة كما صاغها الموارنة، الا في دعوةٍ إلى الخلافة أو إلى لبنان الصغير. من الصعب ايضا العودة إلى ما وراء الأدب والفن الحديثين الا في دعوة محافظة لا يتبنّاها السلفيون انفسهم. ولمن يحب المفاخرة من

---

[١٢] OROSE, dans «l'Histoire contre les Païens», VII, 41 cité dans Schnürer,– Eglise et Civilisation au Moyen-Age, t.I, p. 152.

المسيحيين والموارنة نقول له ان الدولة اللبنانيّة والثقافة اللبنانيّة ارث مسيحي أو ماروني، الا ان ما هو أدعى إلى الفخر ان الدولة هذه لم تتحول مشيخة مارونيّة، والثقافة تلك لم تصبح لهجة اقليميّة...».

ثمّ يختم مقاله : «لست مارونيًا، لكنني اعرف ان الموارنة كما جرّوا بقية اللبنانيين إلى صعيد الدولة والثقافة المشتركة، يمكنهم جرهم جميعًا إلى ثانوية مماثلة والى سيادة اللهجة المحليّة والاقلوية من دون اي عام أو مشترك. اذا بدأ طبل الموارنة يمكنك ان تسمع طبولاً في كلّ مكان. لا تنقلبوا على انفسكم، اصمدوا قليلاً ايها الزملاء».

قرأته وانا اكتب هذا البحث، وحرصت على ان أنوّه به مؤكّدًا لهذا الأديب الكريم ان «طبل الموارنة» سيظلّ يقرع للبنان وللحريةِ وللإنسان. وقد كتبتُ يومًا، في ١٩ أيار ١٩٧٤، مخاطبًا بعض الموارنة الذين جهلوا تاريخهم: «إن إهمال التاريخ والتراث، وترك القيم الروحية والخلقية ... ليسا من مصلحة أحد. واعلموا جيداً بان يومًا وُجدَ في التاريخ طابقت فيه دعوةُ الموارنة ، إلى الاصالة والحرية، دعوةَ الجبل اللبناني، إلى الصمود والاستقلال. فكانت الجمهورية اللبنانية هذا الموطن – الحصن، الذي يكفل لهم ولغيرهم الحريّة والاصالة والاستقلال. وان جاء يومٌ –لا سمح الله– خالف فيه الموارنة دعوتَهم، فالجبل اللبناني لن يخالف، دعوته الدهرية، بل يبقى حصنًا للحرية والديمقراطية في هذا الشرق. يومئذ تزولون أنتم، ونزول نحن، وتبقى المارونية منهجيّة لبنان... ».

في النهـاية، يجب ألا يغـيب عن بال المـوارنة انهم هم أيضًـا أبناء البطريرك اغناطـيوس الانطـاكي الذي تمنّى يومًـا ان تطحنه أنيـاب الأسود ليتحوّل خميرةً للمسيحية في هذا الشرق، كما هم أيضًا أبناء مـارون وشــربـل والقـديسين الكثــيـرين الذين عطّـرت صلواتُهم وأنفاسُهم أجواءَ هذه الربوع الخيّرة!

المسيحية والتوتاليتارية [1]

مـــقـــدّمـــة

أنّى لي، انا رجل الكنيسة، فـضـلاًعن أنني راهب، ان «أتعدّى» على اختصاص رجال السيـاسـة والمعلّقين الصحافيين وأتدخّل في تحديد التوتاليتارية، حـتى لو في سبيل مقابلتها أو مقـارنتها بالتعليم الذي أورثَنَاه يسوع المسيح؟

إنّي لا أرمي إلا إلى تعريف **الظاهرة التوتاليتارية** وفقًا، إلى حدّ ما، للتصوّر الشعبي الذي لا يَغِشّ ولا يُغَشّ.

[1] محـاضرة أُلقيت بـناء على دعوة خاصـة من مركز مـونتوريول - كـابدفيل الثقافي في فرنسة، بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩٨٧. اذكر بالصلاة وانحني باحترام لذكـر الصديق المناضل والقاضي الكبيـر الدكتور روبير عـبدو غانم الذي عـاونني في شكل فعـال في صيـاغة هذه المحـاضرة كـما في مطالـعة «احكام الطائف»، خصوصًا لجهة القانون والدستور.

حَسَبَ هذا التصور، التوتاليتارية تنطبق خصوصًا على تلك الانظمة السياسية التي سأسرد أهمّها حسب الترتيب الزمني لظهورها في القرن العشرين، وهي: البلشفية، الفاشية، النازية، الماويّة، الناصرية، النظام الليبي وغيره من الاصوليات الحديثة.

ما هو مشترك بين هذه الانظمة، وفقًا للتصور الشعبي، هو هذا التأثير الساحق الذي تمارسه على الفرد في الداخل، والنزوع المخيف، للكثير منها، إلى الانتشار خارج رقعتها الاصلية بالف اسلوب واسلوب.

إنّ التوتاليتارية تحيط نفسها، بارتياحٍ بالغ، بسُورٍ شبيه بسور الصين، في حين تهدم، بالارتياح ذاته، اسوار الآخرين.

الأداة الاساسية في سياستها هي القوّة، وهي في لهفة متزايدة اليها. هي تَعُدُّ التباين في الرأي إجرامًا. وكل مقاومة لها في الخارج تحسبها خيانة. هذه كانت ذريعة "الجامعة الجرمانية" في الماضي تجاه الكثيرين من النمساويين الذين كانوا يقفون موقفًا وطنيًا، وهذا ما تذرّع به البعض إزاء الجبهة اللبنانية، بحجّة الانتماء المشترك إلى العروبة.

١ - الديموقراطيّة التوافقيّة

اسمحوا لي هنا، ان أُدرِج بين قوسين كبيرين ما طالما فكّرت به ويطيب لي عرضه امامكم.

إنّي قادم من بلد لم يكن قطّ من البلدان التوتاليتارية.

واليكم السبب:

ان ضيق رقعته، وطاقته البشرية وبنيته الاجتماعية - السياسية المتنوّعة والمتمايزة، لانها مؤلّفة من إتنيات غير متلاحمة وان متعايشة باستمرار، باعتبار بعضها مسيحية والاخرى اسلامية، هذه كلّها لا تتيح له، ان يلعب لعبة التوتاليتارية، حتى وان رغب في ذلك.

لا تأثيرَ للدولة على الفرد في الداخل، ولا طموح لها إلى منافع في الخارج.

هذا ما كانه لبنان.

يبدو ان الديمقراطية وحدَها هي التي تناسبه. لقد ابتكر واحدة خاصة به تنهد الى مثلها شعوب تعددية كثيرة ومارسها إلى حد انه كاد يقضي في سبيلها، كما نلمس ذلك اليوم.

لقد كانت ديمقراطيته من الافضل إتقاناً، الافضل كليًا حتى بالنسبة إلى البلدان الاكثر ديمقراطية حسب الرأي العام، والتي تظلّ

خاضعة في النهاية، للارادة العامة التي تقتضي شـرحًا وتفسيرًا خاصًا كل مرة ولكل حالة من الحالات.

واليكم وصفًا مقتضبًا الآن لديمقراطيته هذه.

أستشهد في هذا المجال بالقاضـي الدكتور روبير عبدو غانم الذي قام بـذلك في العدد ١٨/ ١٢/ ١٩٨٢ من صـحيـفة L'Orient- Le Jour اليومـية التي تصدر بالفـرنسية والتي قـد تكون الاكثر شـهرةً في الشرق الادنى.

بعدمـا لاحظ الكاتب كم ان العدالة مـستقلّة فـي لبنان والحريات العامة مـصونة، اجرى دراسة تحليلية وضـعية للمجتـمع السياسـي الذي، بتركيبته غير المتجـانسة، وبالحواجز الاجتماعية التي لا يمكن اختـراقها وتذليلهـا، يُفْقِدُ قاعـدةَ الاكثرية العـدديّة معناها، لأن هذه القاعدة، المنقـولة عشوائيًا عن الغرب، اذا طُبِّـقت عندنا بدقة، تحولت مصدرًا للنزاعات الاهلية السامّة.

على رغم ذلك، ان الدستور الساري منذ العام ١٩٢٦ كَرّسَ قاعدة الاكثرية على اساس الاتفاق بين الطوائف الذي قضـى، من جهته، بألا تُطَبّق هذه القاعدة، بل ان يُتفادى تطبيقُها خوفًا من احتمال ممكن في اللجـوء إلى العنف الذي قد تمـارسه طائفـة أو اتنية مـتضـرّرة. ان نموذج "اولسـتـر» (ايرلندة) أو "قبرص" يـعبّر، من هذه الناحـية، احسن تعبير عن ذلك.

هكذا اضطرّ لبنان إلى عدم تطبيق قاعـدة الاكثرية بشكلها البدائي البسيط. ومع ذلك بقي لبنـان نسبيًا اكثر ديمقـراطية بما لا يُحدّ من كلّ الديمقـراطيات الاخـرى. ويتسـاءل الكاتب: "كـيف توصّلوا إلى ذلك؟ وبأيّ اسلوب؟" ويجيب على هذين السؤالين بالفقرات التالية:

... "تَمَّ بلوغُ ذلك ببسـاطة، بمراعـاة عفـوية، **لواقع الانتـماء الوطني المتـعـدّد الذي لا يمكن تفـاديه، ثمّ، في خـطوة ثانيـة، بإلباس هذه النتيجة الوفاقية، شكليةً دستوريةً بغيةَ تشريعها، بتطبيق ظاهري لقاعدة الاكثرية**".

واضع الدراسة، يذكر بالتـفصيل طريقة حصول العـملية. يقول: «... انّ ممثلي المجموعات غير المتـجانسة... يتفاوضون بادئ ذي بدء في محـادثات منفردة، بعـيدًا عن نطاق المناقـشات، ليصلـوا بطريقة شبه رسمية إلى تسوية معيّنة – خارج كلّ اعتبار لاكثرية أو اقلية – ثم يكرّسون، من ضمن هذا النطاق، خلاصة التسوية باقتراعٍ رسمي يمكّنهم من تكوين اكـثرية غـالبًا مـا تصل إلى شبـه اجمـاع. وهكذا يكون القـرار النهائي قد نشـأ، في الواقع وفي العمق، خـارج تحكيم قاعدة الاكثرية، بيد انه يكون قد ثُبُتَ شكليًا، اعتباره احترامًا ظاهريًا لهـذه القـاعـدة... قـرارٌ كـهـذا ... لا يـكون سـوى ثمـرة تفـاوض "وحوار" ... لتفـادي الاخذ بقاعدة الاكثـرية التي كان من الممكن ان تؤدّي إلى انشقاق بين المجموعات المعنية.

«... هذا النهج يبدو على صعيد العدالة بين الافـرقاء، اكثر حرصًا

على الانصاف من القـاعدة الفَظَّة التي تُعنى بالاكثرية. هو مـشاركة تُماثل في طبيعتها تلك الاتفاقات والمعاهدات التي تُبْرِمُها، بين بعضـها بعـضًا، المجـموعـات الوطنيـة المتنوعة أو المتـميّـزة. **انه قريب من الحلول التي تقترحها التعدّدية. وهو الاقرب كذلك إلى ما نسمّيه الديمقراطيـة الدولية او الديمقـراطية التوافـقيّة أو ديمقـراطية الجمعيات السياسية** (Diètes) في العهود الغابرة. انه مُرْضٍ بمقدار ما يؤمّن اتفاقًا مدنيًا، حتى وإنْ هشًا ووقتيًا، كما هي الحال غالبًا.

«بيـد انّ هذا النهج تشوبه مـخاطر... لافـتقـاده تحكيمًـا مؤكّـدًا وتلقائيًا من شأنه لجم كلّ خلاف مُتَوَقَّعٍ في المهد. هنا تكمن، وهذا ما نعيه جيّدًا، النتيجة الحتمية لكل فشل في التفاوض.

«ولأن تكوين شـعب الدولة اللبنانـية هو هكـذا... لن يكون ممكنًا اطلاقًا، في كـلّ مشروعٍ تعـديلٍ للنظام السيـاسي، إلا ان نولي هذه الوقائع اهتمـامًا خاصًا مهمـا تكن حلول التسوية صعبـة. امّا البديل الآخر، فسـيكون بكل بساطة قذف بعضنا بعضًـا من النافذة. يقيني ان لا أحد يفكّر بذلك... " (نهاية الاستشهاد).

اعـتقـد بان طريقتـنا هذه، نحن مسـيحـيي لبنان، في وعي آليـةِ مؤسساتنا وتحرّكها، تفي بالمطلوب وتخدم الوفاق.

في المقـابل لهذا الخطاب، نـطالع، في صحـيفـة L'Orient - Le Jour نفسها، عدد ٢٣ ايلول ١٩٨٧، التحقيق والاحاديث التالية التي صرّح بها المرشد الروحي لـ «حزب الله»، وهو منظّمة سـياسية مؤلّفة من

المسلمين الشيعة، ظهرت في لبنان اثناء المدّ الخميني، وهي تُعِدُّ لمستقبل سياسي خطير، بتطبيقها مبادئ الجمهورية الاسلامية الايرانية الاولى، التي يرى فيها البعض، بل الكثيرون، طليعة الاسلام المتجدّد الخالص والمتشدد.

اليكم مقولات المرشد الروحي: "ليس ثمّة اسلام عراقي وآخر ايراني. هناك حركة اسلامية عالمية تهدف إلى دفع الاسلام في طريق النصر في كلّ مكان... إلى هذه الغاية نطمح... لهذا نوجّه كلامنا إلى مسلمي العالم اجمع: "نعرف بان لكلّ دولة، لبنانية، عراقية، سورية وايرانية، خصائصها المميّزة، لكن هذه الخصائص يجب ان تنضوي في الخط العام. فعلى الاسلاميين اللبنانيين ان يُكمّلوا الاسلاميين العراقيين والسوريين والتونسيين والمصريين ليجابهوا معًا الاستحقاقات الجوهرية... عندما نستولي على الارض، هنا وفي الخارج، نستطيع ان نناقش التفاصيل... فانتصار الاسلام هو صكّ الموت إلى الحضارة الغربيّة " . (نهاية الاستشهاد).

من التباين بين هذين الخطابين يبرز، على ما اعتقد، التناقض الفكري الذي نتبيّنه في الشرق بين اسلام خالص ومتشدّد، وديمقراطيّة بمعناها الواسع تَغْرِزُ جذورَها في النزعة الإنسانية.

٢ - المسيحية والتوتاليتارية

وهكذا أُقفلُ القوس الذي فَرَضْتُه عليكم وأعود إلى موضوعي في المسيحية والتوتاليتارية: التوتاليتارية، كما فهمناها احيانا من بعيد، واختبرناها احيانًا عن قرب، نحن مسيحيي الشرق وعلى الاخص مسيحيي لبنان. والمسيحية كما يجب ان تُفهم حسب ظنّنا.

فالمسيحية، ولا سيما مسيحية الغرب، لم تنجُ دومًا من ملامة الوقوع في نوع من التوتاليتارية قبل الكلمة.

بيد ان المسيحية كانت تختزن في ذاتها بذورَ بل قوى التغيير الناهد اجمالاً صوب الافضل، واحيانًا، مع الاسف، صوب الاسوأ.

فالحركة «الإنسانية» و«النهضة» الاوروبية و«الاصلاح الكنسي»، وبعدها مؤلفو الموسوعات والاشتراكية وحتى الشيوعية، واجمالاً كلّ ما يسوّغ للفكر السياسي أن يرتدّ على ذاته بالنقد، ويعيد النظر ويصحّح اخطاءه، هؤلاء جميعهم كانوا، بطرقٍ خفية وغامضة، انبثاقاتٍ من المسيحية نفسها. فقيمة المسيحية تتأتّى من انها تَغْرِزُ في المجتمع البشري، من خلال القيم التي تربطها بالإنسان من حيث هو إنسان على صورة الله، الافكارَ والتصوراتِ التي تجعل الحاضر يثابر على اصلاح الماضي، بل احيانًا على التنكر له. إنّ فحص الضمير والتوبة والندامة ليست كلمات فارغة في المسيحية المُعاشة، بل هي مفاهيم حية تدفع إلى التغيير. هي تسمح

ابدًا ودومًا، بكتابة صفحات جـديدة تنقض الصفحات القديمة، لا بل تنبذها.

إنّ "التغيير" أو إعادة النظر حـاضرًا في مفاهيم الماضـي، لا يبدو ممكنًا ولا معقولاً لدى الشيوعية ولا لدى الاسلام الخالص والمتشَدِّد اللذَين، من خلال اهتـمامهمـا باقامة النُّظُم لحـياة مجتـمع إنساني، يظهران كـلاهما بهذه الصـفة توتاليتاريَّين، كلّ مـنهما في مقـوماته الخاصّة.

فـالتعـاليم الاسـاسـية في كـتب الإسـلام المقـدّسة، والمؤلّفـات الماركسيـة – اللينينية التي أُضفـيت اليها صفة القـداسة، والتي هي على التوالي اساس مـعتقد كلّ منهما، هذه التعـاليم ليست قابلة لاي مراجعة وتعديل. ان الامر يخـتلف بالنسبة إلى الكتب الانجيلية التي تضع الإنسان، والإنسان وحده، في المرتبة الـعليا وتعتبره، في سلّم القيم، متمتّعًا بتفـوّق هائل على المجتمع. انّ البشر من حيث هم بشر في المسيحـية، يبنون المجتمع الذي يـناسبهم، امّا في التوتـاليتارية، فالمجتمع يبني الافراد الذين يناسبونه.

بون شاسع، إذْ إنّ المسيـحية تودّ ان تُفَصِّل المجتمع على مـقياس الإنسان، بينما التوتاليتارية تُخضـع الإنسان لما يلائم المجتمع.

من هنا، في ما يتـعلّق بالاسلام المتشـدِّد على الاخص، (النموذج التوتاليـتاري الذي نعرفـه اكثر مـن سواه) "الامّة" تعني المجـتمع المثـالـي المؤلّف من المسلمين كـافـة، من كلّ عـرق وفـي كلّ مكان،

المترابطين فـي جسم سيـاسي واحد، ماديًا وروحـيًا، والخـاضعين لسلطة واحدة. حـيثما يوجـد هذا الجسم أو جزء منه، يوجـد ايضا، سياسـيًا، "عالم السلام" الذي هو نقيض "عـالم الحرب" الموجودُ في كلّ مكانٍ لم يَحِلَّ فيه "عالمُ السلام".

وهكذا "عالم السلام"، أعني الاسلام الخـالص نفسه، مدعو إلى السيطرة على "عالم الحرب"، اعني على العالم اللا اسلامي.

لنطـرحنّ سـؤالاً عـابرًا: هل إنّ افـكار "الكومـينتـرن" و"الكومـينفورم" هي إلى هذا الحـد متـعارضـة، من ناحيـة هدف السيطرة هذا، مع افكار "عالم السلام" و "عالم الحرب"؟

إنّ الاصوليـة الاسلامـية – اكاد اقـول التوتاليتـارية الاسلامـية بالقوة – هي النتاج الحتمي والمنطـقي لهذا التصور. إنّ حظوظها في التـفوق على انظمـة الدول الاسـلاميـة التي تكوّنت وفـقًا للنمـوذج الغربي – اعنـي النموذج المسيـحي في النهاية– تبـدو في معـرفتي كبـيرة جـدًا، لان تاثيرها الطاغي على الروح الاسـلاميـة، مع كلّ ما تنطوي عليـه من ايحاءات رضـعتـها مع الحليب، اكـثر فـعاليـة من مـفهـوم الديمقـراطيـة الباهت. مـا يبـعث على الدهشـة ان في الصحـافة العالمية في اليـوم الذي زُفّت فيه بشـرى تحقيق افتـتاح "المترو" الاول فـي العالم الاسلامي والافـريقي، في القـاهرة، كان امير الاصـوليين المصريين يذكّر بمبادئ الاصوليـة التي هي مبادئ كلّ الاصوليين الاسلاميين اينما وجدوا. ان امير الاصوليين علي عبد

الفتّاح حين يطالب باسم الايمان، بالحق بمطاردة الرذيلة والفساد، بالقوة، في اماكن الخطيئة بالذات، وبحَظْرِ الشر بالقوة عند الحاجة، يؤكّد قائلاً: "إنْ يكن الدفاع عن الدين اصولية، فأنا اصولي... وإنْ يكن الجهاد من اجل الاسلام واحياء الخلافة ارهابًا، فإنّي استشهد العالم بأنّي إرهابي "[٢].

الايديولوجي، في هذا الفريق من الاصوليين، يفسّر[٣] الحوار بأنّه «غير ممكن بين المدافعين عن الشريعة الاسلامية الذين يعتبرون ذلك قضيةً ايمان، والذين يواظبون على الدفاع عن الحق الثابت»، وبأنّ «الخلاف كلّي مع الذين تَغَذَّوا من مائدة العلمنة...، هذه المائدة التي ليست سوى تمييزٍ وتفريق بين السلطة الروحية وبين السلطة الدنيوية.

يضيف اخيرًا إنّ "الاصوليين يرفضون الديمقراطية في الشكل والجوهر، لا من اجل مبادئها في الحرية والمساواة والعدالة، بل لانها تَكِلُ حكم الشعب إلى الشعب، بينما حكم الشعب بالنسبة إلى الاسلام ينبثق من الله". وهكذا ننزلق من التوتاليتارية إلى التيوقراطية.

---

[٢] صحيفة الأوريان- لو جور، بتاريخ ١٩٨٧/٩/٢٦.

[٣] المرجع نفسه.

٣ – أطول خبرة في التعايش

نحن مسيحيّي لبنان، تمرّسنا مع الاسلام عقيدة سياسية، في أطول اختبار مُورِس في العالم.

عندما كان الاسلام ينطلق احيانًا لاجتياح جنوب اوروبة واحيانًا شرقها، كان يوجّه همّه إلى غيرنا أو يجد نفسه مضطرًا إلى الالتفاف حولنا، إذ كانت محاولاته للقضاء علينا تَمُرُّ حولنا. زد على ذلك، أنّنا حوصرنا من بعيد بحيث ان نظام ملكيتنا العقارية استمرّ طوال قرون، وهذا ما يبعث على الدهشة، مرتبطًا باحكام القانون البيزنطي ليوستنيانوس، ولم يرتبط قط بالقانون الاسلامي.

وُجدنا جزيرة مسيحية صغيرة ثابتة في بحر الاسلام، فاقتبسنا منه معرفة عملية واسعة. اننا نعرف بان الاصولية، اعني تطبيق الاسلام في صفاء مبادئه، هي انكفاء إلى الوراء وليست استمرارًا في التقدّم. والغريب انها ترتبط احيانًا بانتصارات الاسلام واحيانًا بكبواته. ومن الانتصارات والكبوات يمكن ان تتولّد الموجات الاصولية. فالخمينية التوتاليتارية هي وليدة انهزام الميول العلمانية للحكم البهلوي. كذلك نجاح اسرائيل هو الذي نشّط في الواقع فكرة الجهاد والحرب المقدسة. والناصرية على رغم ميولها العلمانية، لم تترسخ وتبلغ ذروة قوتها إِلا على اثر الضربة الغربية الفاشلة في قناة السويس.

في المساحة الضيقة حيث كنّا، نحن المسيحيين، على صلة دائمة بالاسلام، استطعنا ان نتحقّق من هذا التأرجح شبه المنتظم بين الانكفاء الظرفي إلى الوراء وبين التوثب إلى الامام. **إبّان الحكم الاموي مثلاً الذي اعترف لنا بالحق بخصوصياتنا، وفي العهد الاقطاعي لبني عسّاف، وفي عهود الامارات المعنية والشهابية، عملنا جنبًا إلى جنب مع هذه الانظمة في سلام واحترام متبادل وتعاون مثمر.**

في المقابل، تحت حكم العباسيين الذين جعلوا نظام الحكم مرتبطًا بالاسلام، ثم تحت حكم المماليك وبني سيفا والعثمانيين الذين اتبعوا النهج نفسه، اضطررنا إلى الانكفاء والمقاومة لضمان بقاء هويّتنا والحفاظ عليها.

إنّ الآفاق المستقبلية في ضوء الحاضر المعاش والتجربة السالفة، لا تترك مجالا للشك: إذ تتكوّن الآن موجة اصولية ضخمة لا تنفع معها الجدالات والحوارات الايديولوجية. لأن هذه الحوارات الايديولوجية لا يمكنها ان تقابل الايمان الذي يدفع هذه الموجة، والذي يؤلّف كلاً يختلط فيه السياسي والروحي من دون التمكن من فصلهما. وعلى المسيحي ان يقابل هذه التوتاليتارية بمحبة فاعلة، متحرّكة ابدًا، وارادة ذكية لتفادي الضعف، ولرفض عنيد لما يجب ان يُرفض، والصمود في وجه كلّ مشروع لإلغاء هويتنا المميزة.

ان مظاهر الضعف، واكثر منها العجز، مهما تكن متنكّرة تحت

اسم "حوار" أو "مناقشة" أو اي تسمية مماثلة، لا تسفر إلاّ عن انتصار قريب لهذه التوتاليتارية الزاحفة...

وحدها المحبة الثابتة والفاعلة والفطنة تملك بعض القدرة ازاءها، بالقوة ذاتها التي تستمدها من التجرد.

هذه المحبة اياها التي يجب ان تتبع الايمان المسيحي كما الظلُّ الحقيقة. لأنها، ولاجيال عدة، بقيت على اتصال دائم بهذا النوع من التوتاليتارية، **استنبطت اشكالاً مختلفة للتعبير عن ذاتها، كالشهادة الصامتة والخدمة الإنسانية والمثل**، كلّ مرّة قدّرتها العناية الالهية على إعطاء المثل. فاننا حَرَّمنا على ذاتنا الغيرة الدينية المفرطة التي تقتنص الناس اليها واستبدلناها بالمثل، والمثل وحده.

بالاضافة إلى ذلك، هذه المحبة استَلْهَمت الحكمة المتراكمة للحضارات المتعاقبة والمتجانبة التي شاءتها العناية الالهية ان تصقل هويتنا تدريجيًا، واننا لنجدها ممتزجة ومنصهرة، بعمل الزمن الطويل والمضني، بالتأثيرات الفينيقية والآرامية والكنعانية والمسيحية والهلّينية وبالطبع العربية -نعم العربية- واخيرًا المتوسطية.

فالمسيح لم يطلب من تلاميذه ان يمسحوا عن هويتهم لا رواسب الزمن الماضي ولا عدوى القربى والجوار. وعندما بنى كنيسته لم ينقض الناموس بل اضاف اليه روحًا جديدة، وعندما اورد مثل السامري الجار تكلّم عنه بانعطاف ومودة.

متسلّحين بهذه الهوية التي اكسبتنا اياها العناية الالهية، نريد ونُصرُّ على ان نمارس اليوم وغداً، تجاه التوتاليتاريات المحيطة، المحبة التي تُكمّلُ ايماننا. **فباحترامنا لمعتنقيها وبمحبتنا لهم، كما هم وكما يريدون ان يكونوا، ننوي نحن ان نبقى كما نحن وكما نريد ان نكون، بأي ثمن وعلى رغم كلّ شيء.**

خاتمة

" المسيحية والتوتاليتارية " موضوع الحديث، هاتان الكلمتان المتجانبتان، هذان المفهومان، يثيران حتماً وفي شكل حاسم عاطفة شفقة مزدوجة، وفكرة عمل مزدوج.

أقول: " شفقة مزدوجة "

شفقة على الضحية، والاصح، على ضحايا التوتاليتاريات بمقدار ما تُذَكِّر هذه الكلمة، في صورة رؤيوية، بقدرة تُخْضِعُ لخدمتها، بل احيانًا كثيرة لعبادتها الخاصة، الفردَ المستسلم لكل متطلبات قوته، ومن دون اي اعتبار متوجّب لحقوقه الطبيعية، ولا سيما الحرية، الملازمة لوجود الإنسان، خليقة الله التي ارادها على صورته.

شفقةٌ كذلك، على هذا النوع من الإنسان المُضَحِّي (الجلاّد)، الذي لا يعرف ما يفعل بصورة الله المقدسة، هذه التي ينبغي ان تبقى في

منجى من التدنيس.

لكن مهما تكن هذه الشفقة جديرة بالتقدير، لن تعادل سوى ردّة فعل داخلية عميقة، اذا لم تكن متوافقة ومترافقة مع العمل! فَضْلُ السامري يكمن في انه ترجم شفقته بالذات عملاً. فالمسيحي، الذي يعيش المسيح، لا يسعه ان يفعل غير ذلك عندما يتعلّق الأمر بضحيّة التوتاليتارية وجلاّدها. **هذا الجلاّد ينبغي ان نُوَعِّيه صراحةً إلى حقيقة انه منبوذ. فكل تسوية معه، بالنسبة إلى ضحيته، تصبح تواطؤًا إنْ لم يكن بالفعل، فعلى الاقل بالامتناع.** السكوت يبدو احيانًا مشاركة في التجاوزات والمظالم التي لم تُفضح. **كلّ ما يمكن ان يماثل، من قريب أو من بعيد، التحالف الصامت مع التوتاليتارية ينبغي ان يُحَظَّر**، إلا اذا قبلنا بان نصبح لها آلة، على الاقل، غير مباشرة.

إنّي خارج من صفوف شعب، قادمٌ من بلد، كلاهما مهدّدان بمشروعِ توتاليتاريةٍ مجاورة لا تهدف إلا إلى السيطرة والقمع. أيُّ **ضنىً ينتابنا، اذ نرى ونَحْضَر احيانًا – حتى غالبًا مع الاسف – العرض المؤلم لشهادات الاحترام والتقدير التي تؤدّى لهذه السلطة التوتاليتارية مع فقدان اي احساس بالآلام التي تعانيها الضحية!؟**

الذريعة المناسبة التي يقدّمونها هي ذريعة التهدئة.

ايّ ثمن باهظ لم يدفعه ضمير العالم المتمدّن في الاربعينات

تعويضًا عن الخطأ الفادح الذي ارتُكب في الثلاثينات (هتلر).

ان الشعب العام وحده، سياسيًا كان أو اقتصاديًا، لا يكفي لاخضاع التوتاليتارية، أو حتى لدفعها إلى الوراء. ان الامر يستوجب اكثر من ذلك لبلوغ الغاية. ضمانُ استنزافِ قوتها يتمّ بالمساعدة النشيطة لضحاياها، اذ ان كلّ قوّة لا بدّ لها من ان تُصاب بالوهن.

لا علاج آخر لهذا الداء إلا المقاومة الفعالة أو السلبية وفقًا للظروف. ان التضامن الإنساني الاكبر الذي يكمن، تحت اسم كلمة "محبّة"، التي هي في اساس التعليم الانجيلي وتعاليم آباء الكنيسة، يقتضي حتمًا دعم الذين يتعذبون. هذا الدعم للذين يقاومون يوفّر إشعاعًا ساطعًا للمسيحي، ويصبح فجأة، بنوع من التحول الروحي، ايمانًا فاعلاً وبالتالي ايمانًا اصيلاً.

أحكام الطائف (١)

مـــقـــدّمـــة

الملفت لاول وهلة في ما أُسمي "**وثيقة الوفاق الوطني**"، أو ما عرف بالاحرى بـ "اتفاق الطائف"، هو التناقض بين طموحه إلى ان يكون شاملاً، وبُعدُه عن الواقع اللبناني.

اما الشمول، كما يقول الاستاذ جوزف مولى[٢]، فهو واضح في ان هذا الاتفاق يعالج "إصلاحات داخلية"، كما انه يتصدى لـ "لاحتلال الاسرائيلي والعلاقات المميزة مع سورية".

اما الجليّ البيّن، فهو البعد عن الواقع اللبناني إذ ان اتفاق الطائف هو أقرب – بعد دراسة مقارنة دقيقة –إلى اتفاق الثامن والعشرين

---

(١) مطالعة قُدِّمت في «ندوة عن لبنان» عقدها الرئيس جيمي كارتر، في «مركز كارتر للدراسات»، في مدينة اتلنتا، في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٩٠.

(٢) "دفاتر الشرق"، عدد ١٦ – ١٧، ١٩٩٠، ص ١٣٦.

من كانون الاول ١٩٨٥، المعروف بالاتفاق الثلاثي، والى مفاوضات مورفي-الاسد، التي مُهِّد لها بتحرّك مكوكي بين واشنطن ودمشق، ونعني فيه بالاخص السفيرة ابريل غلاسبي، اكثر من انتسابه إلى الوثائق الاصلاحية اللبنانية التي اعدّتها الهيئات المؤسّسية اللبنانية، كالوثيقة الدستورية في ١٤ شباط ١٩٨٤، أو "البيان الوزاري" لحكومة الوفاق الوطني في ١٢ ايار ١٩٨٤، أو الوثيقة التي تقدّمت بها الاحزاب والهيئات اللبنانية المختلفة.

هذه الملاحظة الاولية تفسّر جليًا ان **اتفاق الطائف هو اكثر من اتفاق محلّي**. انه ثورة، بل انه محاولة لتغيير التاريخ والجغرافيا في المنطقة.

سيدور كلامي، إذًا، على هذا الاتفاق الذي يبدو لبنانيًا في ظاهره، فأنتقده من دون هوادة، كما سبق وفعلت.

أُعلن صراحة ان الاصلاحات التي اتفق عليها في الطائف، سبق ووافقتْ عليها السلطات المحلّية الجديدة في بلادي. ولكن بصفتي مواطنًا حرًا ولي آرائي المباينة لآراء اهل الطائف، لي الحقّ بتوجيه النقد وطلب التعديل وفقًا للاصول القانونية، لما تمّ التوافق عليه وفقًا للشرعية الصُوَرية.

إنّ الأسباب القريبة أو البعيدة، البارزة أو الخفية، التي آلت في النهاية، إلى اتفاق الطائف، أو إلى بعض احكامه التي سوف أتطرّق اليها لاحقًا، كلّ ذلك يحمل في طيّاته السمة الاكيدة لاعتبار المعضلة

اللبنانية ليست سوى معضلة اتنيات ترى ان اشتراكها في الحكم بعضها مع بعض قد اعتراه بعض الخلل، وتعتبر ان من شأن نظام الطائف اصلاح هذا الخلل.

إذا اضفنا إلى ذلك ان ساسة لبنانيين شغلوا طويلاً مقدّمة المسرح خلال المأساة اللبنانية الطويلة، اعترفوا صراحةً الواحد تلو الآخر، بأن **شعب لبنان كلّه مكوّن من اقليات**، بمعنى ان ليس من اتنية واحدة تتفوّق عدديًا وحدها على الاتنيات الآخرى، **فلا بد من الاعتراف بالطبيعة الاتنية للمشكلة اللبنانية.**

اما حجم المشكلة، فلا يمكن قياسه إلاّ بالنسبة إلى معطى غير لبناني، اعني سورية المتاخمة التي تضمّ شعبًا شديد التماثل بإحدى الاتنيات اللبنانية، ممّا يجعلها تطالب بحقّ ممارسة سياسية، تجاه لبنان كلّه، مبنية على صيغة اصبحت معروفة: "**شعب واحد في دولتين**"، كما لو ان الكلام يدور على جمهورية المانية الاتحادية وجمهورية المانية الديمقراطية.

مما لا شكّ فيه ان هذه المقولة تذكّر بمقولة اخرى شبيهة أُطلقت في اوروبة قبل "الانشلوس" منذ اكثر من خمسين سنة، وأُطلقت هذه السنة بالذات في الشرق الاوسط لدى ضم الكويت إلى العراق.

نظرا إلى الطبيعة الاتنية للمشكلة اللبنانية، فضلاً عن بعدها الدولي، ما نأخذه على نظام الطائف انه **يرمي إلى تنظيم نهاية الاتنيات بصهرها في بوتقة واحدة** لمصلحة ايديولوجية سياسية

رائجة في غير لبنان أكثر منها في لبنان. كما آخذ عليه، على الصعيد الدولي، انّه يجرّد لبنان من علّة وجوده كدولة. إنّ لمن خصائص نظام الدولة المبدئي ان تكون لشعبٍ واحد، دولة واحدة لا دولتان فاعتبار وجود شعب واحد في دولتين يمهّد لنهايةِ واحدةٍ من الدولتين.

واني هنا في هذا اللقاء سأحصر انتقاداتي لاتفاق الطائف من ضمن الحدود الضّيقة لطبيعته وبُعده الدولي.

ولو سنحت فرصة اخرى، لكنت اسهبت في انتقاداتي وتناولت ما بدا لي من احكام وتدابير منافية لكلّ ديمقراطية. بيد ان هذا ليس موضوع حديثي اليوم.

في عالم نهاية القرن العشرين الذي يُعنى بالمجموعات الإنسانية، منظّمةً كانت أو كما هي على سجيتها، بل هو يقلق على الانواع الحيوانية أو النباتية المهددة بالزوال، من المؤسف أن نرى أنّ احكام اتفاق الطائف تضع آلياتٍ مؤسّسية تهدف إلى المحو التدريجي، و«برهافة» ، لوعي بعض الاتنيات في لبنان ذاتها وما تصبو إلى أن تبقى عليه.

آليات كهذه –وأعلنها عاليًا– هي للسياسة، كما المعالجات الحيوية للبيولوجيا (Les manipulations génétiques). مثل هذه الآليات مدانة خلقيًا.

إلامَ ترمي حقًا احكام كهذه :

"...اعادة النظر في البرامج وتطويرها بما يعزّز الانتماء والانصهار الوطنيين... **توحيد الكتاب في مادتي التاريخ والتربية الوطنية...**".

في بلد يتشبّث تقليديًا، بسبب تعدّد اتنياته التي لها الحقّ في أن تبقى على ما هي عليه، بحرية الرأي والتعليم لمصلحة الاتنيات جميعها، من دون تمييز، وفي بلد أُنشئت فيه منذ القدم لكل هذه الاتنيات مؤسّساتٌ تسدُّ حاجاتها التربوية والحياتيّة تبعًا لمبداء حق الاقليات المكرّس في القانون الدولي كما تراها هي، ولا تضمّ شيئًا يخالف القانون والنظام، هل من المسموح، ان ينصّ اتفاق الطائف، على توحيد الكُتُب جميعها مُركّزاً بالاخص على كتابي التاريخ والتربية المدنية؟

يمكن التساهل في هذا المجال بالنسبة إلى التربية المدنية! ولكن التاريخ؟ ان توحيد كتاب التاريخ يؤدّي عندنا إلى القضاء على الوعي المشروع للذات الذي تحرص عليه كلّ اتنية، من دون ان تعكّر في ذلك، راحة اتنيات الآخرين.

لا بدّ من التساؤل في هذا الاطار عمّا اذا كان واضعو هذا النص والموافقون عليه، قد ادركوا الطبيعة التعّسفية واللاإنسانية التي يتّسم بها. لئن شعروا فعلاً بكل هذا، ألا ينبغي لنا ان نعتقد بان

مفـهوم التـعددية الثقـافيـة الوافر الغنى قـد استبـعد عـمدًا؟ وإذّاك أتسـاءل: لمصلحـة من استـبـعد؟ ولماذا؟ ومـا الغـاية من ذلك؟ اجل نتساءل.

وهنا نصل إلى البُـعـد الدولي للطائف. هذا البُـعد يقـاس بالعبء الثقيل الذي حُمِّلَتْهُ سورية في نظام الطائف، تلقائيًا من دون اي طلب رسمي منها. ولكن قبل ان نحدّد بدقّة البُعد الدولي للدور الذي خَصَّ به سورية المشترعون اللبنانيون، يلزمنا، لوضع الامور في نصابها، ان نسرد الحـقائق التـالية التي يتكوّن مـنها اللاوعي الجمـاعي في لبنان، لدى الاتنيات على اختلافها.

الحقيقة الاولى

ليس اقرب إلى لبنان من سورية جغرافيًا، والى حدّ ما اتنيًا.

الحقيقة الثانية

لا شيء يوفر الاطمئنان لبـعض الاتنيات اللبنانية اكثـر من جيرة سورية، ولا شيء يثـير القلق لدى بعض الاتنيـات الاخرى اكـثر من هذه الجيرة.

الحقيقة الثالثة

ان الاتنيات التي تطمئنّ إلى جيرة سورية، هي، في افضل الاحوال، غير مبالية بالاسباب التي من اجلها تقلق الاتنيات الاخرى. وفي اسوأ الاحوال لها موقفها ضد هذه الاسباب .

الحقيقة الرابعة

ان الاسباب التي تثيرها جيرة سورية، إنْ لجهة القلق أو لجهة الاطمئنان عند هؤلاء واولئك، تبقى دائمًا غير معلنة، إما بسبب الخوف عند البعض، أو بسبب دراية وخفر عند البعض الآخر.

هذا هو المناخ الضاغط والغامض والملتبس في آن، للعلاقات السورية بالاتنيات في لبنان على اختلافها.

في هذا المناخ، وبالنسبة إلى القارئ اللبناني لوثيقة الطائف، هذا الذي يَقْلَقُ لمقولة: "شعب واحد في دولتين"، لا بدّ من ان تراود ذهنه تساؤلات كهذه:

- لماذا أعلنت العلاقات المميزة مع سورية من جانب واحد، اي البرلمان اللبناني، و من دون اي طلب من سورية؟

(لا شك في ان في هذا الاعــلان من جـانب واحـد، ومن دون اي طلب من سورية، أمرًا مســتغرباً. ورجال السياســة وعلماء الدستور لا يسعهم إلا ان يوافقوا على ذلك).

– ما الذي تتضمّنه هذه العلاقات المعلنة من جانب واحد؟

– لماذا حصل تأكيدها من دون تحديدها؟

– هل ان هذا الامر يتآلف مع القواعد والأعراف بين الدول؟

ومما يثـير العجب ان هــذه العلاقات الـتي وُصِفَتْ بـ «المـيَّزة" تبدو كأنها اعباء مـفروضة من جانب واحد في شكل ملزم من لبنان على سورية. أوليس عبئًا مفروضًا على سورية تكليفها بحفظ الامن في لبنان؟ متى كان يفرض مجانًا عبء على من يَخْدُم، خصوصًا اذا كان من يَخْدُم هو دولة اقوى واكبر من الدولة المخدومة؟

ألا يمكن تفسيــر هذه الخدمة المجّانية الـتي تؤدّيها الدولة الاقوى للدولة الاضعف في تأكيد شعار: "شعب واحد في دولتين" ؟ ولا بدّ في المقابل من اســتخــلاص النتيجــة المنطقية لـهذا الشعــار: "شعب واحد في دولتين"، بـينما طبيـعة الاشيــاء لا تقول الا بشــعب واحد لدولة واحدة.

إلى ذلك، ما السبب، الذي لأجله، في العلاقات السورية– اللبنانية، يقتــضي ان تكون هناك دولتان لشــعب واحد، بخلاف مــا يقتضــيه المنطق؟

وهكذا لا بدّ من الاعتراف بان جدلية: "الشعب الواحد في دولتين" تَحَدٍّ للمنطق العادي، ما لم تكن ثمّة غائية محدّدة لهذه الجدلية؟

بيد ان هذه الجدلية، خلافًا للظاهر، ليست تحدّيًا مجّانيًا للعقل. ان لها غائية معينة. فهي الجزء المرئي من مشروع سياسي واضح تَحُول بعض القيود الدولية دون اعلانه للملأ. لكنّ السياسة الواقعية لا تنفكّ تعمل من اجل تحقيقه، إنْ على الارض بالذات أو داخل الدواوين الدولية المعنية حيث يجري التفاوض على الصفقات الكبرى بين الاقوياء على حساب الضعفاء.

ومما يزيد في الطابع غير العادي في العلاقة بين لبنان وسورية، كما هو مقرّر في الطائف، أن المشترعين اللبنانيين قدّموا لسورية عطاءً مجّانيًا لم تطلبه، نعني بذلك التدبير الذي بمقتضاه يكون لسورية، بعد اكمال مهمتها في أنحاء من لبنان، ان تبقى، مع شكر المشترعين اللبنانيين، في البقاع.

ولكن اين في البقاع؟

ولأي مدة من الزمن؟

بأي شروط؟ لاي مهمة بالحصر؟

على حساب من؟ الخ ...

لا جواب على هذه الاسئلة في وثيقة الطائف التي لم تشارك فيها سورية -هذا ما نقرّ به ونعلنه- والتي هي ظاهريًا من صنع

اللبنانيين وحـــدهـم. وهل من حــاجة إلى توضـيـحات عندمــا تكون الدعوة الموجــهة هـي دعوة "مفتــوحة"؟ أو عندما يكون المدعــو غير مدعو حقًا؟

كــلامي هذا لم يتنــاول الا سبـبــين من الاســبــاب التي تجـعلني معارضًا لبعض احكام اتفاق الطائف الذي لم تشارك فيه سورية.

ولكن ما كان ســيحصل لو ان سورية شاركت فــعلاً في الاتفاق؟ بالفعل اني لا استبعد ان ســورية لو اشتركت في هذه الوثيقة، لربما وُجِدَت فيها اخطاء اقلّ ومراعاة اكثر لمبادئ القانون الدولي.

في الحقيقة، لا عمل إنسانيًا كــاملاً وغير معرّض للطعن أو للنقد. لكن اتفاق الطائف يشــغل حيّزًا رفــيعًا جدًا في سلسلة الاعــمال التي تخضع للطعن.

ولا بدّ من اعادة النظر فيه في حــضور سورية بالذات في الامور التي تتــعلّق بهــا، وفي حــضــور نواب أو ممثلــين لبنانيين لا يعــود تعيــينهم إلى حكومــة غير مــؤهلة، من اجل تصويبــه واعطائه شكلاً اكثر قبولاً واكثر إنسانية.

سواء كنتــم من اهل السياســة أو من اهل العلم، لا تســاهموا في القــضــاء المنظم على الاتــنيــات في لبنان. **هذه الاتنيـــات ليــست "غلطة" بل هي ثمــرة التــاريخ.** كــذلك لا تنجــرفوا في جــدليــة "السياسة الواقعية" التي ينكرها ضميركم. ولتشملكم نعمة الله.

المجتمع اللبناني الجديد في نظر فاعليات الطوائف المسيحية[1]

إنّ هذا البيت الذي يفرح ويتشرّف باستقبال ضيفه الموقّر حضرة الرئيس فون هاسِّل (Von Hassel) وجميع الأصدقاء الحاضرين، هو بيت الروح، بيت الإنسانية. يخالجكم فيه، من دون شك، شعور عميق بالتعاون والوحدة يبرز تلقائيًّا عند كلّ الذين يعتمدون روحانيةً واحدة ومبادئ العيش نفسها.

لسنا إذاً لنُفاجأ عندما نرى مسيحيّي لبنان المنكوبين والمتروكين يستقبلون ويَقْبَلون، بكل امتنان، المبادرات الألمانية كلّها الصادرة عن القطاع الرسمي (والتمثيلي)، عن الكنيسة، عن الاحزاب (CDU-CSU)،

(١) كلمة أُلقيت في حفل استقبال Von Hassel رئيس مؤسسة اديناور، وتقديم المؤلف عن «المجتمع اللبناني الجديد» في اجزائه الثلاثة، وهو دراسة في علم الاجتماع قام بها بعض اساتذة جامعة الروح القدس، بالاشتراك مع مؤسسة اديناور، بتاريخ ٨ تشرين الثاني ١٩٨٤.

عن المؤسّسات الفكرية والخيرية، وبكلمة واحدة، عن الرأي العام.

ان هذه المبادرات بالنسبة إلينا، جزء لا يتجزأ من ذلك العطاءِ الجبّار الذي لم تتوانَ ألمانية يوما عن منحه الحضارة العالمية. وباعتبارها أُمًا شرعيةً للتكنولوجيا المعاصرة المتقدّمة، تدرك، اكثر من اي بلد آخر، كيف تعطي المادة روحًا تسمو بها وتُخَلِّصها.

في هذا الخط المميَّز من التعاون الاخوي، يأتي هذا البحث الذي هو ثمرة تعاون وثيق بين جامعة الروح القدس ومؤسّسة اديناور. اننا نفتخر اليوم بتقديم هذا العمل إلى اللبنانيين والى جميع اصدقاء لبنان، ليس نتاجًا اكاديميًا، فضلاً عن قيمته هذه، بل **نداءً إلى الوفاق والحوار**. ان هذا المشروع المسيحي الهادف إلى خلق مجتمع لبناني جديد يقوم على روح التعاون والتفاهم، مركّز في نوع خاص على نظام اجتماعي وسياسي وأخلاقي جديد.

لقد ادرك مسيحيو الشرق عمومًا ومسيحيّو لبنان خصوصًا، حتّى في أحلك الظروف التاريخية، كيف يتخطّون عوادي الزمان ويحافظون، بكل وضوح، على تفكير رغيد يحمل الخلاص لهم وللجماعات الأُخرى التي يعيشون معها. وان ذلك يشكل ثابتةً في تاريخهم.

وهكذا يبدو هذا العمل، موضوع هذا اللقاء، كأنه تقييم واعٍ يتزامن مع منعطف مصيري في تاريخ بلادنا. والنتائج التي أدّى

اليها تُبعِد الصور المشوّهة التي ارتسمت منذ سنة ١٩٧٥ مع بداية الصراع اللبناني، وتدلّ، من دون اي التباس، على الوجه الحقيقي لمسيحيّي هذا البلد، كما هم وكما يريدون ان يستمروا : غيورين على أصالتهم وعلى استعدادٍ دائم للحوار.

تتّضح الخيارات الاساسية لمسيحيّي لبنان من خلال هذه الدراسة. واليكم ما يريدون، في اختصار وبكلّ بساطة:

أ- إنّهم متمسّكون بالوحدة الوطنية ويرفضون فكرة التقسيم رفضًا قاطعًا. لا يريدون ان يتركوا هذه الارض. وذلك لا يعني انهم يريدون احتكارها. انهم مع التعايش بين الطوائف ولكنهم يرفضون ايّ مساس بحرياتهم واي انتقاص من ثرواتهم الثقافية ومن انفتاحهم على الحضارة العالمية. انهم يريدون بأيّ ثمن المحافظة على قيمهم ولكنهم يكنّون كلّ احترام لِقيم الغير. في اختصار، **ان التعدديةِ الاجتماعية والوحدة الوطنية بالنسبة إلى مسيحيّي لبنان، هما حقيقتان غير متناقضتين.**

ب- عن هذا الخيار الأساسي، خيار التعددية في الوحدة، تنتج خيارات أخرى تتعلق بالتعديلات أو التغييرات الواجب إدخالها على الصيغة السياسية وعلى النظامين التربوي والاقتصادي.

على الصعيد السياسي، يطالب مسيحيّو لبنان بتغيير جذري. ان ميثاق ١٩٤٣ فَقَد في نظرهم بعض مبرّرات وجوده، ولا يزال يقرّ به فقط ٤٪ من فاعلياتهم. ومهما تكن الصيغة البديلة، ما يهمّهم على

هذا الصعيد، هو المحافظة على قدرتهم على اتخاذ القرارات وامكان تحقيق الذات بعيداً عن المخاوف والضغوط.

وفي ما يتعلّق بالعلاقات الخارجية، هم يطالبون بدولة قوية سيّدة وفعّالة، تتعامل مع كلّ الدول القريبة والبعيدة على قدم المساواة.

اما على الصعيد الثقافي، فان مسيحيي لبنان، إلى جانب تجذّرهم في ثقافة الشرق المتوسطي والعربي، وتمسّكهم بتراثهم، يتمسّكون ايضًا بانفتاحهم على الثقافة العالمية. لذا يطالبون بتعليم متعدّد اللغات ومتنوع قادر على انماء مجتمعهم.

على الصعيد الاجتماعي، انهم يؤمنون بشركائهم في الوطن، اي بالطوائف الاسلامية، ويحترمون قيمهم. إنهم يأملون، في يوم من الايام، بالتوصل معهم إلى اعداد مشروع مشترك للمستقبل، يكون فيه لكل منهم حقه، ليس لتحجيم الآخر بل للبناء إلى جانبه. ليس الأمر بتغيير الآخر، بل بأن نتحوّل معًا لنكون مجتمعًا مسؤولاً وأمة سيدة.

على الصعيد الاقتصادي، يطالب المسيحيون بعدالة اجتماعية اكبر، وهي مهمة على الدولة ان تضطلع بها، وهم يؤمنّون لها الوسائل. لذا، فإن ٩٠٪ من فاعلياتهم تقبل بزيادة الضرائب وتطالب بان يكون للدولة دور اكثر فعالية على الصعيد الاقتصادي.

حكم التاريخ

إنّ التأمّل في هذا المشروع يسمح لي اخيراً، مؤرخًا، بابداء رأيي المتواضع:

إنّ القارئ المتبصّر الذي يفكربنتائج هذا التحقيق الاجتماعي لدى ٤٠٠ من الفاعليات المسيحية يرى بوضوح المطابقة شبه الكاملة لهذه النتائج مع ثوابت التاريخ اللبناني: إخلاص المسيحيين لاختباراتهم الروحية، لتاريخهم المضطرب، لاختياراتهم الوطنية وخصوصًا لإخوانهم المواطنين.

إنّ هذه المطابقة الرائعة مع الماضي هي الضمانة الوحيدة لمستقبل افضل، على رغم جميع انتكاسات الحاضر.

مسيحيّون نحن ومسيحييّن سنبقى، من غير ان تفارقنا فضيلة الرجاء التي تحملنا نحو الآخر بحبٍّ تاريخي، جَعَلنا مصيرُنا بالذات مسؤولين عنه وشهودًا له.

الملف الثقافي

التاريخ كتاباً وكتابة (١)

* لا بدّ من الاشارة اولاً إلى أهمّية كتاب التاريخ المدرسي، لانه يسهم إلى حدّ بعيد في تغذية الوعي الوطني لدى التلاميذ وينمّي عندهم الشعور بالتجذّر والانتماء والهوية واستشراف المستقبل.

ثم يقتضي، إبداءً للرأي في كتاب التاريخ المدرسي، التنبّه لثلاثة امور: ان التاريخ هو علم قبل أي شيء، وان الكتاب هو كتاب تربوي، وانه ينبثق من مناهج تقرّها الدولة.

١) ما من شكّ في أن التاريخ هوعلم. وهو، من هذا القبيل، خاضع لمبادئ علمية أكيدة. صحيح أنه من العلوم الإنسانية التي

(١) نص اجوبة على أسئلة د. جورج كلاس، «ملف كتابة التاريخ» – صحيفة «النهار»، ٢٠ تموز ١٩٩٤.

تتناول الإنسان موضوعًا، وأنه، بسبب ذلك، قد تستحيل عليه الاحاطة بحقيقة الحياة الكاملة لتشعّبها وعمقها وتركيبها من عناصر متعدّدة، لكنّ التطوّر الحديث جعل من التاريخ علمًا يتطوّر بتطوّر العلوم، ويستند إلى الوثائق والآثار، فهو يكتمل بمقدار اكتشافنا الوثائق والآثار، ودرسنا المجرّد لها. من هنا ليس دقيقًا القول إن التاريخ يكتب مرتين، بل الادّق أن التاريخ يُكمَّل بفضل الاكتشافات الجديدة والمستمرّة للوثائق والآثار.

٢) فضلاً عن الطابع العلمي للتاريخ، تلازمه خصائص تربوية. هذا العلم يربّي ذهنية التلميذ على التعاطي مع الحقيقة واحترامها والافادة منها، سلبية كانت ام ايجابية. لا غضاضة في معرفة الحقيقة عن الذات وعن الوطن وعن الغير. بل الغضاضة كلّ الغضاضة في تشويه الحقيقة وعدم الافادة من التجارب الماضية، ناجحة كانت أم فاشلة، بالاتعاظ من نتائجها والاقلاع عن أخطائها. كما أن الغضاضة هي في تزييف الحقيقة والتعامي عن الاخطاء الماضية أو التشبث بها. من هذا المنطلق التربوي قد يجوز ألا يُقَدَّم للتلميذ كلّ شيء عن الماضي، بل أن ننتقي منه ما يصحّ أن يكون مادة للتربية والعلم الصحيح. ولئن تضمَّن كلُّ انتقاءٍ موقفًا من الحقيقة، يفترض الا يكون هذا الموقف تشويهًا للحقيقة أو تغييراً لها.

٣) أما المنهجية المعتمدة لعرض الحقائق وتسهيل دراستها

وفهمها، فهي تختلف من كتاب إلى آخر. يبقى أن الدولة، حتى الآن والحمد لله، تحمي الحرية ولا تفرض منهجية موجهة، مما يتيح لكل كاتب أن يعتمد منهجية تتلاءم مع نظرته العلميّة. من هنا الغنى والخطورة في آن: إن تعدّد الرؤى والتفسيرات للحدث الواحد ظاهرةُ ديمقراطيةٍ سليمة، والابقاء عليها هو مصدر غنى، على ألا تتناقض الرؤى، وأن تقرّ الواحدة بحق الاختلاف للاخرى، وتقبل بوجودها على رغم التعارض في ما بينها. مهما علا شأن الأحادية، قد تخطئ، وأول خطأ فيها عدم قبولها بمنطق الغير وإقرارها بحريته.

* والكتابة التاريخية عملية علمية لها شروطها وقواعدها الخاصة. ولا أودّ شخصيًا أن أُحْسَبَ على أي مدرسة قد تحدّ من حرية ابحاثي العلمية وتلزمني بشروط ربما كانت تتناقض مع العلم. مدرستي في الكتابة التاريخية مقاربةُ حقيقة الحياة إلى أقصى حدّ في تشعّباتها وتركيباتها وتعدّد وجوهها وغناها. هذه المقاربة الموضوعية هي المعيار الذي انصح به.

غنى التنوُّع

* من ناحية اخرى، ليس من تاريخ توافقي لا سيما إذا كان التوافق مساومة على الحقيقة. موضوع التاريخ هو الماضي. ولم يعد في امكاننا، مهما توافقنا، أن نغيّر هذا الماضي. ليس من العدل أن

نهمل اشخاصًا أو جماعات أو مؤسّسات لعبوا دورًا هامًا في التاريخ ولا أن نُسْبِغَ على غيرهم ادوارًا لم يقوموا بها. اقصى ما يمكن ان نعمله هو أن ننتقي من حقيقة الحياة الماضية، ما يحدّ من الانقسامات ويخدم مصلحة الوطن في المستقبل. بيد أن الافضل أن نربّي كلّ الفئات على الحسّ الديمقراطي واحترام حقوق الإنسان والالتزام بالعلم في حد ذاته، بحيث تتقبّل كلّ فئة ما يخص غيرها كما تتقبّل ما يخصّها. المطلوب أن نربّي التلاميذ والمواطنين لكي يتقبلوا حق الاختلاف قولاً وفعلاً، لا أن نغيّر الحقائق أو نشوّهها أو نطمسها ليتقبلها مواطنون تحركهم السياسة والعصبية والتحيزات. الغاية إذًا هي الارتفاع بجميع الفئات إلى مستوى الحقيقة الموضوعية وليس المسّ بهذه الحقيقة إرضاءً للاهواء.

* إن المجموعة الوطنية تتركّب، في الحقيقة، من طوائف وأحزاب متعدّدة. كذلك تاريخها يتركّب من تاريخ المجموعات المختلفة التي تتفاعل فيها. والتنوّع بهذا المعنى هو غنى وثراء، بينما الأحادية فرض وجه واحد من الحقيقة وطمس الوجوه الباقية. خطأ التاريخ الأحادي الغاؤه التواريخ الباقيّة التي نتج هو من تنوعها وتفاعلها. الأحادية إِفقار للجميع وهيمنة على الجماعة، بينما التنوع مصدر زخم ومنافسة ايجابية وتوظيف طاقات متعددة في خدمة غايات مشتركة تذكرّ كلّ فئة بأنها مَعْنيَّة بها لأنها تستوعبها وتستوعب تاريخها وتُنَمّي شخصيتها وحريتها. **تاريخ الاوطان المركبة غني بتنوعه.** على سبيل المثال، لم يلغِ تاريخ المانية الموحّدة تاريخ

الاجزاء التي تركّبت منهـا الوحدة الالمانية. كذلك كان الامـر بالنسبة إلى ايطاليـة، فـتـاريخ البندقـيـة وتاريخ رومـة وتاريخ فلورنسـة وتواريخ الحاضرات الايطالية الباقية التي قد تكون تصارعت في ما بينهـا ماضـيًا، لم تمنعـها من الوحـدة. وهذه الوحدة لم تبـخس اي تاريخ خاص حقّه لأنّ **كلّ التواريخ اعطت زخمًا لايطالية الموحدة.** والقول نفسه يصحّ بالنسـبة إلى سـويسرة. فالتنـوع يُذَخِّرُ تاريخ المجموعة شرط أن يقترن بارادة للعيش المشـترك حاضرًا ومستقبلاً وأن يحترم الخـصوصيات بحـيث تشعر كلّ مجـموعة بأنها مـعنية بهذا التاريخ.

* الوطن الذي يبنى على التكاذب تفجّره الحـقيقة. المنطلق الوطني الذي يجب اتباعه لوضع كتاب تاريخ مدرسي حديث هو ذاته المنطلق العلمي. ألم تُسْـقِط ساعـةُ الحـقيـقة تواريخ في اوروبة الشـرقيـة فُرِضَت طيلة خمسين سنةٍ حقائقَ، بينما لم تكن سوى هيمنة وتسلط وتغييـر للحقائق؟ المطلوب موضـوعية في مقـاربة التاريخ الوطني، واستعداد لتقبّل حقائقه المتنوعـة لانها مصدر غنى، واعتبار بحقائق الماضي لبناء المستقبل بواقعية وحكمة وشجاعة.

وإذا كان المراد أن تعمل السـياسة المتبعة بعـد الطائف، على كتابة تاريخ جـديد، فهـذا ابتعـاد عن التاريخ العـملي إلى التاريخ المـوجّه والتاريخ الاستقوائي. كمـا سبق وقلنا، يُعنى التاريخُ بالماضي بينما اتفاق الطائف يـتطلّع إلى الحاضر والمسـتقبل. لم يعـد ممكنًا تغيـير

الماضي أو تجديده. ما هو ممكن، القبول المتبادل بحقائق الماضي واعتماد ذهنية جديدة في التعامل معها انطلاقًا من الاتفاق في الحاضر على القبول بالآخر واحترام خصوصياته بما فيها تاريخه. هذه الذهنية الجديدة هي التي تجعل من التاريخ، بحق، ذاكرة جماعية. لتكن لنا جميعًا منهجية واحدة جديدة في التعاطي مع حقائق التاريخ، ألا وهي الموضوعية والخضوع للشروط العلمية. التربية على حبّ الحقيقة واحترامها وعلى الالتزام بالقيود العلمية، تحرّرنا من العقد والانانية والأحادية والعصبيات التي قد تكون اسهمت، مع عناصر متعددة، في تغذية الانقسامات. أنا لا أعيد النظر في حقائق التاريخ الماضي، بل أفيد من أضوائها للتطلّع إلى المستقبل بإيمان وثقة. ما يجب على الجميع هو الارتفاع العقلي إلى مستوى الحقيقة وقبولها بجميع مقتضياتها. ولكن هل كان الطائف بالفعل وليد ارادة لبنانية متحرّرة؟

* هناك واقع لا مفرّ منه: ما هو سياسة اليوم سيصبح تاريخ الغد. من هنا مسؤولية المؤرّخ الكبرى. ان واجبه العلمي يقتضي منه كثيرًا من التجرّد وكثيرًا من الاطلاع والبحث والسيطرة على الاهواء والميول والنزعات، وابتعادًا عن الاغراءات على انواعها للتمكّن من غربلة الامور وتمييز الدوافع ومقاربة الحقيقة. اذكر رأيًا لـSainte-Beuve يشبّه فيه الاثر الادبي بالتمثال الذي يراه كلّ متطلع اليه من زاوية نظره، ورأيًا مماثلاً للفلاسفة الظاهراتيين Phénoménologues يجد في كلّ ظاهرة سبيلاً إلى الاطلالة على الحقيقة.

مسؤوليتنا كمؤرخين ان نتعالى فوق الاحداث حتى نستطيع ان نُغَطِّيَها تغطيةً كاملة وأن ننفذ إلى جوهرها عبر الظواهر المختلفة. من الخطأ أن نبدأ بوضع الغاية أولاً ومن ثمّ نفسّر الاحداث في ضوئها. التوجيه انتقاص من الحقيقة المتشعبة المركَّبة. مسؤوليتنا كمؤسسات تعليم أن نربّي طلابنا على الموضوعية واحترام الحقيقة لا أن نغذي ميولهم الطبيعية إلى تحوير الحقائق تبعاً للمصالح والاهواء.

في ما يخصّني شخصيًا، عايشت بمعاناة وكثير من العمق الاحداث التاريخية التي عصفت بلبنان، ورأيت الاصابع الخفية والظاهرة التي تتلاعب بها وتسيّرها. لذلك اعتقد بأن بعض الوقت ضروري لكي يتمكّن المؤرّخ من العودة إلى هذه الاحداث بموضوعية وتجرّد ويكتب عنها.

تاريخ الحقيقة

* لا شكّ أن في تاريخ كلّ وطن مواقع استراتيجية واشخاصًا استراتيجيين، ولا ضرر في ذلك اذا نُظِر إلى الحياة نظرة واقعية وساد التجرد. كثيرة هي البلدان التي تمّت وحدتها انطلاقًا من نواة مركزية كسويسرة والمانية وايطالية ... بيد ان تقاطع التواريخ والتقاءها يأخذان اهمية بمقدار ما يستمرّان بعد اتحادها. قد يكون

لكل منطقة من لبنان تاريخ خاص بها قبل الاتحاد، وهذا مصدر غني. على سبيل المثال، كان هناك تاريخ للبنان الجنوبي، والواجب يقضي بإبرازه. بيد ان هذه المسؤولية تقع على ابناء الجنوب قبل غيرهم. هل كتبوا تاريخهم وابرزوا دورهم في قيام هذا الوطن في وجهه الراهن، ورَفَضَهُ الباقون؟ وما يصحّ على الجنوب يصحّ على الشمال وعلى البقاع. أما بعد الوحدة، فننظر إلى المجموع وحدةً متكاملةً، والى الوطن بمناطقه المختلفة وحيويتها وتفاعلها مع بعضها ومع الوطن.

ولا بدّ، لكي تكون الكتابة التاريخية صحيحة وثابتة، من اعتماد اسس علمية. منها مقاربة الاحداث بتجرّد وموضوعية وذهنية منفتحة تَقْبل الحقائق وإن كانت لدى الغير؛ ومنها التحلّي بالعقل النقّاد الذي يتوخى الدقة ويركّز افتراضاته على الوثائق واليقين العقلاني المبرّر.

فضلاً عن ذلك، لا بدّ من التمييز بين الشعور الوطني وكتابة التاريخ العلمية. صحيح ان الشعور الوطني يشجع على كشف الحقائق التاريخية والتركيز عليها منطلقات للعمل القومي. المحبة وحدها تقود إلى الاكتشاف. وصحيح ايضًا ان الذهنية العلمية تحدّ من حماس الحسّ الوطني وتغذّيه بالقيم التاريخية. لكن الاستقلالية قاعدة ضرورية بين الشعور الوطني والقناعات العلمية. وحدها الحقيقة تخدم الاوطان التي تتطلّع إلى الاستمرارية والثبات.

والسبيل إلـى هذه الحقيقة هو الكتـابة التاريخية العلمـية المنزّهة من الاهواء والافكار المسبقة.

* هناك ممنوعات فـي التأريخ وأهمهـا تزوير التاريخ والتـعاطي مع أحـداثه بافكار مسـبـقة واللجـوء اليه سـبـيلاً للتـرويج لافكار سيـاسية. ان تسـيـيس التاريخ نحر له في الصـميم وتوظيف له في خدمة قضايا، أقلّ ما يقال فيها، انهـا غير الحقيقة، التي تفرض ذاتها بما تتضمنه من بديهيات وحجج مقنعة. واذا كان المقصود باللياقات مسـاومة على الحقـيقة وتزويرها تشـويهًا أو تجمـيلاً، فاللـيـاقة لا تتلاءم مع العـلم الذي يهدف اولاً وآخرًا إلى كـشـف الحقـائق. اما اذا كان المقصـود باللياقة الانتقـاء وعرض الحقائق بما لا يثيـر الاحقاد الدفـينة والانقسـامـات، فهي لا تضـرّ بالتـأريخ. واذا كانت حكمـة اجيـالنا تقضي بان "نأكل عنبًا" لا أن "نقـتل الناطور"، فان العنب ينتج من الدوالـي الحقـيـقـيـة وليس من الاوهام أو الاحـلام. وربّ حقائق تستدعي ازاحة كلّ ما يعـيق بروزها لا سيما المصالح والعقد. ليس التـاريخ كله صفـحات بيـضـاء. علـينا تربية اولادنا على تقـبّل الحقائق مهـما كانت صعبة ومؤلمة. ان هذا الـقبول يحرّرهم ويمدّهم بزخم جـديد لبناء المسـتقـبل على اسس الافـادة من اخطاء الماضـي لتحاشـيها، ومن حسناته لاكمـالها. لا بدّ من معرفة حـقائق التاريخ الماضية معرفـة صحيحة لمواجهتها والتـمكّن من البقاء لبناء التاريخ الجديد.

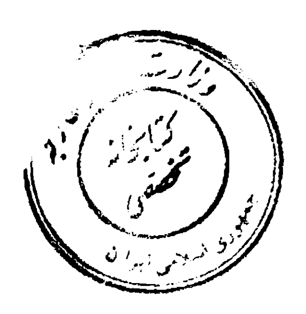
حق الإكرام والثناء

لقد درجت العادة منذ مـدة على اتهام الموارنة بكلّ شيء لسبب أو لغير سبب، كأنما الشرط للبروز على ساحة التاريخ هو التهجّم على الموارنة خَدَمَة هذا التاريخ. يدفعني ما اشعر به من تجنّ على الموارنة في هذه التـهجّـمـات المتعـدّدة المصــادر والاسبـاب والاهداف، إلى تصويبٍ تفرضه الحقيقة نفـسها. عندما أراد اكبر مؤرخي لبنان في الحقبة الحديثة، الاستاذ كمال الصليبي، دراسة تاريخ لبنان والبحث عن مؤرخـيه الأول، لم يجـد امامـه غيـر الموارنة، لأنهم رواد تاريخ لبنان صنعًـا وكتابةً. صـحيح أن زجليات ابن القـلاعي تنطوي على شيء من الهدفيّة، لكن هذه الهدفـيّة، وإن تركّزت على الدين مصدرًا للاخـلاق المستـقيـمة، تقـول بحب الارض والوفـاء لتراثهـا وإنماء رسالتـها الحضـارية بحيث ترسي نواة شعـور وطني، لن يلبث مع البطريـرك اسطفـان الدويـهي المؤرخ أن يتـمــيّـز بأبهـى مظاهره بالموضـوعية والشـموليـة وبُعد النظـر، لاسيمـا في كتـابه "تاريخ الازمنة" حيث يستهلّ إحدى مخطوطاته بقدوم الاسلام إلى المنطقة، كما يستند إلى المؤرخين الـدروز والاسلام العرب المعروفين في ذلك الوقت امــثــال صـــالح بن يحي (تاريخ بـيـروت)، وابن ســبــاط والاشـرفاني. كـذلك القـول عن طنوس الشـدياق الذي لا يقـتصـر تاريخه على ابناء ملّته. أما يوسف الدبس، فـواسـع الآفاق موضـوعي النظرة مقـتنع بتميُّـز تاريخ لبنان وخصوصـيته، مع انفتـاحه على

تاريخ المنطقة، على "تاريخ سورية".

حقُّ هؤلاء المؤرخين الروّاد الإكرام والثناء. ولعلّ أكبر فضل لهم إيمانهم بلبنان وقناعتهم برسالته التاريخية القائمة على تلاقي عائلاته الروحية وتفاعلها. وإنْ كان هذا الوعي الوطني قد كلّل اخيرًا كل اللبنانيّين، فهل يُذَمّ الروّاد لانهم كانوا السبّاقين اليه، من منطلق التنوّع وحرية التعبير والبحث عن الحقائق التاريخية؟

حبّذا لو أنّ الجماعات المختلفة، المتعايشة على أرض لبنان، تبرز تواريخها وحقائقها فتغتني وتُغني، بخبراتها وتجاربها، الجسم الوطني كلّه.



الفهرس

ص

سلسلة «الكنيسة في الشرق»

دير سيّدة النصر نسْبَيه - غوسطا

(١٤،٥ × ٢١،٥ سم)

١- المارونيّة في أمسها وغدها، أ. بولس نعمان، د. الياس القطّار، أ. كرم رزق، د. طانيوس نجيم، سنة ١٩٩٦، ١١٠ ص.

٢- ظاهرة الحياة الرّهبانيّة، نشأتها، طرقها، تنظيمها، أ. جوزف قزي، أ. إميل عقيقي، سنة ١٩٩٥، ١٢٠ ص.

٣- المسيحيون في لبنان والشرق، أ. بولس نعمان، د. كمال الصليبي، د. فريد الخازن، سنة ١٩٩٦، ١٣٤ ص.

٤- نحو وحدة التراث السرياني الإنطاكي، المطران غريغوريوس يوحنّا إبراهيم، المطران يوسف ملكي، الأب الياس خليفة، سنة ١٩٩٧، ١٣٠ ص.

٥- نعمة الله كسّاب الحرديني (قدّيس كفيفان)، دراسة تاريخيّة شاملة، للأب مارون كرم، تقديم الأبوين جوزف قزّي وجوزف مكرزل، سنة ١٩٩٨، ١٦٠ ص.

٦- محطّات مارونيّة من تاريخ لبنان، الأبّاتي بولس نعمان، سنة ١٩٩٨، ٢٧٦ ص.

